المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الفكر والتاريخ

يتناول هذا البحث الضمير التاريخي
في أدب القرن العشرين .

تأليف
بيير - هنري سيمون

عربه
الدكتور عادل العوا

راجعه
الدكتور نور الدين حاطوم

الفكر والتاريخ

ليس للتاريخ عيون ولذا ينبغي رفض عدالته والاستعاضة عنها قدر الامكان بالعدالة التي يتصورها الفكر.

البير كامو «الصيف»

إن أكثر الأوقات اضطراباً هي أعظمها وثوقاً لأننا نعرف ما يطالعنا من أمور العالم.

دونوزو كورتز
(نقلاً عن ج بيير «نهاية الازمنة»)

— ١ —

المدخل

الكون في التاريخ

ضمير القرن العشرين

نعرف النبؤة الصحيحة التي جاء بها (اوغسطين تيري)[١] سنة ١٨٣٤ في قوله : « ان التاريخ طابع القرن التاسع عشر يضفي عليه اسمه كما أضفت الفلسفة اسمها على القرن الثامن عشر » • والحق ان تجدد الدراسات التاريخية في غرة العصر الابداعي ، واتساع حقلها ، ووثوق طرائقها بالتدريج على قبس المذهب الوضعي ، جعلت القرن التاسع عشر قرن التاريخ • غير ان هذه الصيغة توائم القرن العشرين أيضا مواءمة أفضل اذا نحن فهمناها بمعنى أشمل • فمعاصرو (ميشله) [٢] و (ريناذ) [٣] و (فوستل دي كولانج) [٤] و (غاستون باريز) [٥] ومعاصر و (لانسون)[٦] و (بديه) [٧] و (ابل لوفران) [٨] أيضا يرون ان التاريخ كان بالدرجة الاولى معرفة الماضي بحوادثه التاريخية وأوضاعه وعاداته الاخلاقية وأدبه ؛ وان شيئاً لا يبدو أعظم شأواً من ارجاع زمن الاموات أمام نظر الاحياء ان كان المرء شاعراً ، أو ارجاعه حيال شعورهم التفكيري ان كان المرء فيلسوفاً • وقد تحدث (ميشله) سنة ١٨٦٩ عن موهبته وهو يختم عمله التاريخي قائلا : « كنت مصاباً بداء

آثرنا ان نذكر في الهامش باللفظ الاصلي اسماء الاعلام وعناوين المؤلفات (المعرّب)

(١) Augustin Thierry (٢) Michelet (٣) Renan

(٤) Fustel de Coulanges (٥) Gaston Paris (٦) Lanson

(٧) Bédier (٨) Abel Lefranc

جميل نغص علي شبابي ، ولكنه داء خاص بالمؤرخ • كنت احب الموت • وقد سلخت تسع سنوات على باب مقبرة (بير لاشيز) [1] ، حيث كانت موطن نزهتي الوحيد • ثم سكنت عند (بيفر) [2] ، وسط حقـول الاديرة الفسيحة حيث تبرز قبور اخرى • وربما كانت حياتي مما يعتبره الناس حياة مدفونة : لا اعاشر سوى مجتمع الماضي ، ولا اصادق سوى الشعوب الملحدة في القبور ••• » •

ويردف بقوله : « كنت املك المنحة التي طلبها (القديس لويس) وعجز عن نوالها : منحة الدموع » • وعلى هذا النحو في الواقع كان التاريخ يبدو في نظر انسان القرن المنصرم : صورة مختلطة كبرى ، كثيرة العناصر ، مسرحية مؤثرة ، ترتفع في المكتبات والمتاحف وعلى المقابر والاطلال ، سجادة رائعة لا يستطيع كل جيل من الاجيال اكتشافها ونشرها وفك رموزها الا بالنظر الى الوراء ، والالتفات نحو الموت •

بيد ان معنى كلمة تاريخ قد تبدل منذ عشرين أو ثلاثين عاما • ومن النادر ان نلقى كلمة أكثر تكراراً على اقلام الفلاسفة وعلماء الاخلاق والروائيين أنفسهم • وهي كلمة ترد دائماً مثقلة بالحياة وبأريج الحاضر وحتى بالمستقبل • وعندما يعلن كاتب اليوم تضامنه مع التاريخ ، ويصرح بتأهبه للانخراط في عقده ، وعندما يريد ، مثل (مالرو) [3] ، ان يصنع التاريخ بأن يخلف « ندبة في الارض » ، وعندما يضع في التاريخ رجاءه كما فعل (سارتر)[4] و (اراغون) [5] (على الرغم من اختلاف أسبابهما) ، أو حين يرفض التاريخ ويحكم عليه كما فعل (كامو) [6] بسائق ان التاريخ سدى ــ فمن البديهي ان كلمة تاريخ ، وهي كلمة ــ

(١) Père - Lachaise (٢) Bièvre (٣) Malraux

(٤) Sartre (٥) Aragon (٦) Camus

مفتاح ، لا تدل على معنى اعادة بناء الماضي[1] ، ولو كان ذلك على أتم وجه ، بل تدل على الصيرورة الانسانية بأوسع مدى ، الماضي والحاضر والمستقبل ، من حيث ارتباطها برباط واحد كارتباط نسج المغامرة الانسانية ، ونسج المغامرة الكونية بأسرها أحياناً . وما فضول العالم بالآثار ، ولا تعاطف عاشق الارواح ، ولا لذة جمع صور يضفي عليها القدم والموت طابع التجريد ، بالحافز الذي يبقي على استمساك الفكر البشري بالتاريخ : وانما هو حركة تعلق بالحياة ، وبالاحرى سؤال يُطرح على المصير . وفي خاتمة دراسة اضطلع بها منذ عهد قريب باحث كاثوليكي لايضاح هذه النظرية ــ وهي نظرية ذات دلالة تامة ! ــ تقول بأن ضرباً من التقيد في مجال الحوادث والظروف هو الذي يوجه أخيراً الاختيار الروحي وطرائق الرسالة [2] ، نقرأ الجملة المدهشة الآتية : « ان التاريخ ينتصر علينا » ــ من حيث انه يبدو في إهاب قوة فاعلة متعالية قادرة على ان تسيطر على ما يختاره الاحياء اليوم وغداً . وقد جعل أحد العارفين بعالمنا الراهن حق المعرفة ، المتميزين بأعظم الانتباه الى لغز مستقبله ، وهو (تيبور منده) [3] جعل عنوان

---

(١) لنلاحظ أيضا ان للتاريخ اليوم سمعة سيئة حتى بمعناه المدرسي . ذلك ان الفكر الحديث يعي صعاب علم ينزلق موضوعه بين انامل الباحث ، بسالق تعقده واشتباك عناصره ولانه يتناول حرية الانسان التي لا يمكن النفوذ اليها ولا التنبؤ بها . وقد انحسرت امام هذا الفكر اوهام المؤرخين الابداعيين الذين بزغ نجمهم سنة ١٨٣٠ واوهام المؤرخين القائلين بالاطلاع الوسيع في سنة ١٨٩٠ . وغدا هذا الفكر لا يؤمن بالشعر ولا بالعلم من اجل اعادة تركيب الماضي على نحو قيم . انظر (ريمون آرون : المدخل الى التاريخ) .

Raymond Aron : Introduction à L'Histoire.

(١) جيل فري : رسالة الى صديق في موضوع شباب الكنيسة .

Gilles Ferry : Lettre à un Ami sur Jeunesse de l'Eglise. Les événements et La Foi, (Le Seuil, 1951)

(٣) Tibor Mende

أحد كتبه : « نظرات الى تاريخ الغد » [1] ، فدل بذلك على ان التاريخ في عصرنا شد ما ينظر اليه بصيغة المستقبل .

* * *

ومن اليسير ان تتبين كيف انتهى انسان القرن العشرين بفكره الى اتخاذ هذا الموقف . ونحن نرى ، منذ النظرة الاولى ، تقارب جملتين من الوقائع : احداهما من النوع الثقافي ، والاخرى من دنيا الحوادث .

فقد اتجه الذكاء الانساني الى تقدير الاهمية الكبرى لبعد (الزمان) بنتيجة اتساع معرفته واجادة محاكمته لمعطياته الخاصة . ولم تذهب سدى الدراسات التاريخية والاكتشافات الاثرية التي انجزت في القرن التاسع عشر : بل انها عوّدت الانسان على ان يستعيض عن التفكير في مطلق لازمني بالتفكير في ذاته دائما من حيث تعاقب احواله وتنوعها ، ووضعه نفسه على الدوام في سلسلة مراحل يلقى فيها كل فرد وزن ما هو (قبل) ويتيح حظوظ ما هو (بعد) . وقد امتدت فكرة التطور من علم الكون وعلم الحياة الى مجال الفلسفة واستولت على تفكير الفلاسفة حتى ان الفكر (البرغسوني) الذي حظي منذ اواخر القرن الماضي بأعظم آيات الاصالة وبالتأثير الاوسع انما كان ينطلق من تحليل الديمومة ومن دراسة الذاكرة دراسة نفسية . وعلى الرغم من ذلك فان الجدل الهجلي ، وهو منطق الصيرورة الـذي اسهمت غزوات (الماركسية) في نشره وتعميمه ، كان يدعو الى اعادة النظر في طائفة من المسائل الفلسفية والدينية والسياسية لصوغها بحدود حركات متعاقبة وتناقضات يتم تجاوزها بالتدريج . وقد سلطت أكثر العقول ايماناً بحقيقة ثابتة ، عقول الفلاسفة واللاهوتيين الكاثوليك ، سلطت الانوار ، من جانبها ، على اتصاف (الوحي) بالصفة التدريجية ، وعلى نمـاء

---

(١) Regards sur l'Histoire de Demain, le Seuil, 1954

العقائد في الزمان (١) • اما النقد الادبي والفني فانه كان يميل ميلا متزايداً باطراد الى الاستناد على التاريخ والاحجام عن الحكم على الاثار بالرجوع الى معايير مطلقة وذلك ابتغاء النظر الى علاقات هذه الآثار بعصر من العصور ، والى تعدد قيم دلالاتها بحسب الازمنة ، والى تحديد منزلتها في تطور النوع ، أو بالاضافة الى الافكار أو العواطف • (٢) وأخيرا فان من أدل البراهين ان تتساءل في صدد ابداع (بروست) ، وهو اعظم ابداع روائي اصيل في هذا القرن ، تتساءل قائلين : ألم يمتح مبدأ القلق الانساني ذاته من معين تأمل الزمان تأملا فاجعياً ، ويلفى سر الشعر الذي يجلو هذا القلق وهو يستغل ذخائر الذاكرة استغلالا غنائياً ؟

* * *

على هذا النحو شرع الكون — في — التاريخ بالنزوع الى ان يغدو ضمير القرن العشرين بتأثير الدروب الثقافية الخاصة وبنتيجة تقدم الذكاء • غير ان اهتداء الفكر الى العناية بالزمان لم يكن ليتجلى على

---

(١) انظر : جان كيتون : الزمان والخلود عند (افلوطين) و (القديس اوغسطين) ، فلسفة (نيومان) •

Jean Guitton : Le Temps et l'Eternité chez Plotin et saint Augustin; La Philosophie de Newman, Boivin 1933.

وله ايضا : تبرير الزمان Justification du Temps, P.U.F. 1941 و جان داينلو : سر التاريخ LE Mystère de l'Histoire, le Seuil 1953. واثار (جيلسون) Gilson و (مارو) Marrou و (فارديني) Guardini الخ •

(٢) كان من الواجب ان نذكرهنا أشهر آثار النقد الادبي من (سانت بوف) Sainte - Beuve الى (البير تيبوده) Albert Thibaudet ولكننا نقتصر على الاشارة فقط الى محاولة بارعة قام بها في السنوات الاخيرة (جورج بوله) في « دراسات في الزمن الانساني ، المسافة الباطنية » M. Georges Poulet : Etudes sur le Temps Humain, Plon 1950 LA Distance intérieure, Plon 1952 وهذه المحاولة تستهدف استخلاص نوع من قياس الزمان ، أو المسافة بين الشعور وموضوعه في كل اثر فلسفي وادبي • وهذا البعد يختلف بالنسبة للدراسة الارادة أو دراسة عدم الاستقرار العاطفي دراسة نفسية علمية • ولهذا فانه يختلف بالاضافة الى (كورنه) Corneille او الى (راسين) Racine مثل اختلافه لدي (كورنه) و (ديكارت) Descartes ، ولدى (راسين) و (روسو) Rousseau

هذا القدر من السرعة والتمام ، ولا على هذا القدر من الاستجابة المؤثرة ، لو لم تسهم الحوادث في شق الطريق . ففي أوقات السلم تتغير العادات الاخلاقية تغيراً ضئيلا بطيئاً ، وتبدو القوانين مستقرة كاستقرار المبادىء في مختلف مجالات السياسة والاخلاق والفلسفة والدين ، ويكون من السوي ان يخلد الناس الى وهم الخلاص من براثن الزمان ، وتقل عنايتهم بالتاريخ : فيعتقدون بأن طبيعتهم ثابتة ، ويحسبون انهم يرعونها ؛ لانهم يبحرون على سفينة مدنية تمسك باليم ، ويرون الاشياء من زاوية ، هي على الاقل زاوية الاستمرار والمتانة ، ان لم تقل زاوية الخلود . لا شيء يمنعهم من اعتناق نزعة انسانية ومدرسية ، أي من الاستسلام الى استمرار الانساني والمضي في سبر أغوار الماضي ليستمدوا منه قواعد وأمثلة ، ويرقبوا بصفاء مستقبلا لا يذهب بخيراتهم . وان التاريخ لا يحظى باهتمامهم الا في شكل مقالة منطقية مجردة كلية على طريقة صوفية مثل طريقة (بوسويه) [1] ، أو طريقة عقلية مثل طريقة (كوندورسه) [2] ، حتى يرتاح ضميرهم الطيب ، أو ان يكون التاريخ مجموعة نماذج جميلة تزين أساليب التربية على طريقة (بلوتارك) [3] ، او ان يكون تأريخ ألوان تلذ مطالعتها الخفيفة مثلما تلذ الثياب المختلفة التي تكسو الانسان الخالد على طريقة (والتر سكوت) [4] .

اما في عصور الاضطراب وانهيار الممالك وخطر الكوارث وازمات الضمائر والاخلاق فان الامر يختلف كل الاختلاف . واذ ذاك يعاد النظر في كل شيء حين يهدد الموج باغراق كل شيء . ويشعر الفكر المنخرط في المادة والزمان بثقل الكون وشمول المصير . ويكتشف

---

(١) Bossuet (٢) Condorcet (٣) Plutarque

(٤) Walter Scott

الانسان ان ثمة مغامرة ليست مغامرة منطقية بل مفجعة : التاريخ ، ان الانسان يعتز بالتاريخ ، والتاريخ يمزقه .

والحق ان القرن التاسع عشر لم يكن قرن التاريخ وحسب ، بل كان قرناً تاريخياً . بدأه (نابليون) في الغرب بملحمة امتدت الى (أوربة) بأسرها وحملت اليهـا هزة (الثورة الفرنسيـة) فغرست فيها نتائجها الحقوقية والاجتماعية . وقد هب الفكر الثوري الممتزج بالخميرة القومية هبوب العاصفة فأحدث مثلا أزمة عامة سنة ١٨٤٨ . ولكننا اذا نظرنا الى الامور نظرة اجمالية وجدنا على الرغم من ذلك ان القرن التاسع عشر كان بالاضافة الى قرننا فترة أمن وهدوء . ذلك ان كل ثورة سياسية قد انجبت ارتكاسات محافظة ألجمتها وتدبرت احوال تصفيتها ان لم تعمد الى ارجاع النظام السابق في بعض الاحيان لزمن يقصر أو يطول . لقد تلا (الحكم الرجعي) و (الحلف المقدس) فتن (اليعاقبة) وحملاتهم الصليبية . واختطفت (البرجوازية) المتجمعة وراء (لويس فيليب) [١] و (نابليون الثـالث) [٢] أو (تيير) [٣] الحكم من يد الشعب على وجه السرعة وكان يسرها ان لم تبدل سوى اركان الحرب . ومن الجائز القول ان (أوربة) عاشت أطول مدة من السلم بين مدفع (واترلو) ومدفع (شارلروا) ، أي خلال فترة طويلة المدى ــ فترة تسع وتسعين سنة تقريباً شهراً بشهر ــ وقد ظلت الحروب التي اشتعلت على أرضها ، حتى أقسى هذه الحروب وأروعها ، اعني حرب ١٨٧٠ ، ظلت تتصف بطابع جزئي محلي ، وتهدد الامم في سمعتها بأكثر من تهديدها في وجودها ، ولا ينجب عنها سوى دمار محدود . ما أبعد المقارنة بين (باريز) في السنة المسماة بالسنة الرهيبة وبـين (فرسوفيا) ١٩٤٤ أو (برلين) ١٩٤٥ ؟ لقد تمسك الاوربيون ببعض

---

(١) Louis - Philippe (٢) Napoléon III (٣) Thiers

تخلق حربي على الاقل ، وقامت بين المتحاربين مجاملة أو اتفاق ضمني بله اتفاق رسمي على انقاذ المدن المفتوحة والسكان المدنيين • وقد كانت الحدود في كل مكان تجزيء الدول في شبه الجزيرة الاوربية أعظم تجزئة • وكانت الجيوش تتدرب ، واركان الحرب والدوائر العليا والقوى المالية تلعب لعبة ماكرة لا تتصف بصفة الشرف في جميع الاحوال• غير ان الانتقال من بلد الى آخر كان يتم دونما حاجة الى « شكليات »، وكان الذهب ذاته يشري (الشمبانيا) في (باريز) و (الفودكا) في (سان بطرسبرغ) ، وكان الغرب قادراً على تعبئة رجال مصارفه ومهندسيه لتمويل حفر قناة السويس تمويلا مشتركا ، وقد تعاون اقتصاديو البرجوازية الفرنسية على مد الخطوط الحديدية في (روسية)•

ولكن ما يستأثر باهتمامنا بوجه خاص عندما نرجع الطرف في عهد اجدادنا هو ذاك الانطباع الذي يبهرنا عن مدنية نامية ، وثقافة مطمئنة الى قيمها • فقد كان عصرهم عصر ازدهار الرأسمالية والصناعة ايما ازدهار • كان العصر الذهبي ــ بالمعنى المجازي والمعنى الحقيقي ــ للحضارة البرجوازية • فلم لا نعترف بضرورة هذه الحضارة وخصبها وعظمتها ؟ كان الضمير الشعبي لا يزال ضامراً ، وكانت الطبقة المسيطرة اقتصاديا هي أيضاً الطبقة المثقفة • ولم يكن من المستغرب ان تقابل القوة الاوربية بجرسها الرنان وتقابل الثروة البرجوازية مذهباً انسانياً مطمئناً ونظرة صافية الى التاريخ • ولم يكن بمثابة العدم وجود سلّم مستقر للقيم الرئيسية ، هذا السلّم الذي كان يتيح للناس من(الاطلسي) الى (الاورال) ان يفهموا ويرمقوا ويعجبوا بـ (فكتور هوغو) [١] و (ڤاغنر) [٢] و (كارليل) [٣] و (تولستوى) [٤] • ولسنا نرتاب

---

(١) Victor Hugo (٢) Wagner (٣) Carlyle
(٤) Tolstoi

في ظهور بعض الاصوات القلقة منذ ذلك الحين : (رينان) ، (تين)[١] (فلوبـر) [٢] ، (بودلـير) [٣] ، (شوبنهور) [٤] ، (نيتشه) [٥] (اميـل) [٦] ، (ايبسن) [٧] ، (دوستوفسكي) [٨] ، وقد كانوا يحذّرون انسان الغرب من نجاحه ، ويدعونه الى الحفاظ على ضمير متواضـع يعي عـوز وجـوده ووهن انتصاراته • وقـد نجم عن ذلك ان حـدثت حـوالي سنـة ١٨٨٠ أزمـة طـارئة من التشاؤم حـددت أعراضها « بحـوث علـم النفس المعـاصر » [٩] وتجلت هذه الاعراض في الادب المظلم ، أدب المذهب الطبيعي من جهة ، كما تجلت في غريزة الفرار التي انجبت الرمزية من جهة اخرى • ولكن ثمة نقطة بينة جداً : ذلك ان أسباب هذه الازمة لم تكن ماثلة في تأمل التاريخ تأملا مؤلماً ، على قدر انبثاقها عن عسر ميتافيزيائي ناجم عن ان فكرة مبسّطة صلفة عن العلم هي التي زعزعت اركان العقائد الدينية القديمة ، وان هذه الازمة لم تمس النخبة البرجوازية لان هذه النخبة شعرت شعوراً مسبقاً بالكارثة الناشئة عن طغيان المادية عليها ، بل لان هذه النخبة كانت تشعر بتخمة السعادة • وقد تحدث (رومان رولان)[١٠] وهو في سن الشباب سنة ١٨٩١ عن هذا الداء الروحي في رسالة بعث بها الى (ملويدا دي ميزنبورغ) [١١] فقال : « انه الفكر المادي الريبي الذي ذاع في ظل (الامبراطورية الثانية) وجعله البؤس حاقداً ، فغدا التشاؤم السمج الدموي الثقيل الذي نراه اليوم » [١٢] • غير ان ذلك

---

(١) Taine (٢) Flaubert (٣) Baudelaire

(٤) Schopenhauer (٥) Nietzsche (٦) Amiel

(٧) Ibsen (٨) Dostoievski

(٩) Essais de psychologie contemporaine

(١٠) Romain Rolland (١١) Malwida de Meysenburg

(١٢) نقلا عن (كلوديل) في مجلة العالمين : ١٥ كانون الثاني ١٩٤٩
Claudel, in Revue des Deux Mondes

لم يكن ، بوجه الاجمال ، أكثر من مرحلة وجيزة : فبينا كان ارتكاس روحي تقليدي يطمئن الضمائر الدينية ويرطبها منذ السنوات الاخيرة في القرن ، مالبثت ارتكاسات اخرى ان عادت الى الايمان بالعقل وبالتقدم وبرجاء مدنية علمانية عالمية ، وهي الارتكاسات التي ساقت في أيام قضية (دريفـوس) [١] الى تأليف « الحزب العقلي » الذي مقتـه (بيغي) [٢] واجاد وصفه (روجه مارتان دي كارد) [٣] في (جـان باروا) [٤] . وحينما عاد (رومان رولان) نفسه فتحدث بعدئذ عن فترة سنة ١٩٠٠ في كتابه عن (بيغي) مجّد تلك الفترة واعتبرها عهداً سعيداً مبدعاً ، « عهد سعادة الحياة الخصبة المترعة بالطرائف التي تنفخ البراعم الانسانية جمعاء » .

* * *

من الجائز بوجه الاجمال تأكيد ما يلي : ان البرجوازي الاوربي سنة ١٩٠٠ انسان سعيد . فحياته المادية سهلة ، وثروته مستقـرة ، وضميره طيب . ولا يتسع وقته للملل : من أجله تنظّمت معارض عالمية تضم ثرواته وآلاته فيتمتع برؤيتها مرصوفاً بعضها الى جانب بعض . ومن اجله بنى المهندسون دمى تخلب لبه : الدراجة والسيارة والطائرة. وقدّم كتّابه اليه أدب استهلاك سار يلفى فيه ، بحسب درجة ثقافته ، تسلية ترضي فكرة المتسكع ، أو يلفى لذات أكثر ارهافاً هي لذات التهكم والسخرية ، وآخر خلجات المذهب الابداعي ، والاتساق العذب في المدرسية الجديدة وفي لغة الحاضرة الفرنسية . ولا ريب في ان الجدة والطرافة كانتا تجتذبان في الحق بعض الناس : لذا شرعوا بقبول تمويهات التكعيبية وسحر النزعة الابتدائية والوحشية في لوحـات

(١) Dreyfus (٢) Péguy (٣) Roger Martin du Gard
(٤) Jean Barois

(غوغان)[1] ، كما قبلوا الاسلوب الهائج في الباليهات الروسيـة ؛ والصخب الصوتي الجميل في (تتويج الربيع)[2] • بيد ان هـؤلاء كانوا ينتمون سلفاً للقرن الجديد ، ويمثلون قرينة دالة على التعب والقلق؛ فلم تعد الطمأنينة السابقة توائمهم ، وأخذ الشعور المسبق يعلمهم بأن الارض ستميد بمن عليهـا • ولكن عددهم ضئيـل ، والرأي الذائع يلومهم ، والناس الجادون يلفظونهم • وان الجادين ليعنون ، حـين يهتمون بأدب الفكر ، بأن هذا الادب يتناول مسائل اخلاقية واجتماعية كما يتناول مشكلات الوراثة والزنا أو وظيفة الدين من الناحية الاخلاقية: ولذا باتت الجدارة والثروة والمجد وقفاً على الباحثين في الاخـلاق من أبناء الاسر البرجوازية مثل (بورجه)[3] و (توماس مـان) [4] و (الفكتوريين)[5] الكبار ، وعلى مدّاح القومية مثل (بارس) [6] و (كيبلينغ) [7] • ولم يكن أشهر الكتّاب ميتافيزيائيين • بل ان معنى التاريخ النهائي العميق ، ومستقبل المدنية لا يثيران قلقهم الا نادراً ، لانهم واثقون منهما • اما الذين تساءلوا في هذا المجال ، (ليون بلوا)[8] في كواه المتعاقبة ، و (بيغي) و (سوريل)[9] في حانوت «الدفاتر» [10] قبل عام ١٩١٠ ، فان انساناً لا يكاد يصغي اليهم ، بل ولا يعرف حتى اسماءهم • فمن كان يعني آنئذ بتفكير (لينين)[11] و (تروتسكي)[12] في منفاهما الناشط المحموم ؟

ذلك ان الانسان الغربي في السنوات الاولى من القرن العشرين قد اضاع تجربة التاريخ وفقد معناه • وقد دأب مؤرخوه على جمـع

---

(١) Gauguin (٢) Sacre du Printemps (٣) Bourget
(٤) Thomas Mann (٥) Victoriens (٦) Barrès (٧) Kipling
(٨) Léon Bloy (٩) Sorel (١٠) Cahiers (١١) Lénine
(١٢) Trotzki

الجزازات الكثيرة ليرقعوا قطع السجادة ، ولكنهم لم يروا السجادة كاملة ، ولم يظهروها في جملتها • وكان الانسان البرجوازي في القرن الجديد لا يزال حصيلة عصر سعيد ، كان يستغل ارثا من التعالي واليقين، وكان محمّلا بالاعتقادات والمبادىء ، يسبح في زمان مشرق متجانس طيب ، يطلع على التاريخ ولكنه لا يحيا في التاريخ • وقد استلزم ايقاظه قرع الاجراس ومدفع آب ١٩١٤ • واذ ذاك بدأ عصر جديد لم يبق من الجائز فيه التغافل عن خبث قدر تاريخي وظلمته ونزواته • وما لبث (فاليري) ان فطن الى ان المدنيات فانية ، واستبق (توينبي)[١] الذي جاء فيما بعد ليصف مراحل موتها وفنائها • ولم تمض سوى برهة وجيزة حتى قرأ الناس(شبنجلر)[٢] و (كيزرلنغ)[٣] و (برديائف)[٤] و (غارديني) و (غينون)[٥] • وصار من الذائع الكلام على انحطاط الغرب ، والحديث عن « عصر وسيط جديد » ، أو عن « نهاية العصر الحديث » • وشرع الشك الاساسي في تقدم النوع البشري ، وفي معنى المغامرة العالمية وطبيعة الانسان نفسه ، شرع يغمر الفكر الاوربي كما يغمره الصبر حيال الاخفاق وترقب الكارثة • ولا ريب في ان فتن المذهب المؤمن بالكارثة سيلقاها المسيحيون بالرجوع الى ايمانهم بالعناية الربانية وسيلقاها الماركسيون بايمانهم بفكرة (هجل) القائلة بتقدم الانسانية تقدماً جدلياً وبثقتهم المبدئية في التاريخ ، ولكن هذه الثقة ليست ثقة تبدّد فكرة الخصم ، وهي لم تنجح في القضاء على الصوت الذي ينطلق اليوم من الجوقة ، وهي جوقة نشاز بذاتها : جوقة الفلسفات الوجودية • انه الصوت الذي يعلن لا عقلية الكون ، وجواز الحوادث ، وابهام القيم • ففي هذه البيئة

---

(١) Toynbee (٢) Spengler (٣) Keyserling

(٤) Berdiaeff (٥) Guénon

ينزع الفكر المسيحي شطر الغموض المسرف والرؤى المفزعة ويسعى الى رفض الامل الاخير فيما وراء كوارث محتومـة قد تكون قريبة ؛ والفكر الماركسي الذي يزن بحركة التاريخ أهمية افعال الضمير وحرية اختيار الانسان يجنح الى الاعتقاد بأن عهد الثورات التي تشق الطريق أمام انتصار الكادحين النهائي هو عهد مظلم فاجعي بوجه خاص • وان الانسان المعاصر ليتميز ، من بعض وجوه الاعتبار ، بتوسيع فكرته عن مدى قدرته ، مادام يعي ان ليس في وسعه تبديل شروط وجوده وتغييرها وحسب عبر اضطرابات العصر المحتومة ، بل وقدرته على تشكيل طبيعته ذاتها • وهذا الانسان يشعر ، من جهة اخرى ، بأنه محدود تتهـدده الاخطار وان فكره الذي تستعبده المادة ويسترقه الزمان يلقى حتى في أعمق خواطره وفي مشيئته الحاسمة ضغط الماضي والتطلع الى المستقبل بغموض ، وكأن قراراته تخضع لمعرفته باللازمني بأقل من خضوعهـا للانغماس في التاريخ • وعلى كل حال انقضت المرحلة التي كان التاريخ يبدو فيها نهراً جميلا يغري بالرجوع الى أصله ويسرّ من يرمق جريانه وهو واقف على الشاطىء • صار التاريخ يفهم على حقيقته ، وغدا عنصراً سائلا يحمل الانسان ، غدا بحراً تخط فيه ارادة الانسان المؤلفة من قوى حتمية ، تخط سير الابحار المتقلب تقلب الهوى والنزوان • — اما المرفأ فمجهول اطلاقاً ، والغرق جائز على الدوام •

— ٢ —

الانسانيون يكتشفون الفاجعة

العماد بالنار

تقرع الاجراس ، وينطلق المدفع صيف عام ١٩١٤ . والانسانيون هم أشد الناس اضطراباً لدى سماع أصواتها . الانسانيون ، اعني اولئك الذين بذلوا من جهة اولى عنايتهم ومحبتهم لقبول أثمن تراث الماضي ، وجني أحلى ثمار الفكر الغربي ، حكمته وثقافته ؛ والذين شادوا من جهة اخرى مذهباً من تفاؤل قرن سعيد فوثقوا بالانسان عقله وعلمه ومكاسبه ومستقبله وبنوا ثقتهم على مسوّغات . واني سأخصص مؤقتاً من أجل دقة التحليل كلمة (الانسانيين) باولئك الذين يتخذون الانسان مقياس كل شيء ، ويضعونه في مركز العالم ، وربما قبلوا فكرة اتصال ضميره بآله الفلسفة اتصالا وثيقاً الى حد كبير أو صغير ، ولكنهم ينكرون الالتجاء الى أي ايمان خارق ، او دين منزل . فالانسانيون بهذا المعنى وحده هم الانسانيون العلمانيون .

وقد كان الشعور بالمباغتة والفزع أول ارتكاس وأبسط ارتكاس . وقد أعرب عنه (باربوس)[١] في « النار »[٢] بكلام قوي وجيز ، وترجمه (دورجلس) [٣] في « الصلبان الخشبية » [٤] بتفصيل أدبي أعظم وبتشاؤم أقل تماسكاً ، كما تجلى في كثير من كتب النكـات والاسلوب المصنوع . ذلك ان بشراً متمدينين سعداء قد قـذف بهم

(١) Barbusse (٢) Le Feu (٣) Dorgelès
(٤) Les Croix de Bois

فجأة الى جهنم ، وألقوا في الوحل الحقير ، وذبحوا ذبحاً في حرب الخنادق • تقاتلوا قتال شعب وشعب ، من غير ان يعرفوا حق المعرفة لماذا ، وشعروا شعوراً غامضاً بأنهم اداة في يد حكام العالم المضللين • ولم تنشط لايقاف هذه الآلية العابثة الرهيبة أية قوة من القوى ، ولا أية فكرة من الافكار الاخلاقية ، ولا المثالية التي غدت مثالية محاربين في كل مكان ، ولا الاوضاع الديمقراطية لان البرلمانيين كافة ، حتى رجال الاحزاب الاشتراكية ، صوّتوا جميعاً مع الحرب ، وكذا تقاعست السلطات الدينية ، وكانت الصلوات ذات الصلوات ترتفع من طرفي خط النار ، الى الاله ذات الاله ، لا من أجل المحبة والسلام ، بل لاجل الحقد والنصر •

لم يلجأ (باربوس) واضرابه الى الاستدلال الا قليلا ، لانالحادث سحقه فاكتفى بوصف الكارثة واتّباع درب الصليب والاعراب عن الالم وعن رجاء البشر المبهم • ولكن من النافع ان نلاحظ ان لروايته الكبرى عنواناً ثانياً هو « يوميات زمرة » (١) • ففي بوتقة المحنة يكتشف صاحب المذهب الانساني الذي خاب فأله ان ثمة قيمة منسية ، قيمة ملموسة : قيمة التضامن الانساني في الضراء ــ تضامن يزداد قوة كلما عظمت بساطة الناس وازدادوا من الطبيعة قرباً • وقد شعر (جيرودو) (٢) ، وهو شديد الارهاف كثير التعقيد ، بانطباع مماثل وكتب في « كليو المعبودة » (٣) : «ان الحرب انتهت • وها انا ذا لن أنام على كتف سرّاج ، أو في حضن نجّار •• ولن تقع رأس (شينار) (٤) النجّار على ركبتي طوال الليل ، بقسوة ، وقوع جوزة الهند من أعلى الشجرة ••• ولن تفزع يقظتي المفاجئة سلسلة مترابطة من الحلاّقين

(١) Journal d'une Escouade (٢) Giraudoux

(٣) Adorable Clio (٤) Chinard

وعمال الطباعة ... » ولكن المذهب الانساني الانيق لدى (جيرودو) لا يستمد من هذا الانطباع الحافل بالحرارة الانسانية سوى تعاطف يهديه أكثر ما يهديه الى ادنى ضحايا القدر . وهذا الانطباع سيوحي لمؤلف « بللا »[1] بصواب التحذير من بلاغـة الشخصيات الرسميـة الباردة امام نصب تخليد الاموات ؛ وسيوحي لمؤلف « سيغفريد » [2] بفكرة وطنية اولية متأصلة في جسد الاشياء اليومية وروحها . وفي هذا الضمير الذي تشع فيه ثقافته المتألقة وتفرشه ريبيته ، تغدو العواطف مرهفة ولكنها تصاب بالصمم ، عواطف محبة النوع البشري والرأفة والفزع . وعلى العكس نجد ان طبيعة (باربوس) الفجة المتحمسةتنتقل من أوج الالم والغضب الى أوج الحب والامل . وقد جاوزت عاطفة التضامن التي استولت على قلبه الدامي رفقة السلاح ، وأبت من ناحية اخرى ان تجمد على تخوم الطائفة القومية المبهمة : وتطلعت الى جحافل الضحايا بأسرهـا ، وهم يسلخون دومـاً من لحم الشعب ، لحم كل الشعوب . وتنتهي « النار » بمشهد فجر جهنمي حيث يرقد ، غـداة قتال عنيف ، فرنسيون والمان ، أحياء وجرحى وأموات ، يرقدون في مزيج الوحل والدم . ويشرع الذين ما زال في وسعهم ان يتنفسوا ويفكروا بتبادل آرائهم حول معنى بؤسهم ومصابهم . وربما جاز لهم الرضى بأن يألموا ويقاتلوا ويصبروا ما دام ذلك واجباً عليهم . غير انهم لا يقبلون البتة ان يقال لهم ان الحرب جميلة أو ان المجد العسكري يكافؤ عناء ما يبذل في سبيله من ألم وعناء في ساحة القتال . وهم يتصورون ان ثمة مجتمعاً أفضل وأقوى من مجتمع التضامن الوطني ، هو مجتمع الضحايا الكبير : «ان جيشين يقتتلان هما جيش واحـد ينتحر » . وهم يجاوزون الحادث الذي يسحقهم ويرون فوقه ، أو

---

(١) Bella   (٢) Siegfried

يتخيلون ، المسؤولين عنه : « اجل ، ان الشعوب هي الحرب ؛ وانه لا يوجد بدونها شيء ، اللهم سوى نعيق بعيد • غير ان الشعوب لا تقرر الحرب بل الاسياد الذين يحكمون » • أي أسيـاد ؟ « انهم شاهرو السيف ، المنتفعون ، المتلاعبون ، اولئك الذين يعيشون بسلام خلال الحرب ، وجوههم مغلقة كخزانة الحديد •• اولئك الذين يروقهم الشرر المتصاعد من تبادل الطعان وتشملهم الموسيقى الحربية •••، اولئك الذين يغوصون في الماضي ، ويتطلعون الى ان يقودهم الاموات ••• القسس الذين يسعون الى تخديرنا حتى لا يتغير أي شيء ، تخديرنا بـ (مورفين) جنتهم ••• انهم المحامون والاقتصاديون والمؤرخـون الذين يعلنون عداء العروق •• » • وبوجه الاجمـال ، انهم جميع أركان المجتمـع البرجوازي والرأسمالي الذين يستجيبون لمصلحتهم ويعلنـون الحرب ويرسلون « الى المذبحة شعوباً بأسرها وقد نضدت في قطعان جيوش ، حتى تكتب فئة تزينها الاوسمة المذهبة اسماء الامراء في التاريخ » — وهذا التفسير مقتضب الى حد ما ، أو جزئي على الاقل • وقد رأينا منذ عام ١٩١٨ ان قلب المجتمع البرجوازي لم يكن كافياً لتنتصر « روح السلم » التي كان ينادي بهـا لدى (باربوس) المقـاتلون من أعماق الهاوية •

وعلى الاقل انهم يدعون الى روح السلم ، ويؤمنون بهذه الروح ، ويثقون بأن تلك الحرب آخر الحروب ، وان تضحيتهم ستعود بنفع ما ، وان العبيد سيمسكون بدفة التاريخ ، ويقودون سفينته نحو العدالة والحب • « ان عيونهم مفتوحة • وقد شرعوا بمراعاة بساطة الاشياء بساطة لا يحدها حد • ولا تنجب الحقيقة في نفوسهم فجر الامل وحسب، بل تبني فيها أيضاً بدء قوة واقدام ••• تفاهم الديمقراطيات ، تفاهم الكتل الكبرى ، تعبئة شعب العالم ، الايمان البسيط كل البساطة •• »• وعلى هذا النحو تتمكن الشمس من شق السحب في السطر الاخير من

هذه القصة المفزعة وتنير مشهد الفصل التمهيدي : « ان الثلاثين مليوناً من العبيد الذين سلّطتهم الجريمة والخطأ بعضهم على بعض يرفعون وجوههم الانسانية حيث يبدو أخيراً برعم ارادة . وان المستقبل بيد هؤلاء العبيد ، ومن الجلي ان العالم القديم سيتبدل حين يتحالف ذات يوم اولئك الذين لا يعرف عددهم ولا شقاؤهم الحدود » . فـ (باربوس) يرقب اذن النجاة من شرور تاريخ غدا غير انساني بتجدد مثالية ذات نزعة انسانية خيّرة في شكل ديمقراطي واشتراكي . وهذه الاشتراكية عاطفية أكثر منها مذهبية ، ومسرحية أكثر منها فاجعة ، انها اشتراكية ستتحلى في « الوضوح » (1) بمزيد من النقد العنيف من غير ان تجاوز منزلة المحال السخي الكريم . وانّا لنرى في هذا الناجي من المذبحة صورة عن صاحب المذهب الانساني الذي خاب رجاؤه بفضيحة الحرب فأخذ يبحث عن تفاؤل جديد في جانب الثورة الاجتماعية .

اتهام المدنية

اما حال (دوهامل) (2) فانها حال مماثلة من حيث المنطلق ، ولكنها جد مباينة من حيث النهاية . وعلى الرغم من انصراف اسلوبه عن الجري وراء المفزع وتطلعه الى الاعتدال المدرسي بأكثر من حرصه على الغلو في النزعة الطبيعية ، فان « حياة الشهداء » (3) ، مثل « النار » صرخة رثاء صادرة عن قلب مزقته الام الحرب فجاءت بمثابة احتجاج الفكر على وضع لا انساني يتعذر استباقه والتنبؤ به . وقد كانت عناية الباحث الاخلاقي في « مدنية » (4) وفي « امتلاك العالم » (5) تفوق موقف الشاهد وتشتمل على اقتراح بتفسير الشقاء تفسيراً اخلاقياً كله هذه المرة ، لا تفسيراً سياسياً . وفي الصفحة الاخيرة من « مدنية » يتأمل (دوهامل)، وهو طبيب مساعد، وعالم مجنّد ، يتأمل صاداً موصداً (6)

(1) Clarté (2) Duhamel (3) La Vie des Martyrs
(4) Civilisation (5) La Possession du Monde (6) Autoclave

كامل الصنع ، ويرى فيه رمز الحضارة الآلية . وهذا ما جال في ذهنه : « ان المرء ليضل في موضوع السعادة والخير ... وقد امعنت في هذا الصاد الموصد القبيح الجاثم فوق عرشه . والحق أقول لكم أن المدنية ليست في هذا الشيء ، كما انها ليست في هذه الملاقط اللامعة التي يستخدمها الجرّاح . ان المدنية ليست كل هذا المتاع الرهيب . فاذا لم تكن في قلب الانسان تعذر ان تكون في أي مكان » . وفي « امتلاك العالم » يرجع الى هذه الفكرة ويوسّعها فيقول : « لقد برهنت الحرب على ادانة المدنية العلمية والصناعية التي تستند الى الذكاء . وان سلطانها ينتهي الى اخفاق ذريع . وليس على الفكر الا ان يتجه شطر منابع القلب . وعلى المدنية العلمية ان تكون خادماً ، لا آلهة . وعلينا ان نستعيض عنها بالمدنية الاخلاقية ونجعل سلطان القلب وحده قادراً على انقاذ النوع البشري من براثن الشقاء واليأس الانساني » .

لا ريب في ان الحرب افلاس وفضيحة في نظر رجل كتب هـذه الاسطر وهو يتكلم باسم جيل ، بل وباسم ثقافة . ولكن الادانـة لا تشمل المدنية الغربية بالصبغة البرجوازية التي تصبغ أوضاعها وثقافتها: والفكر لا يردها ويرفضها ، وانما يقتصر على تقويم اعوجاجها واعادتها الى ان تعبد قيمها الصحيحة ، قيم التأمل والمحبة ، لا « التقنيـة » والقدرة [1] . ولذا فان الحرب امر عارض بائس سدى ، ولكنها مجرد

---

(١) لنذكر عرضا ان انصار المذهب الانساني في الغرب لم يفطن ضميرهم دائما الى النتيجة التي تستخلص من الحوادث والتي تمثل في التفاوت بين التقدم « التقني » والتقدم الاخلاقي . ولا نزال نقرأ في مادة (تاريخ) في المعجم الفلسفي لـ (رودلف ايزلر) Rudolf Eisler:Dictionnaire Philosophique (طبعة ١٩٢٢) ما يلي : « نشط البشر بعملهم الاعلامي والارادي وبدّلوا شروط حياتهم واخذوا يتحررون من اسرها باطراد فانجبوا مزيدا ناميا من المدنية ، المدنية التي تزداد ارهافا وحرية واتساقا . وقد زاد في غضون ذلك تهذيبهم على نحو فاعل حر واع ، ومضوا قدما في درب فكرة انسانية عن المدنيـة ، وهي فكرة المذهب الانساني النقي التام الذي تمثله ارادة عاقلة هي التي حققت ذلك » . نقلا عن (جوزيف بيبر : نهاية الازمنة) . Joseph Pieper : La Fin des Temps

وهنا تظهر عقيدة التقدم وهي ما تزال في اوج تقانها .

عارض طارىء ، خطأ ، ازمة موقوتة ، زلة على درب التقدم الانساني • وهذا الرأي يتسق اتساقاً مزدوجاً مع تقاليد المذهب الانساني : فمن جهة اولى انه يعتبر جدارة الانسان ماثلة في ضميره الاخلاقي • وهو يعيد ، من جهة اخرى ، الى يد الانسان حظوظ نجاته وتوجيه التاريخ • وعلى الرغم من ان الطبيعة تنجب بصورة سوية الاضطراب والعنف والاضطهاد ، كما ينجب المجتمع في الغالب الظلم والكذب ، فان في وسع الانسان المطّهر القلب ، المثقف الذكاء ، ان ينظّم هذا الاختلاط المزدوج ؛ وان خير وسيلة في هذا التنظيم هي أيضاً ممارسة الفضائل الخاصة ، وان يجيد المرء مهنته ، وينفق على أهله ، ويربي اطفاله • وهذه الفضائل الخاصة هي في الوقت ذاته فضائل فردية : وسيمضي (دوهامل) دائما وهو أشد تحدياً للجماعات والطبقات والجماهير من غير ان يثق البتة في حوافز الضمير الجمعي • ذلك انه يرجح جـانب الافراد في تأثيرهم على التاريخ ويرى ان كل امرىء يحيط نفسه بسياج من الصحة والامن والقرار فيسهم على هذا النحو في ترميم نسـج المجتمع وشد أزره • وقد جرفت الصوفية الثورية (دوهامل) فترة قصيرة كما جرفت (باربوس) • ولكنه سرعان ما رجع الى تقاليد الثقافة البرجوازية وحكمتها ، واذ ذاك عادت اليه الثقة بالحياة اذ رأى الاطفال يلعبون : « هو ! لا ! أيها الرجال الصغار ! انتم عرقي • فالى الامام • تشجعوا ! » •

ادانة الحرب

وثمة ارتكاس آخر للمذهب الانساني يتميز بتفاصيل مغايرة : هو ارتكاس (الآن)(١) • ففي « المريخ أو ادانة الحرب » (٢) نلفى أيضاً احتجاج الضمير المتمدين ضد انبعاث الوحشية كما نلفى مسعى الفكر

(١) Alain (٢) Mars ou La Guerre

للرجوع الى درب العقل والنظام . ولكن الباحث الاخلاقي يمتنع هنا على أي خور عاطفي ولا يعنى بفتنة الهول ولا يتناول برثائه مصاب الاجسام أول ما يتناول : وعنده ان أعظم ضحايا الحرب هي الارواح ؛ انها البشر الذين افناهم نظام ساحق واسلس انقيادهم لاهواء أولية ، اهواء القطيع ، فسلخ عنهم استقلال وجدانهم . وهو يذهب الى ان المؤسسة العسكرية تنجب الدمار والهدم بمجرد وزنها بأكثر مما يصدر عن ميدان القتال [٣] . فكيف يتفق ان يحدث مثل هــذا الاضطراب والفوضى ؟ ان (الآن) ، مثل (دوهامل) ، لا يرتاب في ان المدنية مكسب قطعي ، وان لها قيمة ــ ذهبية . وهو ــ مثله ــ يحسب ان الناس هم المسؤولون عن التاريخ . ولكنه لا يتّهم العقل ولا يتضرع الى القلب وانما يعتبر الاهواء موطن الخطر ويرى ان العون انما يصدر عن الذكاء العاقل الذي يتوجّه خير توجيه . والواقع ان المشكلة التي يعالجهــا (الآن) هي مشكلة الاسباب الاخلاقية والنفسية للحرب . فهو يتعمق تحليل غريزة القتال التي تكمن دائماً في كيان الانسان وتتمثل في عشق الرائع والوحشي معاً ، وتقود المرء الى الشجاعة والعنف ، الى التضحية والقسوة . وهذا لا يعني ان الفيلسوف الذي تطوّع في الجيش وعمره ٤٦ سنة انما يذود عن مبدأ « اعتراض الضمير » : ذلك ان شعــوره بالمشخص شعور رهيف ، وهو يعلم غاية العلم أهمية الصلات الاجتماعية فلا يستطيع التنصل من روابط التضامن الحي في المجتمــع . وهو يشارك بخفة وحبور في قدر المدينة شأنه شأن الفلاح الجندي الذي يعجب به ، وهو « دائما ينطق بالأمثال ، ويجيد الملاحظة ، ويعرف عن

---

(١) يبدو ان دعوة (آلان) المنهجية للقضاء على التنظيم العسكري قد تضاءلت شدتها علــى مر الايام . ويروي (هنري موندور) Henri Mondor (Alain Nrf 1954) ان (آلان) بعث اليــه سنــة ١٩٣٧ بالاهـــداء الاتــي لكتابــه : « ذكريات حرب » Souvenirs de Guerre : « الى الاستاذ هـ.م اهدي هذه الصورة الصحيحة عن المحارب الذي يسمو على ما يقال عنه . . كل انسان جميل في عمله ، والعسكري ايضا . . » .

السماء وعن الارض كل شيء ، وقد ابحر لقضاء عشر سنوات في حرب (طروادة) » . غير انه يزعم انه لا يشارك في ذلك القدر الا بالشطر الادنى المقيد من كيانه . فلئن بذل جسده للحرب ، فانه لا يريد ان يمنح الحربَ فكره . وهو يدّعي ان في قدرته ان يظل بريئاً من الحقد والجنون ، حراً في نقده وفي حبه . وان « الغضب الجامح الذي يتجلى عند من يرضون بالحرب ويتخذون رضاهم بمثابة تكامل وانجاز » ، هذا الغضب يثير فزعه . كلا ، ا نالانسان لا يتكامل بالحرب . وعلى المرء ألا يحب الحرب ، والحرب جنون . وانما العقل هو السلم ، وان السلم لا قوام له بالحرب أبداً ، بل بروح السلم ، « وهي دفاع المرء بلسانه بدل يده » ، بل انها ، بوجه خاص ، اجتناب الايمان بحتمية الكوارث التاريخية . « اذا آمن امرؤ بالحتمية ، كانت الحتمية حقاً بايمانه وحده . واذا آمن شعب بأسره بأن لا مناص من الحرب غدت الحرب في الواقع واقعاً لا مفر منه » .

يتضح اذاً ان ليس في مكنة المذهب الانساني الرضوخ وقبول الشقاء زمناً طويلا ؛ انه يحتاج الى الامل والرجاء ، ويحتاج الى رفض سلطة القدر ، والاضطلاع بوثبة ايمان تستهدف موازنة الحرية والعقل في كيان الانسان . انها وثبة نبيلة حكيمة . يقول (اندره موروا)[1] : « يبتغي (الآن) ان يكون متفائلا لان من شأن شروط الوجود الانساني انها ان لم تعتبر التفاؤل القاطع قاعدة وجد التشاؤم ، أفظع التشاؤم ، ما يبرّره فوراً » . أجل ، ولكننا نتساءل : ألسنا نحذف عندئذ معطيات المسألة ذاتها ، ونتجاهل الفاجعي الملازم لشرط وجود الناس حين نفرض ان التاريخ يستجيب مثل هذه الاستجابة الكاملة لارادة الانسان ، ويخضع لرجاء عقله ولا يقوده الى الشقاء الا عند ارتكاب الخطيئة

---

(١) André Maurois

والاثم ؟ ان مزاج (جيرودو) ، وهو مزاج ساخر لطيف ، قد لمس ببراعة في هذه النقطة الرئيسية حافزاً من أعمق الحوافز الخفية ، وذلك عندما وصف الحوار الاخير بين (هكتور) (١) و (اوليس) (٢) في : « حرب طروادة لن تقع » (٣) فقال : ان هذين الرئيسين ، وكلاهما نبيل الفؤاد عطوف ، يجهدان باخلاص لانقاذ السلام واجتناب الكارثة التي تعمل قوى لا يمكن ضبطها على ان تجعلهما ـ رغم ذلك ـ ينزلقان فوق المستوى المائل ، مستوى المصير .

نداء مكيافلي

ان رد الفعل الذي نهض به (آلان) ازاء الحرب هو ارتكاس فيلسوف مؤمن بالتقاليد الديكارتية ، ارتكاس مفكر عقلي يحمله سخاء روحه على ان ينزع منزعاً اخلاقياً . أما (موراس) (٤) فانه ينتمي كذلك الى الاتجاه العقلي ، ولكن ذكاءه يتجه اتجاهاً كاملا شطر السياسة . فالحوادث التاريخية في رأيه قرارات سياسية بالدرجة الاولى : وان الاهواء تسهم فيها بنصيب سعيد أو غير سعيد على قدر خضوعها أو عدم خضوعها للـ (خير الحقيقي) للمجتمع بدل ربطها بفكرة الخير المطلق وهو من مجال آخر . فهو لا يعنى بكشف النقاب عن وحشية الحضارة البرجوازية وهي حضارة آلية وصناعية ، في موضوع كارثة الحرب كما يفعل أصحاب المذهب الانساني العاطفي امثال (باربوس) و (دوهامل) ، ولا يعنى كما فعل (آلان) بكشف النقاب عن استسلام الانسان لغرائزه العدوانية ، وانسياقه المباغت في تيار الفضائل العشائرية والخصائص اللاعقلية : بل انه يستخلص اخطاء « التقنية » السياسية ، وخطيئات الحكومة ، ويدين الديمقراطية ويعتبر جريمتها مزدوجة لانها

---

(١) Hector (٢) Ulysse (٣) La Guerre de Troie n'aura pas Lieu

(٤) Maurras

اضعفت جسد الامة بسوء حمايته كما افسدت روحها بغمسها في أوهام المثل الانسانية الرفيعة • وينجم عن ذلك ان آخر طلقة مدفع ما كادت تطلق حتى هب (موراس) وأتباعه ولا سيما اذكاهم وهو (جاك بانفيل) [1] فضاعفوا الابتهال من أجل اقامة سياسة قومية حذرة مستقاة من قوانين التاريخ •

والحق ان عماد المذهب الانساني لدى (موراس) انما يمثل في الايمان بقوانين التاريخ • وهذه القوانين اذا عُرِفت ونُفِّذَت تماماً انجبت السلم وازدهار الامة • اما اذا أهملت بسائق الجهل أو التهافت العاطفي أو الاخلاقي فان النتيجة هي الحرب والانحطاط • بيد ان مجال القول في ميدان القوانين التاريخية يتسع اتساعاً كبيراً : واذا استثنينا القواعد العامة باسراف امتنع على الحاضر ان يتعلم شيئاً دقيقاً من الماضي، وان خاصة الظروف التاريخية هي احدثها • لقد أصاب (فاليري) في قوله : « ان التاريخ هو العلم بالاشياء التي لا تتكرر » • وهذا صحيح بوجه عام ولا سيما في عصور الانقلابات العميقة حيث يمنح التاريخ ابعاداً جديدة طريفة من تبدل اساليب الحياة وايقاعها ، ومن تطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية تطوراً سريعاً ، ومن تطور الافكار والعادات الاخلاقية تطوراً مستعجلا • مثال ذلك : اننا قد نعجب غاية الاعجاب بالبناء الهندسي لمعاهدات (وستفاليا) ولكننا نتساءل ما هي القواعد التي يمكن استخلاصها من أجل (أوربة) التي باتت بين ملزمتي العملاق الروسي والمارد الامريكي ، فضلا عن الحوادث الطريفة التي تطالعها مثل التضامن الطبقي العالمي ، والسلطة الدولية للشيوعية العالمية ، واتصاف الحرب الحديثة بصفة مجموعية وصناعية وعلمية الخ ؟ ان (فاليري) ينتصر على (موراس) في هذه النقطة ويعرف عن عدم ثقته بهذا المفهوم

---

(١) Jacques Bainville

عن الماضي ويحذر من تصور ان التاريخ يهيمن على الحاضر ، ويرى ان من الاهم ان يعمد السياسي الى الابتكار بدل التذكر . يقول : « يجب التدرب على اعداد الواقع في حـال النقاء » واذن « الامتنـاع عن الاستسلام لتأثير قوانين التاريخ » واجتناب « الدخول الى المستقبـل بالسير القهقري » . وعلى الرغم من ذلك فان (فاليرى) يعترف بأنـه اذا تعذر على التاريخ « ان يفسح لنا مجال التنبؤ » فانه يتيح لنا على الاقل « ان نرى على نحو أفضل » . وهذه الصيغة صيغة متزنة لانهـا تحدد على وجه الدقة مدى فائدة التاريخ من الناحية العملية .

غير ان رجوع (موراس) الى قوانين التاريخ كما تكشفها له التجربة الوضعية لا يعني انه يغفل ذكاء الانسان وحريته ويقلل من أهميتها بوجه من الوجوه . ففي نقطة البدء يقف موقفاً انسانياً دقيقاً . وقد كتب في « مستقبل الذكاء » [1] : « يستطيع كائن واحد مزود خير الزاد ومهيأ بخير موقع في الجريان اللانهائي لظروف تحت فلك القمر ، ومثلا اذا تحلى بالعقل ، يستطيع ان ينجح في السيطرة على آلاف الكائنات ويقرر مصيرها . وسيظل الاعتبار دائما للجرأة والطاقة والعلم وروح الاقدام أي بما يختص به الانسان . وستأتي دائماً لحظـة تكون فيها مشكلة النجاح مسألة نور فتنحل الى البحث عما كان القدامى يسمونه منعطف القنطرة ، وهو دائما منعطف متين ، الموضع الذي سيمسك به حافز العمل » . هنا تلتقي وجهتان متكاملتان وعادلتان تماماً : فمن ناحية اولى توجد مقاومة تاريخية مادية ، « هيكل صلب » ، آلية القوانين الطبيعية ، وان من الجائز ، من ناحية اخرى ، لمن يعرف ويريد ويجرؤ ان يحرك المنظومة بأسرها بحسب فكرة من افكار العقل . بيـد ان ما تقدم لا يخرج عن واقع اراء عامة باسراف . وتظل المسألة الحاسمة

---

(١) L'Aveinr de l'Intelligence

هي ان نعرف بأي معنى ، وبأية وسيلة ، ينبغي على الانسان ان يؤثر في التاريخ . وقد ضرب (موراس) في الكتاب ذاته مثلا يلقي ضوءاً على فلسفته : فقد ذكر في التعليق على حادث برقية (امس) [1] ان (بسمارك) [2] « اتى بنموذج الاكذوبة الصرف التي تطلقها الدولة في وقت مدروس مناسب فتنفجر وتصيب النقطة الحساسة في الشعب الذي يراد استفزازه » . وعلى هذا النحو فان حرية الانسان كصانع التاريخ هي حرية رجل « تقني » بارع صناع يجيـــد تحريك القوى التي يسيطر عليها ابتغاء تحقيق هدفه في الحفاظ على البقاء وعلى السلطة . والمسألة السياسية هي بالدرجة الاولى « مسألة نجاح » : ذاك هـــو التقليد (المكيافلي) . وانما تتحلى بهذه الروح ذاتها الاحكام التاريخية والتوصيات السياسية التي جاء بها (بانفيل) بوجه عام .

والواقع ان صفاء التفسير (الموراسي) القائل بجهل معنى السياسي (الحقيقي) لم يعد البتة كافياً في عصر استبد به الذهول الناجم عن الكوارث . وهب ان هذا التفسير يوضح ظهور الخصومات فانه يعجز عن ان يمس ما يعتبره الفكر المتمدين عندئذ فضيحة منكرة : قسوة هذه الخصومات ووحشيتها ، ضخامة المذابح وعظم انحراف الضمائر بتأثير الدعاوات الكاذبة . فهذا التفسير يحيل الى أزمة سياسية ما كان يعتبر بجلاء أزمة مدنية . وبدل ان ينطوي على احتجاج ضد قلب القيم الانسانية رأساً على عقب في (اوربة) الغضبى ، نجده بالاحرى يمد رجال الدولة بحجج تمكنهم من اللعب بدون وخز الضمير لعبـــة من يتصرف تصرفاً « تقنياً » بالقوة وبالعنف وبالدهاء .

ولعل من الجائز استعمال الوصفات الدبلوماسية والعسكرية العتيقة عندما لا يجاوز الخراب ، ان صح القول ، حدود المجتمعات الانسانية ،

---

(١) Ems

(٢) Bismarck

فيمكن تبرير ذلك بدءاً من مفهوم القومية بالمعنى المدرسي ، مفهوم قصر المنفعة على بلد واحد ، يمثله بالنسبة الى (فرنسه) السهل المربع الفرنسي • ولكن الاخطار قد بلغت حداً من الشأو يجعل من المتعذر تبرير الاخذ بها الا اذا ظهرت نظرة كلية جديدة : وهذه النظرة سترتدي حلة فلسفة تاريخ ابداعية ، فلسفة تمجد ارادة القوة وحق العرق المختار بالسيطرة ، ونشوة النصر لدى المعتدي ، والمستقبل الاوربي في ظل مدنية بطولية — أي جميع الاشياء التي كانت تنفر منها في الواقع الحكمة الضيقة الصماء لفيلسوف (مارتيك) [1] • ولكن من المنطقي ، بل وربما من المحتوم ، ان يقفز بعض انصاره الشباب ذات يوم الى جانب (نيتشه) ، ويجروا جري الارعن وراء أحلام العظمة والمغامرات الجنونية والحلول المبيدة التي جاءت بها الفاشية والنازية •

مافوق المعمعة

مما يشرف (رومان رولان) انه وقف في المأساة الروحية التي اجتاحت القرن العشرين موقف الشاهد النبيل الصادق حيال نقطة الحرج والفاجعة : فكان ضمير الروح الغربية وصوتها الذي يعبّر عن استمرار شعورها بالامل على الرغم مما اصابها من تهافت وفزع • ألم (رولان) من الحرب العالمية الاولى فتمزق شعوره وكان مثال (الاوربي) الحقيقي الذي صعق في اوج نموه الفكري حين اكتشف انشقاق مدنيته الجميلة وأخذ يحسب حساب القيم الحقيقية او الزائفة متسائلا عن مستقبل قد ينطوي على خرابها الخاص • وكان مؤلف (جان كريستوف) [2] منذ ما قبل عام ١٩١٤ قد القى نظرة اجمالية وانتقادية معاً على هذه المدنية مستعيناً بثقافته الراسخة وايمانه بمواطنة العالم • غير ان ثقته بالمستقبل

---

(١) Martigues

(٢) Jean Christophe

لم تتزعزع وهي تتجلى في الاهداء الذي يوجه الى « الاحرار في كل الامم ، الذين يألمون ، ويكافحون وسينتصرون » ، كما يتجلى في النداء الذي يتجه به الى الاجيال الصاعدة : « يا رجال اليوم ، أيها الشباب ، اسحقونا باقدامكم وامضوا الى الامام . كونوا أعظم منا وأسعد » . واذ ذاك ، كانت (اوربة) مدججة بالسلاح ، والاوطان جميعاً نار ودماء.

وقد اجاد (لوى مارتان شوفيه) (١) في مقدمة « يوميات سني الحرب » (٢) تبيان معنى احتجاج (رولان) الداعية الى مذهب السلم فقال : « ان روعة (يوميات سني الحرب) تتجلى بوجه خاص حين تصف من الباطن ، تصف خلال الحياة اليومية ، حال انسان سحقه بأكثر مما أدهشه صراع كان يخشاه أكثر ما يخشى ، ولكن ما أدهشه هذه المرة ، واناخ عليه بكلكله هو عنف الغرائز المنحطة التي انطلقت من عقالها لدى اولئك الذين حسبهم من قبل خير الناس ... كما اذهله سلخ قشرة المدنية سلخاً مباغتاً وحشياً ، تلك القشرة التي افزعه ان يراها جد رقيقة فعرف انها جد فاسدة » . والحق اننا نشاهد حركتين : الاولى ان صاحب المذهب الانساني الغربي ، أي الاوربي المؤمن بمواطنة العالم ، قد صعق حين رأى أكثر الشعوب تقدماً على وجه الارض تلتقي في ساح صراع دموي . بيد انه كان يتوقع هذا الصراع ، او انه كان يخشاه على الاقل منذ زمن بعيد : ولكن الامر الذي باغته مباغتة وانتزع الصراخ من احشائه هو ما سبق اطلاق الرصاصة الاولى ، ونعني انفجار الجنون والكذب والتوحش فجأة ؛ ثم انتهاك حياد (بلجيكة) ، وحرق (لوفان) وتدمير (كاتدرائية ريمس) وما تلا ذلك من اعمال الثأر وحصار الجماهير الالمانية وتجويعها حينما كان الحلفاء يستعدون في ظل القانون لفرض الاتاوات وتقطيع أوصال الامم المغلوبة . والحرج أعظم الحرج الذي

(١) Louis-Martin Chauffier

(٢) Journal des Années de Guerre

أصابه انما صدر عن صوفية الحقدالتي يغذيها ، ويؤججها، فيالمعسكرين « مفكرون » عبئت جهودهم لتبرير العنف ورضوا من تلقاء أنفسهم الاضطلاع بمهمة التجديف التي كانت تنتظرها منهم الامة ، أو المجتمع الزمني • كتب (كوبو)[1] : « اني ظمآن للمذابح » • وكتب (سوريس) [2] : « لا يمكن ان يصادق فرنسي المانيا » • واعلن (فردريك ماسون) [3] و (سان سانس) [4] ان من الواجب الامتناع عن تمثيل (فاغنر) في (فرنسة) • وزعم (ادمون بريه)[5] ان في وسعه ان يبرهن امام أعضاء (المعهد) على ان (البروسيين) ينحدرون من قبائل همجية • وضاعف (بارس) و (مترلينك) [6] و (فرهارن) [7] شتم الشعب الالماني • وصرح مفكرو (العمل الفرنسي) [8] بأن « كل حب يمنح خلال الحرب الى الانسانية فانما يقتطع من حب الوطن » • ولم تكن الامور بأفضل من الجانب الالماني • ذلك ان (جيرار هوبتمان) [9] يفضل ان يسمي الالمان الاحياء باسم ابناء (اتيلا) [10] بدل تسمية الالمان الاموات باسم ابناء (غوته) [11]• ويقترح(سترول)[12] مقاطعة الاثار الادبية الفرنسية والانكليزية جمعاء• ويبرر (كوندولف)[13] التدمير الذي قامت به المدفعية الالمانية بالمبدأ الآتي : « من ملك قدراً من قوة الخلق ملك حق الهدم » • ويعلن المفكرون الثلاثة والتسعون بصورة رسمية تضامن الثقافة الالمانية مع العسكرية البروسية ، وعلى هذا النحو لم يقتصر الامر على المهتاجين أو الذين أضلهم الغضب بل ان أفضل الناس وأعقلهم وأعظمهم ثقافة عبأوا ذكاءهم وثقافتهم لخدمة الامم

---

(١) Copeau (٢) Saurès (٣) Fréderic Masson
(٤) Saint-Saens (٥) Edmond Perrier (٦) Maeterlinck
(٧) Verharen (٨) Action Française (٩) Gérar Hauptmann
(١٠) Attila (١١) Goethe (١٢) Strohl (١٣) Gundolf

المتحاربة : فسعى كل امرىء الى البرهان على انه يجاوز وجوده ليذود عن مبدأ مقدس ثابت كلي يعدل التضحيات كافة ويبرّر عند الاقتضاء الجرائم كلها . كتب (لوي جيله) [1] العزيز من الجبهة يقول :« آه . لنبدّد نهائياً هذه السحابة ، سحابة الجرمانية ، هذه الكتلة الكثيفة من الابتذال الذي يرين بثقله على العالم !» ويقول (ج. بلوخ) [2] متحمسا حماس الصليبية اليعقوبية : « ان حرب الثورة ضد الاقطاع تنفجر من جديد » . وسيعلن (برغسون) [3] في (مجمع العلوم المعنوية) ان القتال ضد (المانية) هو قتال المدنية نفسها ضد الهمجية . وعلى الرغم من ذلك يريد (يوكن) [4] في (المانية) ان يبرهن على ان امته تمثل بطولة التقدم الانساني . ونظم الشاعر (ديمل) [5] بعد تطوعه في صفوف القوى الضاربة قصائد حماسية لتمجيد رسالة وطنه التمدينية .

هذا الخضوع المباغت ، خضوع الفكر لقوى التاريخ المنطلقة من عقالها ، وهذا الاهمال المفاجىء لطرائق النقد السليم ، وهذا الابتعاد الغالب عن قواعد امانة العقل ، كل ذلك يعتبره (رومان رولان) فضيحة تحمله على اعتناق موقف المثقف الحيادي الذي يحلّق فوق المعمعة كما ينجب بوجه خاص تشاؤمه وسبب يأسه في أغلب الاحيان . يقول : « ان في ذلك ما يبعث اليأس والقنوط من محاولة القضاء على الحقد والجنون بين الناس . وان عالمنا مسرف في الجنون ، ويجب ان ندعه يهذي . ويشعر (رولان) شعوراً مسبقاً بقرب ظهور (مولوخ) جديد، الدولة المجموعية ، حين يرى تعبئة جماهير الامة كلها ويدرك روح (الدولة) المحاربة . وقد كتب منذ نيسان ١٩١٨ :

« ان الثورة على طغيان (الدولة) ونفاقها ، طغيان وكر النمل

---

(١) Louis Gillet (٢) J.-R. Bloch (٣) Bergson
(٤) Eucken (٥) Dehmel

الساحق الغبي ، هي التي تجتاحني وتقضمني بصورة دائمة صماء . وعندي ان قسوة (الدولة) الحديثة ، ولا سيما الديمقراطية ، هي أقبح من قسوة ملك مستبد لانها تضيف الى استبداده تعصب الافكار التي تزعم الدولة ان لها حق احتكارها وهي تكذب في ذلك أوقح الكذب . ان القوة التي تسحقني هي أمر حسن ان كانت تسمي نفسها قوة : ذلك اننا ننتمي عندئذ الى نظامين مختلفين كما يقول (باسكال) [1] . اما اذا انتحلت اسم الحق أو الحرية فانها كفر وعدوان ؛ وهي لا تقتل الجسد وحسب وانما تنتهك حرمة الفكر وتدنسه ولاتدع شيئاً من أشياء الكون نقياً » .

ومن ناحية اخرى لا بد من الاعتراف : انفي تشاؤم (رومان رولان) عسراً ناجماً عن زيف الوضع الذي اختاره ، فيه الشتائم وفيه غالباً الوشايات التي ألمت به ، كما ان فيه عدم الفهم وابعاد بعض أعز اصدقائه وتلك أقسى المحن . لقد اختار مصيره عن معرفة ووعي : « ان من يصر على الدفاع عن السلم ابان الحرب ، يعرف انه يغامر بعقيدته ويجازف براحته وبسمعته وحتى باصدقائه » . ولكن يتفق ان تفيض الغصة : فيفقد الامل ويرى الكارثة النهائية : « انتهى عام ، وبدأ الآخر ، والقلب دام ، والعيون ملأى بالدموع . انني لم أشعر البتة بعزلة معنوية أثقل ، عزلة مستعصية . ان ايماني بالافكار التي انصرها ايمان قوي . ولكنني فقدت كل ايمان بالبشرية » . ولا ريب في ان الرأي العام انقلب لصالحه ولكن جائزة (نوبل) ، وأية جائزة ، لم يكن في وسعها ان تنسيه ما رأى ، ولا ان تحمله على التغاضي عن عمق الظلال التي سبر غورها بنظره النافذ ، « الهزال الطفولي (أو خبل الشيوخ) في العقل البشري ، الغرائز المنحطة المتحللة أو الوحشية ، قاع رياء لا شعوري يفرش أرض

---

(١) Pascal

الاشراف ، صديد العدم الذي ينحدر بالافراد في ظل فرح لا عقلي الى هاوية القطيع الاعمى الذي لم يتحرر البشر من أسره الا بعد جهاد استمر قروناً » • وحين يذهب فكره الى موضوع اصدقائه فانه لا يحقد عليهم ، ولكنهم خسروا ثقته • « لا يمكنني ان انس الظلم الشائع ، ولا كذب العدالة السائدة • وانا لا اريد ان انتمي الى أي وطن من الاوطان المتحاربة بحال من الاحوال » • ولكن من النادر ان يظل مذهب انساني يائساً على هذا النحو • وقد كانت هذه الصرخة ، صرخة اليأس والعزة ، في اول كانون الثاني ١٩١٦ • وما لبث ان صحح موقفه غداة ذلك فقال : « انني أعي ان هذه الاسطر تظلم عدداً كبيراً من الناس الذين يوافقونني في سرهم » • ثم يذكر جملة عن (شارل كينسلي) [١] جاء فيها : « ان الصبح ينبلج الآن في زاوية ما من زوايا العالم ، وغداً ستبزغ من جديد شمس صبح سنكون فيه » •

ان تفكير (رومان رولان) ، وهو تفكير ينوس بين اليأس والرجاء ، يقف في الغالب عند فكرة متوسطة : ادانة المدنية الغربية بالذات ، هذه المدنية التي « تقوم على العنف والمكر ، وان الكذب يدفع ثمن خطيئاته ونحن ندفع واياه : فليمت ما ينبغي ان يموت ! » • ولكن المذهب الانساني مذهب عالمي • وان له جذوراً اخرى في غير الغرب • وهذا هو الشرق حافل باحتياطي من كنوز الحكمة : « الحق انني اعتقد بأن الغرب ينهض من هذه الازمة بعسر ••• ولكن المدنية الانسانية ستظل ماضية في سيرها ، وكل شيء يوحي الي بالايمان بأن حقلها سيتسع : وان (آسية) ستحتل مكانها في المدنية ••• واني اذ اقلق قلقاً جدياً على شعب أو أكثر ، فلست أقلق البتة على الانسانية جمعاء » • (رسالة في ٢١ آب ١٩١٦) • وفي ٢ أيار ١٩١٨ كتب أيضاً : « ان أحوال

---

(١) Charles Kingsley

الافلاس ستتكرر بكثرة في الغرب . ولكن على المرء ألا يقنط ! بل ينظر الى الشرق ، ومن هذه القبلة سترتفع شمس الغد » .

هنالك كلمة لا بد من ورودها بين شقي الشفاه والاقلام عند الكلام على فكر (رومان رولان) ، ألا وهي : ان تفكيره مثالي . غير انالمسألة ليست بسيطة . فالمثالية قد تضمر دائماً في تضاعيف شجاعة هذا الرجل وعزته ، في آلامه وآماله ، في بطولته واخطائه . بل انها ثاوية في اشكال فكره كافة ، من حيث انها نبل ومن حيث انها وهم . فثمة مثالية نبيلة محمودة ، مثالية الايمان بالفكر والرجوع الى القوانين غير المكتوبة التي يسرف التاريخ بامتهانها في أغلب الاحيان . ونحن نرى هذه المثالية تتفجر لدى (رومان رولان) فتملي عليه مثلا جملا مثل الجملة الآتية : « ان الكفاح ضد قوى الغريزة والتقاليد العمياء ، والكفاح ضد الوحشية الموصولة عبر القرون ، يستلزم أكثر من الاسباب الاقتصادية، أكثر من المثالية البرجوازية النبيلة العاقلة ذاتها ، يستلزم توافر قوى خارقة ، توافر هذه النار الروحية ، وتوافر نخبة من البشر تحرسها وتؤججها » . هنا تمتزج الغريزة المثالية بنداء البطل ، وتمسي شرط تقدم التاريخ . ومن الواجب ان نعترف أيضا بصحة عبادة الفكر العالمي الذي يعرب عنه القول التالي : « ان شيئاً من الاشياء لا يحدّ فكري الحقيقي . وان الوطن الوحيد الذي يؤمن به هو وطن (الأب) ، وطن الله ، الكون » . اجل ان اللوم لا يطال (رولان) لانه اعتنق مبدأ تقدم الروح واسبقيته الروحي ، ولا لانه حين وجد في وضع استثنائي حاول أن يسير في درب الحكيم العامل على الصلح في الوقت الذي كان من الناحية التاريخية وقت السياسي والجندي . وعلى الرغم من ذلك فان كلمة « الوطن الوحيد » في الجملة الاخيرة التي ذكرناها انما هي موضع بحث ومناقشة . ذلك انها تبعد الشكل الآخر من أشكال المثالية، المثالية التي تغفل عدم النقاء المنجع في شرط الوجود البشري ، تغفل

عبوديات الفكر المتجسد في المادة ، والمنخرط في الزمان ـ هذه المثالية الخطرة المجرمة الماثلة في الملائكية وفي خطيئة التجريد . ومن هـذا الموقف لا يرد (رولان) (بارس) وحده وانما يرد (بيغي) أيضا . وقد كتب الى (سيبيل) [1] في ٩ آذار ١٩١٨ : « انني لست من امـة ولا من عرق ولا من طبقة . وكل ما يفرّق الناس بعضهم عن بعض قبيح عندي على قدر سواء ! » وانا أحكم بأن نبل هذه الجملة نبل زائف لانها تغفل الحادث، تغفل المعطى الذي هو مشكلتي بالذات: فانا بصورة مشخصة انتمي الى امة ، الى عرق ، الى طبقة . وانما باضطلاعي بهذه الروابط التي تشدني الى التاريخ ، وهي روابط جائزة بالاضافة الى أسبابها ، ولكنها تحدد مكان وجودي بالضرورة ، باضطلاعي بها يترتب علي ان اخدم عبر الزمان مقتضيات الفكر اللازمنية ، وليس برفضي وقائع حتميتي الولادية . وقد نجم عن نسيان ذلك ان وقع (رومان رولان) أحياناً في اخطاء امتدت الى الحكم والى السلوك . مثال ذلك ما كتبه (رولان) في « يومياته » في حزيران ١٩١٨ حينما كانت الامة الفرنسية بأسرها تعبىء طاقاتها كافة خلف (كلمنصو) [2] العجوز لتقف امام الهجوم الاخير الذي شنته الجيوش الالمانية : «ان خطاب (كلمنصو) في المجلس خطاب كئيب . جنازة كورنيلية . « دعوني انجز صنيع الاموات » (أي قتل فرنسه كلها) ... ماذا يضير في نظر هؤلاء المثاليين الحالمين بالمجد وبالحقد إن ماتت (فرنسة) الواقعية ما دام اسمه سيبقى! ــ أيها (الغالي) [3] ، انك (غالي) صلف ! » . ولكن من ذا الذي لا يدرك أن (رومان رولان) نفسه يقع فريسة خطأ المثالية ؟ انه ينتزع جملة (كلمنصو) التي نطق بها في ظرف تاريخي يحدد تبريرها وعظمتها، ينتزعها ويحكم عليها بالقياس الى مثل أعلى خير انساني من حيث ينظر

---

(١) Seipel (٢) Clemenceau (٣) Gaulois

اليه نظرة مجردة . وان (رولان) يتغافل عن قيمة بطولية لانه لم يفطن الى ابهام شرط وجود الانسان . واليكم مثلا آخر . صفق (رولان) سنة ١٩١٧ للثورة الروسية . ولكنه تمرد عليها منذ ان تجسدت في التاريخ واقتضت الشكل الديكتاتوري . كتب الى (كيلبو) (١) : « انني لا أرضى بالديكتاتورية لانها اشتراكية . قل اذا شئت انها ضرورة مؤسفة تقتضيها الساعة الراهنة . نعم . ولكن لا تطلب مني ان اشاطرك الرأي . تقول : « اننا في عصر عمل وان على الجميع ان يسهموا فيه » ولكن القرن السادس عشر كان أيضاً عصر عمل ، عمل أهوس ، عمل ديني . وربما كنتَ أنت أحد هؤلاء المصلحين الذين كانوا يندفعون في مهاجمة كنيسة (رومه) الفاسدة . اما أنا فاني مع (اراسم) (٢) و (مونتين) (٣) اللذين انسحبا من ميدان العمل ليجيدا الكفاح على نحو أفضل . وانا اعتبر انهما عملا عملاً أنجع من عمل رجال الاصلاح الديني، عملا من أجل الحرية القادمة لانسانية الغد » . مشكلة كبرى ، مشكلة راهنة تماماً اليوم : مشكلة الذكاء الملتزم . وقد اعتنق (رومان رولان) حل الايمان بنجوع الفكر الحر النقي في التاريخ . نعم ان للفكر الحر النقي حقوقاً ، وهو يقوم بدوره . ولكن يتفق دائماً ان يأتي وقت يترتب فيه على رجل العمل ان يمسك بزمام ذاك الفكر ولو استلزم الامر انعطاف ثوبه الكتاني الابيض ، بغية انجاز ذلك الفكر في دنيا القوانين والعادات الاخلاقية ووقائع الوجود .

هلاّ جهل (رومان رولان) ذلك اذن ؟ قد يتفق له ان ينسى ذلك على الاقل . ولكن الانصاف يدفعنا الى القول بأنه لا ينسى ذلك دائماً ، بل كان في أفضل مراحل تفكيره يتصور علاقة الفكر بالتاريخ على نحو أكثر مرونة وصحة ، فيفيد من تجربته المهنية كمؤرخ ، ويفطن لاحساسه

(١) Guilbeaux (٢) Erasme (٣) Montaigne

بتعقد وجود الانسان . وقد أجاب (ب . ــ ج . جوف)[1] الذي بعث اليه بهجاء (تولستوى) للدولة هجاء عنيفا وحـذرّه من ارتكاسات الفوضوية التي تخطىء بتبسيط الامور وذلك حين كتب اليه في ٢٧ كانون الاول ١٩١٥ : « لقد رأيت كمؤرخ محترف كيف أنجزت حركات مثالية جميلة انجازاً دنيئاً في أحوال تاريخية كثيرة جداً ، وذلك عندما لا يكون الشعب ، وهو الاداة ، قد بلغ درجة من النضج تمكّنه من الشعور بهذه الحركات المثالية شعوراً مباشراً من غير ان ُيوحى اليه بها . وان الشعوب الحالية غيرنا ضجة بعد . فاذا كتبت : « ان أحداً لا يريد الحرب » استجاب هواك لحاجة تبسيط الواقع ولكنه لا يرى عندئذ ما هو أفظع ، لا يرى ان كثيرين يريدون الحرب » . وهنا يلحق (رومان رولان) بركب (آلان)[2] ذي النظر النافذ باسراف ، ويتحلى بسمة الملاحظ العارف بالاشياء حينما يفترض مثلا ان مذهب (تولستوى) سيغدو (كنيسة) علمانية في (روسية اللينينية) . ففي ١٨ أيار ١٩١٨ كتب ما يلي : « كل ثورة أخلاقية كبرى لا بد وان تكون منطلق نضج الروح الجميلة . ولكن السعي الى قطف الثمرة الفجة ، ومحاولةالتنمية بوسائل صنعية ، فانما يمثلان مجازفة بفقدان النتاج الى الابد . واول الاشياء اذن : هي التمييز بين مقتضيات الضمير الخاص وبين حاجات شعبك أو امكانات ضميره. وفي وسع من يشعر بموهبة المسيح ان يعمل

(١) P. -J. Jouve

(٢) يورد (هنري موندور) (في كتابه الذي المعنا اليه عن آلان ص ١٠٩) رسالة لم تطبع بعث بها (رومان رولان) الى (آلان) في تشرين الاول ١٩٢١ لشكر (آلان) على ارساله كتابه « ادانة الحرب » ويقول : « ان هذا الكتاب يتحلى بالرجولة كاعظم ما تحلى به كتاب يبحث في الحرب . انه كتاب يثأر من التعفن ويبدده بقوة النور وحسب . وهـذا الكتاب على الرغم من انه يشهّر بالمريخ فانه «لا يسيء الى الصبر ولا الشجاعة ولا العدالة» . وانا معجب بملاحظتك الثرية للروح ... » الخ . وعلى هذا فان (رولان) لا يقف موقف المتغافل عن عناية (آلان) بانقاذ فضائل الجندي في مطالعته التي يوجهها ضد الحرب .

ما يؤدي الى صلبه ، ولكن عليه ألا يعمل البتة على ان يصلب الآخرون» •
فالكرم المثالي عند (رولان) يصطبغ في هذه الحال بصبغة الحذر •
وهنا نلمح ما يمكن ان نعتبره الدعامة العميقة لفلسفته في التاريخ : ذلك ان المثل الاعلى القائل بالسلم وبالتواصل العالمي اللذين يبشر بهما قبل الاوان وعلى وجه فاضح ، انما سيتحقق ذات يوم على نحو تدريجي ومن غير ان تتاح أية فرصة لاستعجال حدوثه ومحاولة انضاج القوانين والعادات الاخلاقية بوسائل صنعية •

ان اخلاق المثقف حيال التاريخ هي المسألة الرئيسية في تفكير (رولان) • واحسب انه لم يطرحها طرحاً أفضل مما فعل في رسالة كتبها في ١٩ شباط ١٩١٥ جواب رسالة مؤثرة بعث بها اليه جندي شاب من جنود الخنادق • ذلك ان هذا الجندي اكتشف ضميره وقد مزقته عاطفتان قويتان على قدر سواء : الحماس الوطني من جهة ، وحاجة حب عالمي يمنعه من كره العدو من جهة اخرى • وقد أجابه (رومان رولان) قائلا :

« انني أفهم باسراف معنى اضطرابك في اللحظة الحاضرة • ان الصراع الذي يظهر في نفسك صراع كائنين ، وان مأساة الانسانية لتمثل في انها تنبثق عن نظام يغاير التخلق كل المغايرة (نظام ليس سوى دوران قوى تتوازن بالكفاح السرمدي في سقوطها الخالق) ، وهي تبتكر نظام الاخلاق • فعلى الرغم من الكبت الذي يحيق بها دائماً فانها تجهد لاقامة الاتساق (ولو عن طريق الكذب) بين حياتها وبين سبب وجودها ، بين القوى التي تجرها وبين المثل الاعلى الذي تشرئب اليه • وهذه القوى تتصادم الآن بعنف شديد مفزع وقد اجتمع ملايين البشر في قطعان رهيبة بشعة وانطلقت القوى من عقالها وكأنها قوى الطبيعة •

ولا يكاد ينجح بعض الافراد مثلي (اما بعون الظروف أو بارادتهم) في البقاء بمعزل ولا في القدرة ، من ثم ، على الاحتفاظ برباطة الجأش في الصراع المحتوم في نفوسهم . اما انت فلا تستطيع ذلك لانك لم تعد تملك روحك تماماً ، وقد تسربت اليها روح شعبك الجمعية ... فهي التي تقول : « اريد الحرب » عندما تقول انت : « انني لا أحقد ابداً » . ولو كنتُ في وضعك لكنت مثلك بلا ريب .. وانا لا اريد ان أقدم اليك الا نصيحة واحدة يمكنك اتّباعها : اقبل وانظر نظر الحازم الى الصراع الذي يدور في نفسك وخارج نفسك . لا تسع الى التنكر لأي عنصر من عناصره . بل اعتبر من جهة اولى ان التحام الامم ضرب من الثورة الكولية المحتومة العظمى ، واسع الى الشعور بثمالة الذكاء لدى مشاهدة الشهب تخترق سماء الليل المرصعة بالنجوم . ومن جهة اخرى اعتبر قلبك نظيفاً من الحقد . ولا تحقد على العدو ابداً » .

« ثمالة الذكاء لدى مشاهدة الشهب تخترق سماء الليل المرصعة بالنجوم » ؛ الجملة جميلة جداً ، جميلة باسراف تقريباً . وان الرجوع الى موقف الهواة يدهش ، ويزعج ، حين يتصل الامر بمذبحة كبرى في حرب ضروس . وما عدا ذلك فان كل شيء جدير بالاعجاب بنفاذ البصيرة الجرىء وبالسخاء التام . وفي حال الحرب التي يتقرر فيها مصير الامم ووجودها يصبح ضمير الفرد المستنير حلبة صراع ، هــو صورة عن الصراع الذي يسحق البشر . انها قوى تزيد وتتقاتل ، قوى كونية واخلاقية ، زمنية وروحية . وان صراعها يمثل جوهر التــاريخ نفسه ما دام التاريخ هو مجابهة الفكر والمصير . فاخلاق مدينة البشر تقتضي منك ان تحارب ؛ وأخلاق مدينة الله تقتضي ألا يكون لك اعداء أبداً . فأنت اذن تحارب بلا حقد ، وتحتفظ بنقاء قلبك من أثر الظلم . ولو ان المؤمن بالمذهب الانساني فكّر على هذا النحو لسقط الدليل الذي يراد

سحقه به : ولبطل القول بأن « كل حب يقدم للبشرية ابان الحرب انما يقتطع من حب الوطن » .

ان فكر (رومان رولان) يدرك التمزق المفجع في شرط وجــود البشر حين يرى على هذا النحو الواقعي مأساة الانسانية مع نداء العقل والقلب . ولا تظل المشكلة الاخلاقية لدى الانسان الذي يوجد في التاريخ ويشعر بهذا الوجود مسألة انقاذ روحه وحسب ، بل مسألة انخراطه في الحادث مع انقاذ روحه أيضاً .

مثاليــة (تيــبو) [1]

كتب (مونتسكيو)[2] على لسان (ريدي) [3] في الرسالة السادسة بعد المائة من « الرسائل الفارسية »[4] : « انني ارتعد فرقاً من ان الامر سيؤدي أخيراً الى الكشف عن سر تصدر عنه طريقة اسرع لابادة الناس ومحو الشعوب والامم جميعاً » . ان هذه الجملة التي كتبت في غرة القرن الثامن عشر تحدث ، حين نقرؤها في منتصف قرننا ، طنيناً كطنين النبؤة . وقد استطاع صاحب المذهب الانساني ان يحتفظ نسبياً بسلامة تفكيره على الرغم من الحماس الاول لعصر العلم والصناعة فتصور الخوف الذي سيؤيده المستقبل . نعم انه أجاب على لسان (اوزبك)[5]: « تقول انك تخشى ان يخترع الناس طريقة هدم أفظع من طرق الهدم الشائعة . كلا . واذا اتفق ان ظهر مثل هذا الاختراع ، فان اتفــاق الشعوب بالاجماع سسرع الى وأد هذا الاختراع . وليس من مصلحة الامراء القيام بغزوات تستخدم مثل هذه الاساليب ، لانهم يبتغــون رعايا ، لا أرضين .. » ذلك ان من شأن أصحاب المذهب الانساني ألا

---

(١) Thibault (٢) Montesquieu (٣) Rhédi
(٤) Lettres Persanes (٥) Usbek

يطيلوا المكث في حلبة الفاجعة ، وفي ميدان اليأس من الانسان ومن طبيعته العاقلة ومن مصيره كحيوان ذي امتياز[1] ! وقد كان الانسانيون في مطلع القرن العشرين لا يزالون يسبحون في هذا التفاؤل المبدئي فلم تقتلع الحرب العالمية الاولى ثقتهم بسلطـة العقل ، وهي سلطة طيبـة بالضرورة ، ولا ثقتهم بانحدار التاريخ في مجرى موائم ، على الرغم من ان تلك الحرب قد هزت هذه الثقة هزاً . انها هزتها على الاقل فأعيد على ضوء الكارثة الاولى في هذا القرن اكتشاف مباغت لحقيقتين هما : وهن ابنية الانسان وسطحية الحضارات المتداعية من جهة ؛ والاساس الخليط لشرط الوجود الانساني ، مقاومة المادة والعضوية الحية لوثبات الفكر من جهة اخرى .

ذاك ما نراه جلياً أتم الجلاء في أعظم رواية ظهرت فيما بين الحربين، رواية (روجه مارتان دي كارد) وعنوانها « التيبو » [2] ولا سيما في المجلدات الثلاثة من «صيف ١٩١٤» [3] وفي «خاتمة» [4] . فنحن نجد فيها اولا محاولة لتبيان أسباب الحرب العالمية الاولى وهي أسباب معقدة اقتصادية وسياسية ونفسية منضدة كلها فوق حكاية غرام . ويترتب على المؤرخين ان يحكموا على هذه المحاولة : فليس بديهياً ان المؤلف حدّد تحديداً دقيقاً مسؤولية رؤساء الوزراة في (فينا) و (سـان بطرسبرغ) و (برلين) و (باريز) ، ولا انه قدّر تقديراً صحيحاً سلوك زعماء ثوريين واحزاب اشتراكية ودولية . فتلك مسائل تاريخية بالمعنى الدقيق كانت تستأثر بشغف (مارتان دي كارد) بدافع مهنته وذوقه .

---

(١) يعتنق (فردريك ديسوير) Friedrich Dessauer مذهبا فكريا يماثل مذهب (مونتسكيو) تماماويختم كتابه Atomenergie Und Atombombe (Francfort, 1948). « الطاقة الذرية و القنبلة الذرية » بالاعراب عن « الامل في رحمة قوة ضخمـة جبارة ان تؤدي الى ارغام عالم البشر على الانتظام بحسب الحق والعدل » .

(٢) Les Thibault (٣) L'Eté 1914 (٤) Epilogue

ولكن مساعيه في اعادة بناء عصر غابر وتحليله للوضع لا يحظى باهتمامنا على قدر عنايتنا بتأملاته على انه انسان من القرن العشرين ينظر في منحى الحوادث العام ، واننا انما نعنى بالمسائل التي انتهى الى طرحها حول حركة التاريخ من حيث علاقته بارادة البشر . ونحن واجدون في « صيف ١٩١٤ » أيضاً اراء الفيلسوف وقد ضمنت في اطار « تقنية » روائية رائعة متصلة بازمات ضمير وبقرارات يضطلع بها أشخاص الرواية بدل شرحها شرحاً ظاهراً مباشراً . فهؤلاء الاشخاص يجسدون مختلف اجوبه العقول على حادث الحرب والثورة . ان (ميتورغ) [١] يوضح، من جانب المفكرين الاشتراكيين ، فكرة العنف المبدع من الناحية الفلسفية والصوفية ويشفع ذلك بلهجة (سوريليه)[٢]. اما (مينستريل)[٣] فانه (لينيني) قبل الاوان ، وهو يحدد طريقة (مكيافيلية) لاستخدام المثل العليا وأوضاع المجتمع البرجوازي بقذفها في (الثورة) . ويجسد (جاك تيبو) ، وهو مصلح انساني ، تقاليد الاشتراكية الخيالية المحال والدعوة (التولستوية) الى السلم . ومن الجانب البرجوازي يعرب (روا)[٤] المتحمس عن القومية (الموراسية) و (البارسيه) ، كما يعرب (ستودلر) [٥] بأقواله الريبية المستعلية عن رأي المفكرين القائلين بمواطنة العالم . وعلى هذا النحو نلفى تصوير وتحليل وشرح جميع المواقف الجائزة الكبرى لاذكياء الرجال في ١٩١٤ .

بيد ان القارىء ينتهي الى ان يستشف الرأي العميق للمؤلف خلال ضمير شخصيتين رئيسيتين هما الاخوان (انطوان وجاك تيبو) : وهذا لايعني ان الاخوين متفقان . بل انهما يختلفان في المبادىء وفي السلوك . ولكن صورة فلسفة تنشأ من تناقضاتهما ومن حوارهما جميعاً .

---

(١) Mithoerg (٢) Sorélien (٣) Moneystrel
(٤) Roy (٥) Studler

في الايام الاولى من تموز ١٩١٤ تظهر بوادر احتمال نشوب الحرب فيتجلى الارتكاس الاول لدى (انطوان تيبو) ، وهو ارتكاس رجل أعمال يعنى أكبر العناية بتنمية تفوقه العقلي وال« تقني » ، فيذهب فكره الى ان أفضل ما يقدم للمجتمع هو المضي في خدماته المهنية • وبذا يحسب انه يظل خارج نطاق الحادث • يقول :

« اما انا فلست بالشخص الذي يتكلف عبء التدخل في مجرى حوادث العالم • ان لي عملا محدداً كل التحديد • فانا امرؤ سيكون غداً في الساعة الثامنة في مشفاه • هناك الخراجة المنتشرة رقم ٤ ، والتهــاب الصفاق رقم ٩ ••• وكل يوم اجدني حيــال عشرين بائساً يترتب علي انقاذهم من عثراتهم • واذ ذاك أقول كلا لكل ما بقي ! •• انسان ذو مهنة يزاولها وليس في وسعه ان يلهو لهو ذبابة على اذن حصان فيتدخل في شؤون لا يفقه من امرها شيئاً ••• ان لي مهنة ، وعلي ان احل مشكلات معينة ، محدودة ، تدخل في اختصاصي ، وغالباً ما يتوقف عليها مستقبل حياة انسان ، ومستقبل اسرة أحياناً ••• ولذا تفهم ان علي ان افعل شيئاً آخر غير جس نبض (اوربة) » •

ذاك هو ارتكاس النزعة الفردية ، لان هذا الرجل لا يريد ان يشارك في مشكلة هي مشكلة الخطر القومي • ولكن هذه النزعة الفردية نزعة سخية لان صاحبها يحسب انه يخدم الناس على أفضل وجه اذا تجرد عن التدخل في مجرى التاريخ وانفق جهوده في مجال اختصاصه • وعنده ، كما عند (لوران باسكيه)[1] الذي وصفــه (دوهامل) ، لا شيء يبذ بأهميته ولا بصحته أهمية وصحة خلق خلية صحة ونظام ، حيثما ينهض المرء ويملك قدرة العمل • ولكن (انطوان تيبو) يدرك خطأه بعد مضي ايام • أولا ، يفطن هذا المفكر العظيم بحزن الى حادث

---

(١) Laurent Pasquier

ان العقل لا يوجّه دنيا الناس بالضرورة ، وان قسطاً من الغريزة ومن تضامن النوع البشري ومن الحتمية الحيوية تسهم في ذلك بدور حاسم على الاغلب . وقد اكتشف ، فوق ذلك ، ان الفرد لن يقدر على البقاء بمعزل عن هذه الانقلابات الجمعية الكبرى : فقد ابحرنا جميعنا وسنغرق ان حدث الغرق . ومن هنا ينشأ تحليـــل المرحلة الجديـــدة في فكر (انطوان) : « لقد اصيب الوجود المعنوي هذه المرة اصابة خطرة . وهز المصاب اركان القواعد التي كان يشيد فوقها صرح حياته : العلم والعقل . وبدا له بصورة مباغتة عجز الفكر وقصور الفضائل التي كانت اسس حياته النشيطة الدائبة عندما انطلقت طائفة كبرى من الغرائز وجمحت : اضطرب الاعتدال والحس السليم والحكمة والحنكة ومشيئة العدل » . وهذه الملاحظة ملاحظة نافذة تلم بشرط الوجود الانساني ، وهو شرط مبهم مفجع ، وتوضح بجلاء ان الفكر لا يوّجه التاريخ أبداً . ولما ّجنّد (انطوان) قبل القيام بواجبه العسكري ولم يعتبر ان للفرد حق التبرؤ من نظام اجتماعي يرتبط به ارتباطاً مشخصاً ويفيد منه على الف وجه حينما تتهدد قوى خارجية مادية هذا النظام . ولذا فانه يبرـّر م نالناحية النظرية والعملية اطاعة المواطن وخضوعه اللاشرطي لارادة الامة باسرها ، الارادة الجمعية . وقد نظر الى نفسه وهو يحتضر بتأثير الغاز السام سنة ١٩١٧ نظرة طبيب مستنير ، نظر نظرة رجل اخلاقي الى مغامرته الشخصية ومغامرة الجنس البشري الذي درى ضخامـــة قدرته على احتمال الالم . ولم يبحث ـــ من حيث هو ملحد ـــ عن أي عزاء خارج الزمان ، ولا عن أي تبرير ديني . ولكنه رفض رغم ذلك ان ييأس ويقنط . بل التفت الى ابن اخيه ، ذاك الطفل الصغير الذي ولد من علاقة خاطفة بين (جاك) و (جني) [1] ؛ وقال : «كل مارجوناه

(١) Jonny

وكل ما اردناه وكل ما اخفقنا دونه يجب عليك ان تحققه انت ياصغيري» •
وقد ظل لدى هذا المفكر العقلي المؤمن بالعقل ، والذي خاب فألـه ، ووجد في الحب سلوى ، ظل لديه مبدأ يدفعه الى العمل ، مبدأ يتخذه قاعدة حياته وشرط شجاعته ، مبدأ هو الشعور بعاطفة غامضة مبهمة ، وبفكرة مختلطة لايبرهن عليها ، مما يطلق هو عليه اسم الايمـان • «الايمان بالارتقاء الشامل شطر احوال أفضل » •

اما اخوه (جاك) فان حاله تتميز بمزيد من الندرة والعنف والبطولة• ذلك انه يحكم بالعقل على الحرب ، ويرى ان ليس من واجبه الانخراط فيها عمليا • « ان كل مجند يستجيب للنداء انما يقر باستجابته السياسة القومية ويقبل بذلك الحرب • ولو انني كنت مواطنا طيعا راضيا عن اوضاع بلده فلن اقبل ان ترغمني مصلحة الدولة على مخالفة ما اعتبره واجبا روحيا » • وعلى هذا النحو يحدد (جاك تيبو) الموقف الذي سيطلق عليه اسم « اعتراض الضمير » • وما كادت الحرب تندلع حتى سافر الى (سويسرة) وأخذ يلقي من الطائرة على (الزاس) نشرات تدعو المتحاربـين من الجانبين الى طرح السلاح • وقد مات من جراء ذلك ميتة تبدو سدى بعد احتضار وصفه المؤلف وصفا واقعيا قويـا رهيبا ، وستدع مغامرته القارىء حيال سؤال هو : هل هذه المغامرة مسعى تافه ام عظيم ؟ وهل هذا الموت موت عابث ام بطولي ؟ انه قد يكون بطوليا لانه سدى : ذاك هو على الاقل رأي الاستاذ (فيليب) الذي يفترض ان حسن سير التاريخ يستلزم عاملا لا عقليا ولذا يتساءل في اثناء حديثه مع (انطوان) عن موت اخيه قائلا : « هل تتقدم البشرية من غير صوفية ؟ اقرأ التاريخ من جديد يا (تيبو) • ان ثمة تطلعا دينيا نحو ما يبدو سدى في منطلق جميع التغيرات الاجتماعية الكبرى •

---

(١) Philippe

وان الذكاء لا يقود الى اللا عمل • بل ان الايمان هو الـذي يمنح الانسان المواهب الضرورية للعمل كما يمنحه العناد اللازم للمثابرة • ومن يدري يا (تيبو) فلعل اخاك وامثاله هم رواد » • ان (جاك) لا يعتبر اذن تائها حالما خيالياً ، بل نبياً وشهيداً • ولا بد من الانتباه الى ان ايمانه الصوفي لا يخلو من الريبية • فهو لا يجهل ، وهو الذكي المستنير النافذ البصيرة ، ان عمله سدى في المستوى المباشر ، وانه ربما سيبقى سدى الى الابد • يقول في نفسه : « انني لن انسف الحرب ولكنني انقذ ذاتي فاحظى بالصواب على الرغم من مخالفـة سائر الناس واندفع الى الموت » • تلك هي حقوق المطلق واعتزاز من يعرف انه يخدمها : وهو اذ يعي امانته التامة ووفاءه بمطالب الروح لايكاد يكترث بالنتيجة المشخصة ولا بتأثير عمله في نجوع التاريخ • فالتاريخ الحقيقي ليس تأريخ الحوادث بل تاريخ افعال الضمير الانساني الحر • وربما كان من الجائز مناقشة هذه المثالية ولكنها في جميـع الاحوال تمثل جوهر المذهب الانساني البرجوازي •

يتضح اذن ان (انطوان وجاك تيبو) شخصان متمدينان بالدرجة الاولى ، وان تجاربهما الشخصية تنتهي الى نتائج متماثلة على الرغم من اختلاف مقاصدهما ، وهما يكتشبان من افلاس الثقافة الرفيعة التي يؤلفان تاجها الرفيع • وعندهما ان امام النوع البشري فرصة للتقدم ، ولكنهما يلاحظان ، بدليل كنههما ايضا ، ان هذا التقدم لا يمكن ان يتحقق في الزمان الا ببطء ومشقة ، نظراً للمقاومة التي تلجمه او تسعى الى الانحراف به ، وهذه المقاومـة تصدر عن الشروط الاقتصاديـة والحيوية والنفسية ـ وهي مقاومة غير قطعية ، ولكنها تمثل في كل لحظة من لحظات التاريخ مقاومة جزئية لايمكن التغلب عليها • وعلى هذا فان الانسانية تتقدم شطر غايتها بالجهد المؤلم وبالتضحية التي

يضطلع بها الابطال ، وهي تبدو سدى ، وبثمن كثير من الالم والاخفاق واحياناً التقهقر والانتكاس • فالفارق في الطريقة بين عمل (انطوان) وعمل (جاك) ان سلوك الاول يبدو دائماً سلوكاً عقلياً تأملياً ، ويبدو سلوك الآخر سلوكاً عاطفياً صوفياً • ويزعم (جاك) أنه يؤثر في التاريخ بنتيجة ايمان روحي والدفاع يعترف به الدكتور (فيليب) على انـه عمل سدى وعمل مبدع بآن واحد • ولكن أليس من العجيب ان يريد (الطوان) ، وهو الانسان الوضعي الصرف ، تبرير رجائه الخـاص فيتكلم هو نفسه كلام اللاعقلي فيعلق تعلقه بـ « الايمان بالارتقـاء الشامل شطر احوال افضل » •

ان المذهب الانساني الوضعي يلفى ، على هذا الوجه ، تحديده الخاص • فاذا عجز عن التغاضي عن الكوارث التي تطالعه في منتصف القرن العشرين وقصر عن سترها بأوهام التفاؤل المجرد وسرابه الخلاب وزعم انه يمتنع على اليأس والقنوط ، فان من المحتوم عليه ان يعترف، او يفترض ، وجود قوة توجـه من طرف خفي الحوادث والارادات ذاتها ، وجود قانون تقدم روحي يكتشف في ضميره بالحاجة اليه اكثر من البرهان عليه ، وهذا المذهب ذاته يقر بان ذلك موضوع ايمان اكثر منه أمراً بديهياً •

ونحن سنشاهد هذا الابهام نفسه ، وعلى نحو اشد غرابة ، لدى (جول رومان) •

أمل «ذوو الإرادة الطيبة» (١)

تختلف قيمة كتاب « ذوو الارادة الطيبة » من الناحية الادبيـة باختلاف اجزائه • ولكن أهميته ثابتة في مجال التاريخ والافكـار

(١) Hommes de Bonne Volonté

والعادات الاخلاقية • انه وثيقة ذكية دقيقة تدل على حال الضمير في عصر ، أو تدل بالاحرى على نوسان الضمير في مطلع القرن العشرين في (فرنسة) واضطرابه في جميع الاتجاهات وعبر الاوساط الاجتماعية كافة • فمشكلة الانسان حيال التاريخ ، ومشكلة استجابته للحوادث ، ومعنى التيارات التاريخية الكبرى نفسها ، كل ذلك يؤلف اموراً رئيسية تعالجها هذه القصة التي تشمل السنوات السبع او الثمان التي سبقت الحرب الاولى كما تمتد الى سني الحرب ومطلع مابين الحربين • وهذه الوثيقة تتناول على وجه الدقة الالتحام الكبير في ١٩١٤ــ١٩١٨ وهو الذي يطرح ازمة المذهب الانساني الغربي •

ان أجمل مجلدين في هذه المجموعة هما « مقدمة فردان » (١) و « فردان » (٢) وهما يمزجان ببراعة عظمى الوثيقة بالخيال ، والعمل بالنظر ، ويرجعان الى الافكار الرئيسية التي جاءت في « النار » وفي « حياة الشهداء » وفي « المريخ أو ادانة الحرب » : حال الانسان المحارب ، ومهنة الجندي ، والآلام والبطولة في ساحة القتال ، ومشكلات التقويم الاخلاقي المتصل بها • ويحرص (جول رومان) (٣) حرص صاحب النهج المستنير على بحث نفسية الجندي في مختلف مستويات التسلسل الاجتماعي والثقافي ، ويعنى ، أكثر ما يعنى ، بنفسية المفكر المجند • وان الفكرة الثاوية في رأس المؤلف ، والعنف الوحشي في بعض مقاطع الوصف ، يعودان بنا الى (باربوس) ، لان الانوار تسلط ، والمأساة تدور ، في موضوع الحرب التي تطحن بثقلها المفزع كله جمهرة الضحايا غير المسؤولين • وعلى الرغم من ذلك نلفى (رومان) يعرض الفكرة بتفاصيل أدق : اولا ، لانه أمعن في الموضوع امعاناً أعظم ، واستخدم (تقنية) قصصية تتيح له وصف اوساط مختلفة

(١) Prélude à Verdun (٢) Verdun (٣) Jules Romains

والنفوذ الى مجالس الحكام وألا ينظر اليهم من خارج كما يتخيلهم جندي (باربوس) الحانق عليهم ، ذاك الجندي المضطرب في وحل الخنادق ، بل ينظر اليهم من باطن على نحو ما تكشفهم ملاحظة عالِم النفس . ولذا يبدو الواقع اشد تعقيداً مما يراه مؤلف « النار » العاطفي . اجل ، ان قلة من الناس تستطيع قذف الانسانية الى الحرب بقرار ارادي جلي ، حتى في صفوف الاسياد ، وفي صفوف رؤساء الصناعة والمال الذين يبدو انهم اقل اكتراثاً بالدم وبألم الجماهير . وقد استوقف انتباه (جول رومان) أمر أبانه في روايته وهو ان عظماء العالم ، والاعيان ، سواء اجتمعوا في قيادات مدنية او عسكرية أو كانوا هم انفسهم « ذوي ارادة طيبة » ، فانهم يميلون دائماً الى العمل في مستوى التجريد : والواقع ان التخيل يعوزهم فيما يبدو اكثر مما يعوزهم العطف ، وعلى كل حال تبدو المسافة شاسعة دونما جدوى بين مؤامرات الاوساط العليا وبين بؤس الاوساط الدنيا ، بين واقع قرار تاريخي وبين صداه في لحم البشرية وروحها . وهنا تظهر لي العقدة في فلسفة التاريخ التي ينطوي عليها كتاب « ذوي الارادة الطيبة » والتي يربطها المؤلف بمذهب الاجماع . ذلك ان الغاية المنشودة تمثل في اعادة بناء المجتمع الانساني ، والتقريب ، من ثم ، على قدر الاستطاعة ، بين رئيس الجيش وبين حكومة الامة ، والتقريب، على مستوى آخر ، بين « المستنيرين » وبين « الفاعلين » .

غير ان الرواية تقدم درساً أعم ، ووعياً جد قوي بما يعوز المفكر المؤمن بالمذهب الانساني على الاغلب : درس عدم وثوق المصير ، وجواز التاريخ . وقد ذهب (جول رومان) الى ان التأملات العقلية ليست هي التي تسير التاريخ بالدرجة الاولى ، وانما اندفاعات الغريزة الجمعية: والحوافز الحيوية . وان المسألة التي ما فتئت تطرح عليه هي ان يعرف

هل تلك هي حال التاريخ دائماً ، وهلا يجب على العامل الحيوي ان يتقهقر شيئاً فشيئاً امام العامل الفكري ، ام هلا ينبغي ان يزيد العامل الفكري ذاته سعة وعمقاً في الاتجاه الروحي ? لنرجع الى المجلد العشرين من المجموعة الروائية : « العالم مغامرتك » (١) ، وقد شرح (جاليز) (٢) لصديقته (اليزابت) (٣) اثر عودته من الحرب النتيجة التي استخلصها من تجربة حادث مفزع سدى تأثر به كل التأثر :

« يجب المثابرة على العيش ، أليس كذلك ? على المرء ان يقوم برد فعل حتى لايموت من القرف في مكانه ... فيقول لنفسه ان الانسانية هي كذلك ايضاً : تكاثر دويبات قذرة ، تكاثر جد سريع .. في السهول .. وان ظهور وباء مبيد بين الفينة والفينة في تلك الاجمة الكثيفة حادث شبه طبيعي شأنه شأن هبوب عاصفة ... اما نقطة الهول فهي ان يعتنق المرء في نفسه فكرة مماثلة ، وهذه الفكرة قد تمضي بنا الى مكان بعيد .. وباتجاه لا احب البتة ان اسير فيه . وانا احاول منذ نشوب الحرب ان اتعلق – على العكس – بفكرة ان الانسانية شيء ثمين ، بنسيجها كله ، وان حياة الانسان شيء ثمين » .

هنا ندرك بوضوح كبير الصراع المحتدم في نفس اتباع المذهب الانساني غداة الحرب . فمن جهة اولى نشأ شك وسيع يتناول معنى المغامرة الانسانية ، ونشأت فكرة مثبطة هي فكرة التقيد التاريخي ، فكرة تماثل يقوم بين الكارثتين الآتيتين : كارثة الحروب والثورات ، وكارثة الاوبئة التي تضطلع – لحسن الحظ بابادة انواع حيوانية كاملة عندما تفطم اعداد افرادها باسراف – «تكاثر دويبات قذرة » . ولكن مفكري المذهب الانساني في سنة ١٩٢٠ لايريدون ، من جهة

(١) Le Monde Est Ton Aventure (٢) Jallez
(٣) Elisabeth

اخرى ، التعلق بهذه الفكرة (التي سيحاول المفكر الوجودي سنة ١٩٤٠ ان يربط بها يأسه) لانها « قد تمضي بنا الى مكان بعيد » ، ولذا يجب التعلق ، على العكس ، بالايمان بان قيمة الانسان لا تعوض. ولكن من الجلي ان (جاليز) يتعلق بهذه الفكرة ، لا على انها بداهة ، شأنه شأن الاخوين (تيبو) ، بل على انها ايمان .

وفيما يلي بعض الاسطر من المجلد ذاته ، حيث يقول (جاليز) ايضاً :

« حياة يمكن تقريباً ان نحياها ، نحياها على وجه التقريب ، ونثق بأننا نكاد نجدها في كل مكان ... ان ذلك قد انتهى . وقد شرعت الحرب بتهديم العالم قطعة قطعة .. وانتشر حريق ضخم في أجمة تلعب بها الريح .. انني اخشى زوال حلم حلمنا به هنا وهناك وكان من المقدر له قبل خمسة عشر عاما ان يحظى بجميع الحظوظ ، حلم بأرض ستكون عما قريب آهلة وسالكة في جميع امتدادها ومضيافة في بقاعها كلها .. واذن ، ستبقى بعض الامكنة ، هكذا ! .. زوايا وسيعة الى حد كبير او صغير ، تحميها معجزة الى حد كبير او صغير ، فيها ستستمر الحياة جائزة ، بينما يزمجر الحريق حولها في جميع الارجاء ... » .

انها نظرية أثرة ، نظرية الواحة : النظام محال في جميع الاصقاع، وبالنسبة الى جميع الناس . فقد تحطمت المدنية ولنسع على الاقل لتأمين ملاجيء تعصمنا وتتيح لفريق من البشر وحسب ان يثابروا على حياة التمدين ، وينعموا بسعادة ذكية .

ولكن ذلك لا يعني ان (جول رومان) نفسه ينتهي الى هذه النتيجة بل ان (جاليز) لا يمثل سوى وجه او محاولة شخصية ، انه نمط المفكر المرهف الغاوي الذي يجنح الى شيء من التمركز حول

الذات • اما اشخاص الرواية الذين يعربون بصورة اعظم عن فكر المؤلف ، أي عن ارائه الشخصية، فانما هم (جرفانيون) [1] و(سمبير)[2] و (لولرك) [3] ، هؤلاء التقدميون العقلاء المتجردون الشجعان • انهم لايريدون الراحة : ويعتبرون ان خلاص البشرية لا يمكن ان يكون الا خلاصاً عاماً ، كلياً • ولذا يجب انقاذ النوع البشري بأسره ، والحيلولة دون وجود منبوذين • غير ان مثل هذا الخلاص لن يتحقق الا اذا رفض الانسان التدهور والرجوع الى صورته الحيوية الخاصة وعمد الى الانتظام بالاستناد الى المناطق العليا من ضميره • وقد حظيت بعض صفحات من « هذا النور العظيم في الشرق » [4] بمغزى كبير • فهي تعالج موضوع الفاشية التي اخذت اشكالها النظرية الاولى تظهر غداة الحرب وتدخل في دنيا التاريخ • وقد اصاب (سمبير) بملاحظة ان الفاشية تعتمد فلسفة تلح على ان الوقائع الانسانية وقائع جائزة ، وتلخص على الميزات القومية والعرقية لدى مختلف الامم ، وهو يقبل بادىء الرأي ان ذلك الحادث معطى تاريخي • يقول : « انا ايضاً كنت اميل الى الاستخفاف بهذه الفوارق •• وكنت اخشى ان اغذي حركة القوميين •• واني لاتساءل الآن ، بعد كل ما رأيت ، ألم نسرف في الاقلال من اهمية هؤلاء ••• ولكن هناك من يستهدف تنمية هـذه الفوارق ، وتحويلها الى حواجز كالجبال ، كما ان هناك من يشاركوننا الرأي ، أليس كذلك : وهو ان التقدم كان يمثل دائماً في تقريب هذه الفوارق وفي الحيلولة دون ان يخلد الناس لسحرها و ••• في لفت انتباههم حتى يشيدوا عملهم على ماهو مشترك ، او كلي » • ف (سمبير) يذكرنا هنا بالمطلب الرئيسي في المذهب الانساني ، مطلب اضفـاء

(١) Jerphanion (٢) Sampeyré (٣) Laulerques

(٤) Cette Grande Lueur à L'Est

الروحانية على الحياة ، ومطلب التضامن الشخصي في المكان . فعلم الحياة الذي يخلق الفوارق انما يعرقل تواصل النوع البشري تواصلا كاملا ، ولكن لدى الانسان روحا تسعى الى التغلب على هذا العائق ، ويستدل (سمبير) على تفاهة هذه الفوارق بالمحاكمة الآتية : ان كانت هذه الفوارق نتيجة يحدثها التاريخ ، فان التاريخ قادر على حذفها ايضاً . اما اذا كانت مرتبطة بطبيعة كل شعب او كل مجتمع فان ذلك لاينجب بالضرورة اثارة الناس بعضهم ضد بعض . كلا ، ان ثمة خطراً يراه أعظم من خطر تنوع الامزجة ، وهو ان ثمة طبيعة حيوانية تثوي في قاع وجود البشر كافة .

« انها غرائز القتال الدموية المنقوشة في الجبلة الحيوانية التي يشترك بها البشر ... وليس من شأن الفوارق ، مهما عظمت ، ان تسوق الناس الى التقاتل وافناء بعضهم بعضاً اذا هم سيطروا بصورة أفضل على الحيوان البدائي القابع في كيانهم واطرد اصغاؤهم لصوت العقل .. انظروا الى جوهر الامر : ان مكر الرجعية الحديثة يتجلى في العودة بنا الى فكرة عضوية عن الانسان . وقد اجادوا حسابهم اجادة عظمى لان الصورة الوحيدة التي تقدمها علوم الحياة الى الانسان عن الانسان انما هي صورته كحيوان . فاذا حملتم الانسان على الايمان بان هذه الصورة هي القول الفصل باسم العلم ، عثرتم على انجع وسيلة وامكر وسيلة لجعله يستدبر التقدم ... » .

تلك هي اذن المغامرة الكبرى في نظر هذا الشخص الذي يتعاطف المؤلف واياه تعاطفاً جلياً : تثبيت فكر الانسان على صورة حيوانية دنيا عن ذاته ، ثم الحكم على التاريخ بان يتحلى حتماً برداء التقيد الماثل في الكفاح من اجل الحياة ، رداء طائفة غير محدودة من سلاسل الصدام العنيف الهدام .

ولئن كان ذلك هو الخطر ، فالنجاة ، من جهة اخرى ، لاتكون في الالحاح وحسب على ثروات الذكاء (والذكاء لا يخلو من امكان استجابته لتعبئة تخدم غريزة الاثرة) ولكن في الالحاح بوجه أعم على مقتضيات الفكر وثباته • (الفكر) : تلك هي الكلمة التي يستعملها (جول رومان) والتي يلفت اليها الانتباه في المقدمة المهمة جداً التي صدر بها كتابه : « ذوو الارادة الطيبة » • ففي عتبة هذا الاثر الكبير يبدأ المؤلف بتنبيه القارىء بان وضعه سيحكي عدم اتساق الحياة : يقول : « ارغب في ان يدرك القارىء ان بعض الاشياء لاتهدف الى شيء : هناك مصائر تنتهي في غير مكان معلوم وكأنها في وديان ، او في الرمال » • الملاحظـة الاولى : الاختلاط او جواز المغـامرة الانسانية • بيد ان المؤلف يردف قائلا :

« انني آمل ، على الرغم من ذلك ، اننا سنصل الى مكان ما • وان عنوان كتابي يعللكم بذلك ، فانا لست ممن تروي ظمأهم مرارة تأمل اللا اتساق الاخير • انني لا اهوى الاختلاط • اجل ان العالم في كل لحظة من لحظات ديمومته يمثل كل مانريد ، ولكن المثل الاعلى للعصر سينتزع اخيراً من هذا التكاثر اللاموجه ، وتلك الجهود المتضاربة ، وذاك الاختلاط الكثيف • ان مليارات من الافعال الانسانية ستتصدر في كل اتجاه عن القوى اللا متمايزة ، قوى المصلحة والهوى حتى قوى الجريمة والجنون ، ولا تلبث ان تفنى في بوتقة الصراع او تضيع في الفراغ كما يبدو • ولكن بعض هذه الافعال ستنفرد بانهـا ستكون مما ينبثق عن ارادة لها قدر من الثبوت ، ارادة فئة من اصحاب القلوب النقية ، ويكون لها اسباب تبدو انها تستجيب لخطط (الفكر) الاصيلة كل الاصالة » •

ان لهذا النص اهمية كبرى • فهو وثيقة من الطراز الاول تـدل

على رأي انصار المذهب الانساني بعد الحرب العالمية الاولى : ولا بد لنا من ان تتذكره حين نعالج تفكير اولئك الذين سيطلق عليهم بعد الحرب العالمية الثانية اسم الوجوديين • وتنعقد المشابهة بجامع الوعي بان التاريخ الانساني بجوهره هو جواز وفوضى • فمن المألوف ان يجنح المفكر الانساني عادة بسائق ايمانه بالعقل البشري الى القول بان هذا التاريخ تاريخ عقلي وان الاضطراب ، حيثما يظهر ، هو أمر عارض• وقد حرر الحادث (جول رومان) من أسر الوهم • ولكن نزعة المذهب الانساني تظل كامنةلديه لانه بدل استثمار ما يسميه « هواية الاختلاط» (وهذا ما سيعرف فيما بعد باسم « فلسفة العبث ») ، يرجح ان يلاحظ وجود ضروب اشتداد عقلي وعناصر انتظام في وسط هذا الاختلاط العظيم الذي يبدو وكأنه خلو من السببية الظاهرة والغائية المرئية • وهو ينظر نظر الواثق الى من يسميهم « ذوي الارادة الطيبة » الذين تمثل رسالتهم في انهم يعملون وفق وحي خفي صادر عما يسميه (الفكر) ، بمعنى ان (الفكر) تجسيد قوة عليا يسبق وجودها وجود التاريخ ، قوة لا يخلقها التاريخ ، ولكنها تحرك التاريخ في منحى محدد تحديداً مسبقاً ان صح القول • ولا بد من افتراض وجود هذه القوة لاجتناب اليأس • ولكن ترى هل يستند الاقرار بها الى دليل وضعي أم انه لايزال نتيجة عمل من اعمال الايمان ؟

اللجوء الى ما فوق الانساني

لهذا النص الذي تدبجه يراعة كاتب يمثل المذهب الانسانيالعلماني دلالة جلية • فهو يعرب عن الصعوبة التي تطالع الانسان الحديث عندما يريد الاطمئنان على معنى مغامرته ، ولا يلقي امامه قيمة اخرى الا قيمته بنفسه : ذلك انه يجد ذاته ازاء تناوب : فاما ان يثق بجودة طبيعته ورجحان مصيره ، ولكن هذه الثقة مجانية تماماً تعارضها الوحشية

الجائزة لدى الانسان والتي ينم عنها تاريخ تلك الفترة المختلطة ــ يقول (اندره سواريس) (١) : «ان الانسانية ليست شيئاًطبيعياً فيالانسان»ــ واما ان يتطلع الى نظام قيم متعالية على الانسان حتى يسوّغ الامل بجواز توجيه الحوادث شطر خلاص البشر • ولما كان الاله لا يدخل في الاعتبار ، وجب الكلام على (الفكر) او (المثل) او التطور المبدع، او اللجوء الى أي مفهوم آخر يتضمن وثبة عقلية في التاريخ ، يتضمن نوراً يضيء التاريخ • ولكن كيف يمكن تغذية الامل في الواقع ان كانت الحياة على الارض ليست سوى « مغامرة البروتوبلازما » كما يقول (جان روستان) (٢) ؟ اجل ان من الجائز اعتناق رأي (الكسيس كاريل) (٣) والاقرار بتقدم المعرفة وباتساع الضمير وتعمقه وملاحظة اننا امام « مدنية وصلت للمرة الاولى الى بدء انحطاطها واستطاعت ادراك اسباب دائها » • ولكن هل يكفي ذلك لكي « نطمئن على ان في وسعها اجتناب المصير المشترك لكل الشعوب الغابرة الكبرى باعتماد قوة العلم الخارقة » ؟ ان (كاريل) لا يجرؤ على ان يجيب على هذا السؤال الا بكلمة : « ربما » ، لانه يعلم من جهة اخرى ان المصير المشترك لكل الشعوب الغابرة الكبرى هو الانحطاط والموت •

وليس من الغلو في شيء ان نقول بان هذه الفكرة تلخص في مخامرتها ضمير انسان القرن العشرين وان صاحب المذهب الانساني نفسه لاينجو من القلق • ــ « اننا نحن المدنيات نعلم الآن اننا عرضة للفناء » ــ لقد كررت غير مرة هذه الصيحة التي اطلقها (فاليرى) سنة ١٩١٩ ، ولكن ثمة اسطراً اقل ذيوعاً جاءت في رسالة بعث بها الى (دوهامل) في الحقبة ذاتها ، وتحدث فيها عن حال الفكر ابان الحرب بقوله : « انني اشبه نفسي بهؤلاء الرهبان الذين كانوا في العصر الاول

---

(١) André Suarès (٢) Jean Rostand (٣) Alexis Carrel

يسمعون بانهيار العالم المتمدين من حول اسوارهم وكانوا لا يعتقدون الا بنهاية العالم ، ولكنهم كانوا على الرغم من ذلك يكتبون بمشقة وعسر لا من اجل انسان قصائد طويلة من الوزن الحالك القاسي » .
ان هذه الاسطر تنطوي على بذرة عدم الاعتقاد الا بنهاية العالم ، وعلى القول بالعدمية المطلقة التي سيعرب (فاليري) عنها خـلال الحرب العالمية الثانية في (فاوستي) [1]. وهي وصية رائعة مؤسفة . غير ان الشاعر بعد ان تقدمت به السن لم يعد يؤمن بقيمة قرض الشعر غير المجدية حيال الكوارث الحاضرة والكوارث الممكنة : ان الانسان (الفاليرى) ريبي على الاطلاق ، انه (هملت اوربه) ، وهو لا يخرج عن يأسه من التاريخ الا في الساعات التي لايزال يحسب فيها ان من الجائز تحقيق « سياسة (الروح) » ، أي عندما يرجع هو ايضاً الى هذا التجسد العظيم . وهو ، من جهة اخرى ، يتخذ ذلك معادل الذكاء، ولا يراه جائزاً الا في حال محايثة الانسان . ولذا فان الامل الذي يضعه فيه يظل املا حائراً سريع التهافت : وان المسألة الكبرى التي يطرحها عليه مستقبل الانسانية الكبير هي ان نعرف « هل يقدر الفكر البشري على تجاوز ما صنعه فكر البشر ، وهل في وسع العقل الانساني انقاذ العالم بدء بانقاذ ذاته ؟ انها بالاجمال مأساة مساعد ـ الساحر ، ولكنها مأساة مفجعة على نحو اعظم في نظر (فاليرى) النافذ طالما يرى ان ليس في نظره معلم ـ ساحر : لا اله خلف الانسان يتدارك حماقاته، لا (فكر) متعال يمسك بالذكاء الصانع المتجلي بغموض في الانسان والذي يستطيع هدم ذاته : لا ضمان لاستمرار مدنيتنا التي تقضمها تناقضاتها الداخلية .

وفي الوقت ذاته تقريباً تفجر تشاؤم مماثل تفسره اسباب معينة

(١) Mon Faust

لدى (شبنجلر) الالماني : فهو أيضاً يرفض الاعتراف بمحور ميتافيزيائي للقيم الكلية ، ويرى ان المدنيات التي عرض تاريخ تعاقبها انمـا هي متباينة كل التباين ، ومتنافرة تنافراً لا يتيح أي تواصل : كل مدنية منها تولد وتزدهر وتموت ، من غير ان تخلف وراءها سوى الاطلال • وليست الثقافات بوجه الاجمال الا مراحل متعاقبة ، وبروق خلابـة تصدر عن الفكر الانساني بدون ان تتمتع بأية دلالة او معنى ، لانها قاصرة عن الاحاطة بأي واقع لا زمني موصول • ولذا يبدو « انحطاط الغرب » (١) حتمياً ، ولا تجاوز اهميته اهمية زوال المدنية المصرية او النظام الروماني •

ولا تقل قناعة (توينبي) الانكليزي بتعاقب المدنيات ووهنها عن قناعة (شبنجلر) و (فاليرى) وقد استطاع بثقافته الواسعة ان يعدد المدنيات التي ظهرت في التاريخ : احدى وعشرين • وقد سبق الازمنة التاريخية عهد طويل لايمكن بلوغه هو عهد المجتمعات الابتدائية الذي اتاح للنوع البشري ان يسمو من الحيوان الى الانسان • وما التاريخ الا تعاقب جهود تبذلها كل مدنية لتولد حين تقبل تحدي الطبيعة وتنهض به ، ثم تجهد للبقاء في الوجود حين تجاوز تناقضاتها وتبلغ الكلي • ويرى (توينبي) ان كل مدنية من المدنيات الراهنة عرفت الى اليوم الاخفاق و « الانحسار » (٢) ، ولكنها لم تفن البتة بدون ان تورث شيئاً من مكاسبها الـ « تقنية » والروحية تأخذها عنها الوحشية التي تقلبها فتصبح هذه مدنية بدورها • فالتاريخ لايظل في نظر الفيلسوف الانكليزي متقطعاً وغير متسق بل يغدو متطوراً بالتدريج وان حركـة تقدمه تنجم عن غريزة صعود روحي ــ غريزة « اثيرية » كما يقول ــ وهي تدفع النوع البشري الى تجاوز نفسه ، والتثبت في توازن اعلى

---

(١) Déclin de L'Occident (٢) Breakdown

هو التوازن الذي يشعر به ابطال التـاريخ اجمعون ، ويشعر بـه القديسون في الديانات كافة شعوراً مسبقاً ويجسدون نماذجه ومثله ٠ وهنا نلفى ان النهاية الاخيرة ليست كارثة حتمية كما كان يبدو ، وان ذلك يذهب الاب (تيلار دي شاردان) (٢) في تأمله المتسم بدوار اعظم لن تقويّم اخطاءها ، ولا تجاوز العائق ، ولا تشق الطريق نحو ما فوق الانسان الذي تطلعت شطره عبثاً المدنيات السالفة ٠ ان شيئاً لا يبيح التنبوء بذلك ، ولكن شيئاً لا يمنعنا من رجاء ذلك ولا من العمل في منحى هذا الرجاء ٠

وعلى هذا النحو يلحق (توينبي) بركب انصار المذهب الانساني بالمعنى الصحيح في حدود جرأته على الرجوع الى مبدأ ميتافيزيائي متعال على التاريخ ، هذا المبدأ الذي يضفي على المغامرة الانسانية معنى، وينفي فكرة الكارثة النهائية المحتومة ٠ غير أن (لوكونت دي نوي) (١) يستند الى مجال مغاير تماماً ، وينطلق من معطيات علم الحيـاة ومن تحليل حادث التطور ، وينتهي الى وضع مماثل : انه يتصور مذهب غائية بعيدة تعتبر الفكر بمنزلة فاعلية مستقلة تنشأ عن قوانين التطور في سلسلة الصيرورة وتجنح آخر الامر الى رؤية آله سرمدي ٠ ومثل ذلك يذهب الاب (تيلار دي شاردان) (٢) في تأمله المتسم بدوار اعظم الى تخيل ان الفكر ينمو حين يتقدم عبر المادة بالتدريج ٠ فهو يتجسد بادىء ما يتجسد في الشعور الفردي ثم يتحقق في ضمير جمعي يزداد اتساعاً باطراد ثم يغدو ميدان الفكر (٣) ، ثم يترتب عليه بنتيجة مزاولة البحث العلمي وممارسة التدين جنباً الى جنب ان يبلغ نقطة الختام ، نقطة الاتحاد بالله : وهذا ما يضفي على مغامرة الانسان في التاريخ

---

(١) Lecomte de Nouy (٢) Le Père Teilhard de Chardin

(٣) Noosphère

معنى يطرد فرضية العبث الرئيسي حين تربط هذه المغامرة بمغامرة كونية توجهها عناية ربانية [1] . فنحن اذن نلحق بالمذهب الانساني المسيحي في نظرية الاب (تيلار دي شاردان) بعد اجتياز طريق شديد الالتواء ، وقد كنا على مقربة منه في كلامنا على (لوكونت دي نوي) و (توينبي) ، كما كنا أبعد عنه في حديثنا عن (مارتان دي كارد) و (جول رومان) اللذين يفيان بامانة التمسك باوضاع المذهب العقلي العلماني . ولكن هذه المحاولات كلها ، مهما تباينت تفاصيلها ، انما تكشف عن مقصد ضمني واحد : انقاذ التفاؤل ، وايمـــان الانسان بمغامرته ، وفي سبيل ذلك ربط الكائن بالروح ، او بأية قوة تحل محل الروح في الصيرورة الكونية . والحق ان هذا المقصد كان ماثلا لدى (برغسون) عندما استخدم مفهوم الطاقة المبدعة ، هذا المفهوم الذي مضى الفيلسوف يزيد في اغنائه بالطاقات الروحية على قدر مضي فكره في النماء .

نعم اننا نحتاج الى مجلدات لتحليل هذه المذاهب ونقدها . ولكن حادثاً واحداً يستخلص من دلالتها العامة اذا سهرنا على استنتاجــه منها بعد تقريب بعضها من بعض : هذا الحادث هو ان الفكر في المذهب الانساني يجنح بالطبع الى اعتبار قوى وقيم تتعالى على التاريخ ذاته اذا شاء الخلاص في عصر مضطرب كعصرنا من الشعور بأنه مرهق بالطوارىء الماضية وبمشاهد التاريخ القادم . اضف الى ذلك ان هذه القيم والقوى ينبغي ألا تكون محايثة للانسان ، وهذا ما نشاهده لدى

---

(١) « ان النظرة العامة للتطور (لا استبطان الفرد لذاته ، وهو استبطان فردي معتزل دائما ، هي التي تستطيع وحدها انقاذ انسان القرن العشرين من قلقه حيال الحياة ، على خلاف ما احدثه الادب الوجودي منذ عشرين عاماً » . (ب . تيلاردي شاردان) في « الفكر العلمي والايمان المسيحي » بحوث ومناقشات . الدفتر الرابع (١٩٥٣) ؛ « Pensée Scientifique et Foi Chrétienne », Recherches et Débats, Cahier No. 4, Fayard, 1953.

(فاليرى) او (شبنجلر) ، والا فانها تسهم في جواز مصيرها الفردي ووهنه ، ولا تكفل البتة أي امر يتصل بمصير النوع الانساني • وعلى المذهب الانساني ان يتجلى حتماً ، لا بالصيغة المسيحية ، ولا بصيغة دينية ، بل بصيغة ميتافيزيائية اذا أراد ان يبقى متفائلا لا يقيد حريــة الانسان بقيود الشقاء المحتوم • وسنشير فيما بعد الى صعاب المذهب الانساني المسيحي وضروب استقلاله الذاتي ، مما يطالعه به مسعاه في جعل المطلق بآن واحد في الله وفي الانسان ، ومحاولته ان يوفق في التاريخ بين قدرة الاله المطلقة وبين حرية البشر • ولكن من الواجب علينا ان نعترف بأن في المذهب الانساني العلماني عوائق وتناقضات • فهذا المذهب يطرح مبدئياً قيمة الانسان وثقته بمصيره • ولكنه على اعتباره فلسفة وضعية ينظر الى الانسان نظرته الى معطى اول ، ولا يقدر على ربط قيمته بأي شيء من الاشياء ، ولا ان يشيد ثقته بمصيره فوق أي اساس • واذا ما وزن هذا المذهب على ضوء التاريخ وجب عليه إما ان يقنط حيال اللاعقلية التي يكتشفها في التاريخ ، او ان يربط ما يلقاه في التاريخ ، وخاصة مايريد ان يضيفه من عقل الى التاريخ ، يربط ذلك بـ (بقوة) ، بـ (نفحة) ، بـ (مشروع) كوني — أي يربطه اخيراً بشيء لايمكن ان يكون نتيجة للتاريخ ، مادام هذا الشيء هو محرك التاريخ • تلك هي قفزة ميتافيزيائية • ولكن كيف نستغرب ذلك ؟ ان وقتاً يحين دائماً فلا يجد الانسان امامه الا حرية اختيار موقف ايماني عندما يصطدم بجهله للمطلق ويحرص على الخلاص من الدوار ومن الشدة والضيق •

— ٣ —

وجوه مذهب ما فوق الطبيعة التاريخي :

المسيحيون بين الزمني والسرمدي

صوت الأبراج

لا يخلو وضع المسيحي حيال التاريخ ، فيما يبدو لاول وهلة حين تنظر الى الوقائع نظرة عامة ، من ان يشبـه وضع صاحب المـذهب الانساني . غير ان التحليل يظهر افتراقاً بيناً يفصل احدهما عن الآخر .

المشابهة اولا من حيث ان المسيحي يعتقد ، كما يعتقد الانساني ، ان الانسان يتصرف تصرفاً حراً في مسألة خلاصه الفردي والجمعي ، والمشابهة ثانياً من حيث اله يؤمن هو ايضاً بتعال يوجه حوادث التاريخ ويحلق فوقها ويضطلع بعبء تبريرها . ولكن ثمة فارقين اساسيين : فالمسيحي يعتبر من جهة اولى ان حرية الانسان تلقى مشروعاً الهياً يؤثر فيها ويوجهها من طرف خفي ، لان كمال هذه الحرية انما يمثل في اطاعة هذا المشروع الالهي الجاثم فوقها . ثم ان هذا التعالي الجاثم فوق التاريخ يعتبر ، من جهة اخرى ، بمثابة مرسوم ينطق به آله شخصي عبر الخلود ومن اجل الخلود ، بدل اعتباره امراً عقلياً روحياً يتجسد في الانسان الذي هبط وحده الى الارض ، أو حايث الكون . ولذا فان مفهوم التاريخ في المسيحية يرتدي دائماً ثوب دلالة لا هوتيـة ويتحلى غالباً بلهجة مأساة اعظم مما نلقى لدى المثقف المؤمن بالانسانية وحدها ، لان النظرة المسيحية تنطوي على مطاولة بين الانسان والله .

فمن الجلي ان المسيحية فرضت نظرة الى العالم تتميز بأن لهـا

وجهاً تاريخياً بالمعنى الصحيح • وبينا نجد مثلا ان التصوف الهنـدي يتطلع الى فك أواصر الزمان وحلها في انتحـال السرمدي ويحجب الثقة عما يبدعه البشر بنشاطهم المتعاقب ، ونجد اخلاقية (الكونفو شوسيه) تلح على اهمية التقاليد وعبادة الجدود الحاحاً يجعل التاريخ وكأنه جمود او تكرار ، وبينا نجد المذهب العقلي الاغريقي لا يرضى الا بثبوت القوانين ويعتبر ذلك شاملا حركات السماء وحركة التاريخ وما بينهما مؤمناً بأن للحوادث بذاتها عوداً دورياً ــ نجد ان المسيحية تعلم على العكس ان العالم قد عرف تعاقب حوادث فريدة مرتبطـة بمجرى اتجاه واحد لا يقلب ، أي ان للعالم تاريخاً • الخلق ، زلـة الملائكة ، زلة الانسان ، الفداء ، ثم رجوع المسيح في آخر الزمان والحكم على الاحياء والاموات : ان الكون المسيحي يتحقق ، وينبغي ان يتحقق ، في ديمومة تاريخية • ومن الجائز ايضاً ان نقول ان قانون تطوره قانون تطور تدريجي : هناك تقدم من الوحي الذي نزل من عهد (نوح) الى (ابراهيم) ، ومن (ابراهيم) الى (موسى) ، ومن (موسى) الـى (يسوع) • ولا ريب فـي ان (تجسـد) يسوع و (استشهاده) و (بعثه) تعين حادثاً اسمى يضفي على التاريخ المقدس معناه ويحدد بصورة مسبقة غرضه وغايته ، ولكن التاريخ المقدس ، من جهة اخرى ، لا ينتهي قبل ان ينتهي التبشير من جمع النعاج كلها في الحظيرة الواحدة ، وضم الامم كافة في (الكنيسة) ، حتى ان الايمان بالكنيسة ذاتها مرتبط على نحو من الانحاء بقانون التقدم في الزمان مادامت العقيدة تنمو ، وما دام تعريف الحقيقة تعريفاً متعاقباً ، وعملا موصولا يحققه الروح القـدس عبر الزمـان • ان للاهوت المسيحي نظرة تاريخية بالدرجة الاولى مادام يؤول المغامرة الانسانية

تأويلا خارقاً للطبيعة (١) .

ومن السهل ان نفهم ، بنتيجة ذلك ، كيف يسرت المسيحية ازدهار ثقافة تجنح الى التفكير في مغامرة البشر على الارض بلغة التاريخ : ولذا نما مفهوم الحادث واستكمل معناه وكذلك نمت افكار الجواز والحرية وتنوع السجايا تنوعاً لا ينضب والعادات الاخلاقية والمدنيات كل ذلك ضد نزعة الاغريق الرامية الى تخيل دارات وقوانين . لقد كان (شبنجلر) يرى في تبعثر الساعات التي تفرطها جميع البروج في مدن (اوربه) رمز وسواس التاريخ وسلطان الزمان لدى انسان الغرب : ذلك ان (اوربه) ، في الاصل على الاقل ، انما عمدت على انها مسيحية ، وان لقرع اجراسها نغمة صوفية . بيد ان مسألة لابد وان تطرح في نظر فيلسوف التاريخ المسيحي ، والتي سرعان ما استحوذت على افكار المتدينين في الغرب من (القديس اوغسطين) (٢) الى (كارل بارت) (٣) : هي مسألة ترصيع الزمني في السرمدي ، ترصيع التاريخ العادي في التاريخ المقدس . هناك تاريخ مقدس ، سلسلة من الحوادث الخارقة التي تنطلق من مبدأ فعل (الاب) الخالق ، ثم فعل (الابن) الفادي ، وهذان الفعلان يهدفان الى انتصار (الروح) ، واتحاد القديسيين في المحبة الكاملة وفي غبطة رؤية الاله الثالوث . اجل ان هذه الحوادث تجري في الزمان فعلا ، وهي تؤلف ، بنوع ما ، العمود الفقري في التاريخ . ولكننا عند ترصيع هذه الحوادث في مجراها نجد تاريخاً آخر ينمو ، هو التاريخ الذي ينطلق من مبدأ ارادة الانسان الحرة ، ويستهدف انتصار الانسان على الارض ، واخضاعه الطبيعة لمشيئته ، وازدهار الامم ، وقوة الممالك ، وربما وحدة النوع

(١) انظر (جان دانيلو) : بحوث في سر التاريخ ؛ Jean Daniélou : Essais sur Le Mystère de L'Histoire, Le Seuil, 1953.

(٢) Saint Augustin (٣) Karl Barth

البشري آخر الامر وقيام منظومة سياسية وحيدة كلية تنتظم تعقيل استخدام خيرات الارض وتكفل المدنية الشاملة • فما هي علاقة هذين النوعين من التاريخ ، هاتين السلسلتين من الحوادث ؟ هل يتبع كلا التاريخين مجراه الخاص ، ويسيران على خطين متوازيين لا يتداخلان ولا يتبادلان التـأثر والتأثير ؟ من العسير ان تقر ذلـك لان الانسان المسيحي لا يستطيع الخروج عن شعبه او طبقته كما انه لا يستطيع مبارحة جسده • فهو متضامن مع التاريخ العادي ونحن لا نرى كيف يقدر اختياره لملكة الله على ألا يبدل موقفه حيال مملكة الارض ، ولا كيف يستطيع ألا يؤثر اسهامه في مشاريـع التاريخ الزمني في حظوظ خلاصه الروحي • فهل يجب الاعتقاد اذن بأن ثمة رباطاً بين المغامرة الانسانية الخارقة للطبيعة ، المفتوحـة على السرمدي ، وبين المغامرة الطبيعية المحبوسة في الزمان ؟ لا ريب في ذلك ، ولكن قبول هذا الامر يعني التعرض لصعاب جديدة • ذلك ان الانسان اما ان يكون قادراً ، وهو يبني تاريخه بحرية ، على احباط مشروع الله ، وهذا مالا يمكن ان يخطر في بال المسيحيين ، واما ان يحرف الله الحوادث وارادة الناس لتطابق منحى مشروعه حينما يعمد الى تحقيق مشروعه في الزمان ، وهذا يعني ان قدرة الله المطلقة تسيّر التاريخ العادي بصورة خفية ، ويغدو هذا التاريخ تاريخاً خارقاً ايضاً : والانسان انما يسهم فيه بقسط بالمعنى الصحيح ، ولكن بمعنى ان الممثل انمـا يردد على المسرح كلمات لم يكتبها ، ويقوم بحركات يطلبها منه المؤلف • والتاريخ بهذا الاعتبار وهم ــ « وهم مضحك » ، تمثيل هزلي ــ وهذا ما يصدم العقل الطبيعي ولا يخلو من مضايقة الفيلسوف المسيحي نفسه •

اننا لا نزعم اننا سنطرح هنا مشكلة النظرة المسيحية الى فلسفـة التاريخ بسعتها الكاملة ، ولا نطمح بالاحرى الى حلها • بل حسبنـا

الاقتصار على التنبيه الى بعض وجوهها لـدى الكتّاب المسيحيين في القرن العشرين واظهار انها مستمرة موصولة في تضاعيف بعض المناقشات الدائرة في اللحظة الحاضرة . واذا استبقنا القول وجدنا ان كل مفكر يلحف بحسب جنوح مزاجه ، وتبع وجهة نظره التأملية ، اما على هذا المطلب او ذاك من مطالب التناقض الجدلي ، يلحف على السرمدي واسرار الله ، بينما يلحف غيره على الزمني ومبادهة البشر ، وهنـاك آخرون يجهدون من اجل الامساك بطرفي السلسلـة حينما يرفضون الاعتراف بما يوجد في وسطها .

الفيـتر (ليـون بلوا)

اننا نلفى لدى (ليون بلوا) [1] النمط الكامل للنظرة اللاهوتية والصوفية الى التاريخ . ويذهب (البرت بيغان) [2] الى ان « (ليون بلوا) مؤرخ بالفطرة » ولكن (مـاري ــ جوزيف لوري) [3] من شراحه المتأخرين ، يعتقد على العكس بان (ليون بلوا) « ليس مؤرخاً ولا فيلسوف تاريخ . بل هو صوفي يؤرقه وسواس التاريخ » [4] . اما هو فقد قال عن نفسه : «لست انا غير مؤرخ وحسب ، بل انني اجهل التاريخ . ويجب ان ينظر الي على انني نوع من انسان حالم ، صاحب رؤى اذا شئتم . ولكن لاشي غير ذلك » .

صاحب رؤى . نعم . ولكن نظره يحدق في مأساة تجري حوادثها في ديمومة زمنية : مأساة الخلاص المسيحي ، انه صاحب رؤى مضطر الى اعتناق وجهة نظر تاريخية . واكثر ما يميز نظرة (بلوا) المسيحية

---

(١) Léon Bloy (٢) Albert Béguin (٣) Marie-Joseph Lory

(٤) انظر : الفكر الديني لدى (ليون بلوا) ؛ La Pensée Religieuse De Léon Bloy, Desclée De Brouwer, 1951.

الى التاريخ انما هو التشاؤم ، بل النظرة الكارثية ان صح التعبير : التاريخ الزمني يبدو له بمثابة اخفاق جسيم ، وافلاس المقاصد الالهية. ان فاعلية (الاب) الخالق افلاس لوقوع الخطيئة ووجوب التعويض عنها بالتجسد وبتضحية (الابن) . وان فداء (الابن) افلاس مادام ان مليارات من البشر جهلوا ، ومازالوا يجهلون ، الايمـان الحقيقي ، وما دام المسيحيون أنفسهم ، وما دامت (الكنيسة) ذاتها واعضاؤها غير الشاعرين بكرامتهم ، انما يواصلون التجـديف على (المسيح) ويطيعون (امير) هذا العالم . « انقضى تسعة عشر قرناً من المسيحية ، وهذا يعني مائة جيل رواها دم (يسوع) ! فما هي النتيجة ؟ ان في وسع القرن العشرين ان يطرح على نفسه هذا السؤال بذهول » . وبقي توقع التعويض ، ترقب نصر الآله نصراً حاسماً ، وعودته الثانية في مجده ، مجيء (الروح القدس) ونصره : تلك هي امنيات المذهب الالفي القديمة وقد اعتنقها (ليون بلوا) . انه يؤمن بقرب نهاية الازمان بعد ما اغتذى برؤى (هولو) (١) الصوفية ، وبكشوف (آن روله) (٢) وبالاستغراق في قراءة اسفار (الانبياء) ورؤيا (يوحنا) وعظم تأثره بكشوف (دى لاساليت) (٣) وعنـده ان هذه النهـاية ستلي كوارث جسيمة ، وهو يسمي هذه الكوارث امنياته ويسعى جهده ليرى في كل شيء قرائن وبوادر تنم عنها ، وتدل عليها ، فيفرح لدنوها . ومن اقواله المعروفة : « انني انتظر (الكوزاك) و (الروح القدس) . انه لا ينتظر بالطبع ان يظهر (الكوزاك) وهم يجلبون (الروح القدس) ويحملونه لانه ابعد الناس طراً عن اعتناق النظرية التقدمية المسيحية ، ولكنه ينتظر حلول كارثة كبرى تقلب العالم الحديث رأساً على عقب ، ينتظر انهيار مدنية ملحدة خاطئة وسط عاصفة جارفة يستثيرها غضب

(١) Hello (٢) Anne Roulé (٣) De La Salette

الله من جهة (اسيه) ، وقد يتحقق بعدئذ فناء الازمنة ، يتحقق المشروع الالهي الذي ينص على اتحاد الارواح واندماجها في الحب السرمدي •

اننا نـدرك من النظرة الاولى انسلاخ السمة التاريخيـة بالمعنى الصحيح عن نظرية (ليون بلوا) • ذلك ان التاريخ هو مجال الجائز والنسبي ، ولكنه هو لا يريد ان يعرف الا وجهة نظر المطلق • « لاحقيقي سوى المطلق •• وانا لم اكتب الا من أجل الله ، فاذا استثنينا الله استوى عندي كل شيء » • اما المؤرخ فان صيده ، على العكس ، هو الحقيقي النسبي ، المشخص ، الجائز • وموهبة المؤرخ هي التي تدفعـه الى الاهتمام بالانسان الفردي ولذا فانه يكتب من اجل الناس • تحدث (جاك ماريتان) [1] في صدد (ليون بلوا) قائلا : « ان كل فرد راهن « هنا الآن » ، انما كان يفند على الفور ، وينتزع من دنيا الجواز ، ويسلخ عن الشروط الراهنة للبنية الانسانية التي تفسره وتجعله مقبولا ومتحولا ، فيغدو في نظر صاحب الرؤى الرهيب المذكور ، رمز واقع روحي ما » • والحق ان نظرة (بلوا) للتاريخ هي نظرة رمزية بالدرجة الاولى : وان العظمـاء الذين تناولهم لا يتحلون بحليـة الفرديـة : (كريستوف كولومب) [2] ، (جان دارك) [3] ، (نابليون) [4] ، انهم حلقات من مأساة تسوق الزمان نحو الابدية بتحقيق مشاريع الله •

ان وجهة نظر (بلوا) لاتتصف بأنها غير تاريخية وحسب ، بل انها ايضاً ليست بوجهـة نظر الفيلسوف ولا اللاهوتي ازاء التـاريخ • فالفيلسوف واللاهوتي بلا ريب يسعيان حيال التـاريخ الى اعتبـار الحوادث من وجهـة نظر متعالية تنتظم الاحـداث في سلّم دلالـة ميتافيزيائية أو دينية ، ولكنهما يبدأان باحترام الزمان ويعترفان بان

(١) Jacques Maritain
(٢) Christophe Colomb
(٣) Jeanne D'Arc
(٤) Napoléon

له قيمة خاصة ويرعيان جانب غائيات داخلية تعمل في حلبة بعده [١] •
اما (ليون بلوا) فانه ، على العكس ، يرفض الزمان ، ويزدرية وينفيه • انه يرى ، ان صح القول ، الديمومة الزمنية نهراً صاخباً بين بحرين سرمديين لايؤلفان سوى محيط واحد ، هو محيط (المحبة) الالهية ، وهو محيط متماثل قبل خلق العالم ، ومتماثل بعد خلق الازمان ، وهو يمدّ بذات طبيعته وبحركته النهر الذي يجتازه ولا يعرف كيف يصدر عنه • اننا نحيا في الزمان ، ولكن السرمدي يغلفنا ويغشانا من قبل • كتب (ليون بلوا) في « المرأة الفقيرة » [٢] : « لايدخل الانسان الجنة غداً ، ولا بعد غد ، ولا بعد عشر سنين ، وانما يدخلها اليوم اذا كان فقيراً ومصلوباً » • وهذا يعني ان حياة النعمة الالهية تخلص الانسان سلفاً من أسر الزمان وتمنحه تاريخاً اخر يصنعه لنفسه عبر التاريخ • يقول ايضاً : « ان الزمان هو الضلال الذي يخدع به (العدو) النوع البشري حين يقنط الناس من بلى الارواح • اننا في القرن الخامس عشر شأننا في القرن العاشر ، وشأننا ساعة (القربان) في (الجلجلة) ، وكشأننا قبل مجيء المسيح • اننا موجودون حقاً في كل ثنية من ثنايا السجادة المتعددة الالوان ، سجادة التاريخ القديم ••• » • ويردف قولا واضحاً كل الوضوح : « ان التاريخ اشبه بالحلم لانه يشاد على الزمان ، والزمان وهم » • وثمة شيء واحد واقعي وحسب : اتحـاد القديسيين الذي يتصوره (بلوا) على انه شبكة مسؤوليات متبادلة متكافلة ، شبكة قوامها تقابل الخطايا بالجدارات اللا نهائية • ولئن وجب حدوث كوارث عظمى عن حكم (قيصر) ، «فمن ذا يعلم ألا يكون

---

(١) انظر ر ـ ب كاره : الامل والياس ,R-P. Carré : Espérance Et Désespoir Le Cerf, 1954.

(٢) La Femme Pauvre « ينبغي الا نحط من قيمة الزمان بذريعة وجود الابدية . بل الاحرى ان نمنح الزمان القيمة التي تسبغها الابدية عليه ، ولنقدسه : انه ديمومة الصبر لدى شعب يسير » .

الخادم المكلف بمسح احذيته ليس هو وحده ذا الاعتبار الحقيقي ؟ من الذي هو في تدبير العناية الربانية قيصر ، ومن هو ملك ، ومن الذي يجرؤ على التبجح بانه ليس بخادم ؟ » • فاذا كان واقع التاريخ كذلك ، فان هذا الواقع ليس في التاريخ ، وانما يسبح بصورة مسبقة في السرمدي ، وليس للمؤرخ اذن أي موضوع •

ينجم مما تقدم ان في وسعنا ، بالاضافة الى وجهة النظر التي تعنينا، ابعاد نظرية (ليون بلوا) واجتناب اعتباره ممثلا من ممثلي الفلسفة المسيحية في التاريخ• ولكن ذلك يكافؤ الخروج عن العدالة والموضوعية• والواقع ان تفكيره يمس في نقطتين حدوساً معمقة جعلت تأثيره كبيراً وظلت اهميته من اجل ذلك اهمية عظمى : ان (بلوا) لم يكن يعارض الحتمية التاريخية ويرفضها رفضاً شديداً وانما اسهم في الايحاء الى انسان القرن العشرين بعاطفة ستغدو مركز ضميره : عاطفة الشعور بالكارثة •

ان (بلوا) لم ينكر البتة واقع الحرية الانسانية حينما تصور على طريقته الخاصة مأساة خلاص الانسان والكون • ولا ريب في انه « تحرى الله في التاريخ ، أي بحث عن يد الله في جميع حوادث التاريخ » ، وان المرئي عنده « ليس سوى أثر خطى (اللامرئي) » ، بيد ان الانسان موجود دائماً • وان تصور التاريخ الخارق على انه اخفاق مزدوج ، اخفاق (الاب) و (الابن) ، يفترض قدرة المخلوقات على مبادهة التقرير الارادي • والواقع ان نجاح او اخفاق (الفداء) يظل رهناً بيد الانسان • وينطلق (بلوا) في « الخلاص بطريق اليهود »، وهو احد كتبه الطريفة ، من جملة للقديس (بولس) يؤولها تأويلا مسرفاً ، وهذه الجملة تبين ان نهاية مملكة (الشيطان) وعودة الروح لايمكن ان يحدثا الا بعد هدي الشعب اليهودي • ولذا يناط باليهود

وباعتناقهم طوعاً قانون (المسيح) ان يحـدث تحرر الارواح تحرراً نهائياً في وقت دون آخر • وان مغامرة الانسانية كما يراها (الحاج الى المطلق) ، مغامرة صوفية بجوهرها وهي تجاوز الزمان ولكنها ، في الزمان ، مغامرة الحرية •

وربما بدا ان النظرة الكارثية لدى (ليون بلوا) مشوبة بالنزعـة الاشراقية ، واحياناً بنزعة صبيانية : انها على الاقل كانت صيحة انذار انطلقت في اوج بحبوحة (اوربه) الغربية وكانت تماثل صيحة اخرى اطلقها في الوقت ذاته تماماً نبي اشراقي آخر كان وجهه ، ولا سيما نظرته ، يشبهان شبهاً غريباً وجه (بلوا) ونظرتـه ، وهو (نيتشه) الذي اطلق انذاره من عزلته في (سلس ماريا) [1] ان (بلوا) ، مثل (نيتشه) ، يكره العالم الحديث ، ونظام المال البرجوازي والتفاهة الديمقراطية • وهو ـ مثله ـ يتخذ مصدر كآبته عاطفة مفجعة بموت الاله ، وهزيمة (المسيح) • بيد ان الفارق يرجع الى انه بينما كان (نيتشه) يعتبر ذاك الموت موتاً نهائياً ، وتلك الهزيمة تحريراً ، ويود ان تنطلع الانسانية الى تحقيق حظوظها في محاولة تأليـه الانسان بصلف وكبرياء ، وتبديد الامل السرمدي وازدهار فرح البطل في الزمان ، فان (بلوا) يحكي عنف انبياء التوراة ، ويجاوز لعناتـه وصراخه اليائس فيعلل بازدهار الامل بنصر الله آخر الامر ، ذاك النصر الذي ينساب عبر مآسي الفقراء ودموع المتألمين ودم الضحايا • ومن شأن تلك الصرخة التي يجب ان تنبثق في النهاية من وراء هذا القدر الكبير من اللعنات الهائجة المختلطة ، انها تنم عن المنحى ، وتدل على لاتجاه ، اللذين ينبغي ان تتحلى بهمـا بالضرورة فلسفة التـاريخ المسيحية : « كل حادث معبود » • اجل ان شيئاً لا يدعو اكثر من

---

(١) Sils - Maria

هذه الصيحة الى الفضيحة من وجهة نظر المذهب العقلي في التاريخ وهو يرمي الى الحكم على الحوادث وعلى الناس بالقياس الى نظام زمني محض ؛ بيد ان شيئاً لايتصف بانه منطقي اكثر منهـا في افق صوفية تاريخية ترى ان الحوادث ، حتى في جوازها ، والناس ، حتى في حريتهم ، لايكفون عن الخضوع خلسة لتأثير خفي هو تأثير خميرة المقصد السرمدي •

تقديس (كليو) وامتهانها

ان الانتقال من (ليون بلوا) الى (شارل بيغي) [1] انتقال طبيعي فيما يظن الباحثون • فالرجلان ، في الوقت ذاته ، اضطلعا حيـال التفاؤل البرجوازي بموقف نبوة ورجعية وادانا كلاهما العالم الحديث ورفعا عقيدتهما احتجاجاً على حكم (المال) وسيادته الشيطانية ليذودا كلاهما عن مصلحة المعوز المتواضع وطلبا كلاهما رجوع المسيحيـة الى اصولها الانجيلية والشعبية واتجها بحنينهما شطر مسيحية العصر الوسيط وهي مسيحية صافية قوية • وعلى الرغم من ذلك فان من غير السهل اجتياز المسافة التي تفصل احدهما عن صاحبه : وليس من باب الاتفاق ، على الرغم من انهما جاران ومتعاصران ، فان كلاهمـا لم يكن يعرف الآخر ولم يجتمعا سوى مرة واحدة اجتماعاً لم يكن لذيذاً ولم يعقبه غيره •

والواقع ان (بيغي) ، اذا اضفناه الى (بلوا) العصامي العبقري والصوفي الملهم ، يتميز بتمكنه من تقاليد قوية هي التقاليد القروية والانسانية ، وان ايمانه لا يشبه كرة نار معلقة بين السماء والارض ، بل يشبه دوحة ذات جذور عميقة في الواقع الارضي والزمني كما انها

(١) Charles Péguy

مفتوحة أعظم انفتاح على الالهامات السرمدية . وان ادانة العـالم الحديث التي جاء بها هي ابعد عن ان تكون ، مثل ادانة (بلوا) ، حكماً ضد العالم العادي حين يتطلق من ذرى المقدس : بل انها رفض اتجاه تاريخي لايخرج عن ان يكون تحريف الطبيعة وتحريف النعمة الالهية على قدر سواء . هناك نظام سليم في الطبيعة ، واذن صحة في التاريخ العادي وفي قيمته . وان (بيغي) وهو مفكر من المذهب الانساني ، يرى ان هذا التاريخ انما يتحقق على اكمل وجه في العالم القديم . يقول : « لقد كررت عشرين مرة ، ان الكفاح لايقوم بين العالم المسيحي والعالم القديم . وانما هو كفاح بين العالم الحديث من جهة ، وبين سائر العوالم جملة من جهة اخرى . ولا سيما بين العالم الحديث من جهة ، وبين العالم القديم والعالم المسيحي معـاً من جهة اخرى . » .

ان نظرة (بيغي) المسيحية الى التاريخ تتكشف اوضح ماتتكشف في قصيدته « حواء » (١) . فهذه القصيدة قصيدة (التجسد) أي قصيدة ترصيع (روح الله) في نسج التاريخ . كل شيء بدأ مـع انبلاج الفجر الاول الذي احالته الزلة الى ظلام . ومذ ذاك بدأ رجوع الانسانية البطيء نحو الخلاص فجاءت ولادة (يسوع) تحمل وعده وشرطه . وينطلق (بيغي) مجدداً من الفكرة الكبرى في « مقال في التاريخ الكوني » (٢) فيرى ان حوادث التاريخ العادي تنتظم من اجل تهيئة العالم الروماني الذي يترتب عبره سماع كلمات (يسوع) :

مشت (رومة) بجحافلها الجرارة

---

(١) Eve انظر(البرت بيغان):حواء(بيغي) Albert Béguin, l'Eve de Péguy, Labergerie, 1948

(٢) Discours de l'Histoire Universelle

تحمل بيدها الترس الثقيل والسيف
ولكنه هو الذي مشى خلف الروماني
خلف المحافظ وخلف الشرذمة
من اعمق اعماق البيداء الى باب (كايين) [1]
كان هو سيد العناء في الحالين
كان هو سيد البارحة واليوم .

ان الحوادث السياسية والعسكرية لا تخضع وحدها لحوادث (التجسد) التاريخية الخارقة وحسب ، بل ان الحكمة القديمة بأسرها تظهر في نظر (بيغي) وقد استغرقتها الرسالة المسيحية واضطلعت بها . وكل خطوة خطاها الانسان في النظام الطبيعي نحو الحقيقة والعدل ، انما هي خطوة تهيؤه لقبول (المسيح) حامل حقيقة الله وعدل الله :

من اجله سارت قواعد (زينون) [2]
من قرون الترف الى قرون التقشف والامتناع
من اجله (فيثاغور) [3] وقواعده
من قواعد الحساب الى قواعد التصوف
انه سيغدو وارث مدرسة الرواق [4]
انه سيغدو وارث وريث الرومان
انه سيغدو وارث اكليل الابطال
انه سيغدو وارث الجهد البشري ، كل الجهد .

(الصليب) يحدد في مركز التاريخ مايشبه خط الذروة التي ينعطف فيه مجرى الزمان : هذا المجرى الذي اصبح منذ الآن مجذوباً تشده (النعمة) في منحى الخلود . لا كارثية عند (بيغي) ولا عقيدة

---

(١) Capaine (٢) Zénon (٣) Pythagore (٤) Stoicisme

الفية : بل ان الطريق التي تقود من (درب الالام) الى (القيامة) تبدو وقد تميزت بصوى الاسوة بالقديسيين وبجداراتهم وان قوام القداسة هو ممارسة اعمدة اللاهوت الثلاثة : الايمان والامل والاحسان ، وان ثانية هذه الفضائل ، الاخت الصغيرة التي هي الامل، تتميز على الارض بضرب من اهمية تقدم مألوف وضيع ، لانها ينبغي ألا تلمع على وجه الدقة الا لهداية السفر في الارض • وان (بيغي) ليرجح ، على سائر القديسيين بل القديسات ، تلك اللواتي اسهمن في تجلي فضائلهن الخارقة بفعال التقوى او فعال عدالة تاريخية وزمنية : القديسة (جنفيف) [1] ، والقديسة (جان دارك) [2] — (جنفيف) التي بلغت ارذل العمر وألحدت قبرها تشيعها محبة الشعب الذي انقذته جسدياً :

كان الثلج يتدحرج في فناء الكنيسة
وكان التاريخ يهيؤ قدراً عظيماً
المجد كان يبزغ في غرة الصبح
وكانت (لوتسيا) [3] هي (باريز) القديمة ••

اما موهبة (جان دارك) فانها ما فتئت معجزتها تغذي تأملات (بيغي) :

هذا القائد العظيم الذي يجمع شتات الحصون
كما يتجنى بالمفراط الجوز
لم يكن سوى طفل وضيع ضائع بين حبين :
حبه لبلاده وحبه لله •

الجيش الانساني يرقى من (درب الالام) الى (القيامة) بقيادة القديسين الذين انيط بهم الكفاح في الارض لاقامة نظام مدينة

---

(١) Geneviéve (٢) Jeanne D'Arc (٣) Lutèce

الجسد وخلاصها ؛ وان الذين يضطلعون بهذا الكفاح ، وان لم يكونوا قديسين ، فانهم يخدمون أيضاً على نحو مباشر خطة الله ، ذلك ان الروح المتجسد يحتاج الى بنيات تاريخية من اجل ان يحقق فعاله في الارض •

طوبى لمن ماتوا من أجل مدينة الجسد
لانها جسد مدينة الله
طوبى لمن قضوا من اجل بيوتهم ودفئها
ومن اجل امجاد مساكين ، امجاد بيوتهم الابوية •

ولا ريب في أن قبول الز مني والنهوض بالمهمات وبالمعارك التي يستلزمها صونه والدفاع عنه لايخلو من خطر يتهدد الانسان الروحي• فعلى المرء ان يذود عن حياض وطنه ، ولكنه لا يستخدم الوسائل كل الوسائل ، وانما يجانب تلك التي تباين الشرف وتضاد العدالة : وان مأساة (دريفوس) بجملتها هي التي وجهّت فكر (بيغي) في اتجاهه الحاسم ؛ فلئن صح ان لا شيء اشرف من الجندي « المضطجع فوق الثرى وجهاً لوجه مع الله » ، فان من الواجب ايضاً ألا يموت الا من اجل حرب عادلة • ولكن هل من السهل دائماً ان نستبين اثار الروح على درب التاريخ الاغبر ؟ ان (بيغي) لا يعتقد ذلك الا بعد الحذر الشديد من المثالية • وهو يدري كيف يرين ثقل اللحم على الانسان ، واذا ما ضلّ الانسان فانه يعتمد عفو الله وغفرانه :

ياالهي ، لقد جبلتهم من هذه الارض
فلا تعجبن ان وجدوا انفسهم ترابيين ••

هناك الخطيئة وضروب الشقاء الانساني كافة ؛ وفوق ذلك توجد النعمة وحب الله • وعلى هذا النحو يتقدم الانسان عبر غموض التاريخ الانساني شطر يوم الحساب ، وهو يوم لا كيوم عظمة رائعة مرتعشة

كـ « يوم الهول » [1] عند (بلوا) ، وانما هو يوم عظمة تقاس تماماً بمقياس الانسان الحسي الخاطىء الوضيع المتوسل الواثق بالله :

الهنا شفيعنا ، ان ما نطلب
الانضواء تحت رداء عظيم
ويااملنا سلاماً ، ان ما نجد
هو باب المرور الى قصر منيف

تلك هي نظرة (بيغي) المؤمن فيما بعد سنة ١٩١٠ الى المغامرة البشرية : انها زحف نحو الخلود عبر زمن بلغ من ضرورته كتمهيد انه يعكس سلفاً انوار الخلود ؛ وهي ازدهار طبيعة لا تنفصل عن النعمة التي هي شرطها وبها تحققها :

ان شجرة النعمة وشجرة الطبيعة
اشتبكتا كلتاهما في عقد تآخٍ عظيم
حتى انهما لحم كلتاهما ، وكلتاهما روح ..

ومن شأن هذه الفكرة انها جد اساسية وجد رئيسية لدى (بيغي) ولذا نجد مايماثلها في اثاره التي سبقت فترة هديه . لقد كتب الشاب الاشتراكي المنتمي الى معهد المعلمين العالي سنة ١٨٩٧ « جان دارك » الا ولى ، واهداها الى « جميع اللواتي وجميع الذين عاشوا حياتهم الانسانية ، جميع اللواتي وجميع الذين قضوا نحبهم البشري لاقامة الجمهورية الاشتراكية الشاملة » ـ وبذا كان (بيغي) اللامؤمن الملحد يعتبر من قبل ان (الثورة) لا يمكن ان تتحلى الا بمعنى متعالٍ واحد ، وانها لايمكن ان تشرئب الا الى معالجة شر كلي والى تحقيق خلاص الانسان ـ هذا الخلاص الارضي الصرف الذي لا بد وان يقتضي رغم ذلك التحرر الروحي والعظمة الاخلاقية . « (الثورة) اما ان تكون

(١) Dies Irae

اخلاقية أو لا تكون » و « الاشتراكية هي حياة جديدة وليست سياسة وحسب » ، وهذه المبادىء في اشتراكية (بيغي) تشده منذ الاصل الى تقاليد الاشتراكية الفرنسية العاطفية الاخلاقية الانسانية . وهي تظهر عدم تأثره بالماركسية التي لم تحظ بانتباهــه حتى في تحليلهـــا الصحيح للواقع الاجتماعي ولا في اعتباراتها العملية المتصلة بالنجوع الثوري [1] .

وهذا لايعني ان (بيغي) يميل الى تحديد العمل السياسي ، ومن ثم الى الحكم على التاريخ ، بحسب افكار مجردة ، وبالتغــاضي عن الشروط المشخصة في العمل البشري : بل على العكس ، ان احــداً لم يحذر مثله سياسة العقل المحض التي تنسى واقع تجسد الفكر في كائن يخضع لأسر المادة والزمان . وهو يطالب بـ « فصل الميتافيزياء عن الدولة » على نقيض الحزب العقلي . ويشعر شعوراً مرهفاً بتعقد القوى التي تسيّر دفة التاريخ : انــه يلاحظ مثــلاً ان الشعب الفرنسي ، كـ (فكتور هوغو) وهو اصدق شعرائه ، شديد الولع بدعوة السلم ، ولكنه في الوقت ذاتــه يبجّل العسكريين ويجّل اكابرهم الحقيقيين الذين يرفلون في ثوب العبقرية الحربية : « هناك اوقات في حيــاة الشعب يتغلب فيها سلطان الغريزة دونما استحياء حتى ان المرء يجنح الى ترجيح رئيس اركان يذود عن الحرب على رئيس اركان يــذود عن الجمهورية » . ولا يكره (بيغي) رجوع الغريزة الى السيطرة لانه يعتبر ذلك قوة طبيعية قد تستخدم لتوجيه التاريخ الى هدفه : اما دعوة السلم المحض فانها تبدو له وهماً ، ومما يروقه ان يشاهد « الروحي ينام في سرير الزمني » وان يمشي الجندي امام الرسول . ولئن كانت ثمة فكرة تمثل لباب تفكيره ، فهي فكرة ابهام الطبيعة التاريخية التي

---

(١) انظر : فيليسان شاليه : (بيغي) الاشتراكي .
Félicien Challaye, Péguy Socialiste, Amiot-Dumont, 1954

تحقق كمالاً متعالياً عبر فعال تنال منها جميع ضروب العبودية الزمنية وجميع نقائص الجسد . وهـذا الكمال كان (بيغي) الاشتراكي ، (بيغي) الاول ، يدعوه طوعاً باسم العدالة ، فصار (بيغي) المسيحي ، (بيغي) الثاني يدعوه باسم النعمة .

جائز فيما يبدو ان نعرّف فلسفة (بيغي) في التاريخ اذا نظرنا اليها من هذه الزاوية بانها مثالية متفائلة . انها مثالية ، على الرغم من الشعور المرهف بالشروط المشخصة للعمل الانساني ، مادامت الفكرة هي التي تنتصر خلال هذه الشروط ؛ وهي متفائلة مادام اتحاد الجسدي بالروحي ، واتحاد القيم الزمنية بالقيم السرمدية يتحقق فيما يبدو دونما ألم بل على نحو طبيعي . غير ان هذا التأويل المبسّط يعدل افقار تفكير (بيغي) الى حد كبير : ذلك انه لا يطابق سوى مرحلة اولى ، وقد اظهر افضل شرّاحه مثل (اندره روسو) [1] و (دلابورت) [2] ولاسيما (جورج اونيموس) [3] الجانب الغامض في كيانه واوضحوا الوجه المفجع في تأملاته . والحق انه ظل يتأمل مشكلة الشر ــ مادام الخلاص هو دائماً خلاص من الشر ــ وكان يقلق حيال فكرة وجود شر نهائي لايمكن اجتنابه ولا التغلب عليه . لنصغ الى منطق (كليو) ، آلهة التاريخ : يقول التاريخ « ان الحادث ، التاريخ ، هو دائماً غير عادل . وانا اعرف ذلك، هذا اذا لم يكن التاريخ متوحشاً . وهو ليس متوحشاً وغير عادل اعتباطاً ، وبصورة جزئية ، بالنسيان ؛ بل انه كذلك من حيث جوهره وفي جذوره ذاتها » . والحرب ، حتى الحرب العادلة ، تستخدم

---

(١) André Rousseaux (٢) Delaporte

(٣) Georges Onimus انظر : التجسد . بحوث في تفكير (بيغي) . دفاتر اصدقاء (شارل بيغي) .

Incarnation, Essai Sur La Pensée de Péguy, Cahiers de L'Amitié Charles Péguy. Paris 1952.

العنف والظلم ، وانما تعذبت (جان دارك) الاولى لانها شاهدت قذارة كل فعل زمني • ان شقاء عظيماً يكتنف العالم في الزمان ويسحقه سحقاً الى ان يحرم الانسان من جدارته كانسان : ولكن هلاّ يمكن القضاء على هذا الشقاء ذات يوم ؟ ذاك هو مبعث قلق (بيغي) الاشتراكي ومؤلف « جان كوست » [1] أيضاً • ولا ريب في ان المسيحي سيولي وجهه شطر (الفادي) ، ولكن من الذي يطمئننا على ان (الفداء) لم يعجز عن تحقيق هدفه ؟ ان هذا العجز واقع على الاقل بالنسبـــة الى الهالكين المعذبين ، ونحن نعلم طغيان كآبة (بيغي) حينما يذكرنا في « سر الاحسان لدى جان دارك » باستشهاد (المسيح) وبتهافته الاقصى وبالشك الاخير ، وهي أشد وخزاً من المسامير وأكثر مرارة من اسفنجة الخل • هناك ، وسيظل دائماً هناك ، معذبون في الارض ؛ هناك ، وسيظل دائماً هناك ، معذبون في الجحيم : ذاكهو التاريخ في منحدريه، منحدر الطبيعة ، ومنحدر النعمة • انه ينتهي الى الاخفاق •

الايمان العقلي بتقدم موصول ، وايمان المادية الجدلية بتعاقب محتوم في مراحل تحرر الانسان : ان (بيغي) لا يعتنق هذا ولا ذاك ، بل يسخر منهما سخرية شديدة ويرى انهما من ابتداع الحزب العقلي الذي يكرهه أكثر ما يكره • « ان هذا المذهب القائل بأن التقدم تقدم صندوق التوفير هو في الحق •• مذهب سمين • وانتم تعلمون ان الطبيعة والواقع والعضوي كل ذلك يخضع لقوانين اخرى • هنـــاك خسارة وضياع دائم واستهلاك واحتكاك لا مناص منه ، وهي ليست بأمور طارئة ، بل انها من طبيعة الاشياء •• هناك مالا يمكن قلبه ، وهو يجثو في ذات الطبيعة ، في الذات وفي الحادث ، بل في قلب الحادث نفسه » • وقد استقى (بيغي) من (برغسون) فكرة الهرم ، فكرة نوع من الانحطاط المحتوم في كل شيء ، ولا سيما في كل شيء حي ،

(١) Jean Coste

هرم الزمان . ولكنه شوّه تلك الفكرة في منحى التشاؤم المفجع . فبينما ألحف (برغسون) على خصب الطاقة المبدعة خصباً لا ينضب معينه ، وترتب عليه ان يلحق بركب التقدم في الاخلاق وفي السياسة ، نجد (بيغي) يعتبر الشيخوخة أو الهرم زحفاً نحو الموت : فما يبدأ بأن يكون صوفية ، وثبة عفوية صادقة نحو الحقيقة والعدل ، ينقلب حتماً الى سياسة ، الى واقعية شحيحة ، الى جمود الروح . فهو لا يكتفي بالقول بأن فكرة التقدم خالية من المضمون في مستوى التأمل المحض، وان لا معنى لقول احدهم انه تقدم على (هومير) ، أو على (افلاطون): بل انه يشعر شعوراً غريزياً بأن العصر الذهبي عصر غابر ، عصر الكاتدرائيات ، زهرة العصور الرومانية ، ذروة الهلينستية ، وان العصر الحديث ، لانه حديث ، هو عصر مخلوع ومحكوم .

من الصواب اذن ان نتحدث عن فاجعية لدى (بيغي) ، ولكن على شرط ان نجيد فهم دلالة هذه الفاجعية على انها لديه كما لدى جميع الفلاسفة المسيحيين ، فاجعية حرية لا فاجعية حتمية ، فاذا درى الانسان المعاصر اخفاقه وجب ألا يعودباللائمة إلا على نفسه ؛ انه مسؤول عن ذلك الى حد كبير . والثابت في جميع الاحوال ان (بيغي) ليس هو الذي يدعوه الى ان يتخذ لنفسه مبرراً بالرجوع الى دعوى حتمية التاريخ . والتاريخ في نظره لا يستحق الاجلال حتى ولو اسماه باسم (كليو) . انه كائن وضيع ، يعجز عن التنبؤ حقاً ، ولا يقدر ان يعلن عما سيفعل في الغد . والانسان الحديث الذي يجهد بائساً لعلمنة الافكار المسيحية انما يود في الحق تمجيد التاريخ والاستعاضة عن « اتحاد القديسين » بـ « تضامن تاريخي » واستبدال حكم التاريخ بحكم الله . تقول (كليو) : « ذاكم النداء الحديث ، الحكم الحديث ؛ انني محكمة بائسة . وحكم بائس . انهم يعتبرونني قاضياً وانا لست

سوى موظفة صغيرة • انهم يعتبرونني الحاكم وانا لست سوى آنسة مكلفة بالتسجيل » • ان التاريخ جواز واختلاط ، والمؤرخون هم الذين يصنعون ، بعد لأي ، « سبحات الحوادث » ، ويبسطونها ثم يطوونها فيخلقون بعلمهم النظريات والمذاهب • ويرى (بيغي) كما يرى (برغسون) ان الحادث التاريخي هو دائماً مما لا يمكن التنبؤ به • انه حركة ديمومة حية ، ابداع حرية • ولا ريب في ان ثمة من يقحمهم انقلاب (النعمة) في نسيج الحوادث وهم يوجهون التاريخ بحسب التأمل الآلهي المسبق • ولكن من المتعذر كذلك ان تتنبأ بهم ، ويبدو ان الانسان يحتفظ أيضا من جهة اخرى ، حتى ازاء عمل الله ، بامكان القبول أو الرفض • وفي جميع الاحوال لا شيء يفوق أهمية هذا الحوار بين الحرية وبين (النعمة)؛ لا شيء حاسم أكثر من قرارها الكامل الذي يجري في كنف القداسة : قداسة فاعلة دائماً ، فاعلة تارة في مستوى العظمة حيث يحب (بيغي) المعجب بـ (كورلي) التقريب بين البطل والقديس ، وتارة اخرى في مستوى التواضع حيث يحب حفيد صاحب الكروم في بلاد (اللوار) ، وابن صانعة الكراسي في (اورلئان) ، تمجيد الفضائل الصغيرة وصغار الناس • « ان انسان اليوم الذي يعمل هو انسان يفعل فعل (يسوع) •• وان من لا يدع منضدة العمل وفأرة النجار الا ليضطجع ويموت هو احب الناس الى الله » •

ان العمل الحر العظيم عند القديس والبطل ، والعمل الحر الوضيع عند كل انسان يكدح في سبيل الخير والشرف ، هو مايمثل آخر الامر في نظر (بيغي) الواقع العميق ، وأساس المغامرة الانسانية — وهذا ليس هو التاريخ بالمعنى الصحيح • ان تاريخ المؤرخين يسجل حوادث، ويؤرخ ويتخيل تسلسلاً منطقياً ولكنه لايبلغ حقيقة الحياة ولا يعرب عنها ، وهي سر الحرية والمحبة • ولذا فان الانسان الذي ادركته (النعمة)

يرغب عن الاهتمام بالتاريخ • تقول (كليو) : « لست انا التي ستتكلم من اعظم الاعماق والتي ستنطق باخطر نجوى • بل ان غيري سترأس بدون ان تظهر الرئاسة ، ويكفي ان تظهر حتى امحّى وازول كما تمحّي الاشباح وتزول •• ان آلهتنا القديمة لم تكن تعض ، ولكنكم لستم الآله الذي يعض ، الآله الذي يعرف كيف يعض ، وانكم ستزيلونني اذن في مستقبل ايامكم القريبة ••• »

الديميسك بالقلم

يتضح اذن ان (بيغي) ، على الرغم من شدة اختلاف لهجته عن لهجة (بلوا) فانه يؤكد مثله حرية الانسان الفاعل في التاريخ ، ويؤمن مثله أيضاً بخضوع هذا التاريخ ، وهو تاريخ فاعله هو الانسان ، والارض هي مكانه وغرضه ، خضوعه لغاية يوحي بها الله وهي مفتوحة على نظام الاحسان والفرح السرمدي ؛ كما انه يقسو أخيراً في الحكم على العالم الحديث ، من حيث تقود ماديته الجذرية الى نفي القيم المسيحية نفياً صريحاً أو ضمنياً • وهذه النقاط الثلاث تلتقي غالباً لدى المسيحيين الذين عالجوا مشكلة التاريخ •

مثال ذلك : (كلوديل) • انه ليس بالمؤرخ ولا بفيلسوف تاريخ نظري ولكنه شاعر وكاتب مسرحي يشيد مسرحه بوجه عام على مشكلة طرحت على نحو مفجع هي معنى المغامرة الانسانية • وان ثلاثية «الرهينة» (١) و « الخبز اليابس » (٢) و « الاب المستذل » (٣) تلخص تاريخ الازمان الناجمة عن (الثورة الفرنسية) تلخيصاً رمزياً وتفسره • اما « حذاء الدمقس » (٤) فانه يتناول حادثة (الانبعاث) وولادة الازمنة الحديثة

---

(١) Otage (٢) Pain Sec (٣) Père Humilié

(٤) Soulier de Satin

في رؤية كونية تشمل الارض بمختلف قاراتها وفي رؤية صوفية تضم الانساني والروحي . ومن الثابت ان الله هو الذي يفعل ويؤثر دائماً ـ الله هو الذي يريد انقاذ (نائبه) و (كنيسته) في العالم الجديد ، أو أنه هو الذي عمد الى ظهور غزاة لفتح ارجاء المعمورة كلها امام الايمان الكاثوليكي . ولكن نصيب الانسان في ذلك يظـل نصيباً اساسياً ونصيباً عظيماً ، ذلك انه لابد دائمـاً من عمل بطولي هو في الاغلب تضحيـة ، من اجل ان تتحقق مقاصد الله . انـه يترتب على (سين دي كوفونتين) [1] ان يضحى بشرفه وبسعادته لتحرير (رئيس الكنيسة) . وعلى (رودريك) [2] و (بروهيز) [3] مقاومة وثبـة الحب المتبادل ليحققا رسالتهما الارضية بحسب خطط العناية الربانية وذلك عن اضطلاع الاول حتى بالاذلال الاخير والاخفـاق الظاهر ، ورضى الاخرى بالموت نفسه . والتفاؤل هو السمة الرئيسية التي تميز هنا تفكير (كلوديل) المشوب بالنظرة المسيحيـة الى فاجعـة القربان والألم الضروريين ، وهذا التفاؤل العظيم هو تفاؤل مسيحي ايضـاً ولكنه فوق ذلك تفاؤل المذهب الانساني الذي يدعو الى الايمـان بان كل شيء سينتهي وفق مشاريع العناية الالهية وان على كل انسان ان يسهم في ذلك . فلولا هوى الجسد الذي أوقده في قلب (رودريك) مجال امرأة لما قوي على غزو (امريكة الخطايا أيضاً) ـ [4] حتى ان الخطايا التي كتبت منذ الازل على الانسان انما تسهم في وضعه اخيراً على الصراط المستقيم : « ولكن يا آلهي ، ليس من السهل اليسير الفرار منك . ولئن لم يتجه اليك بالوضوح الذي يملك ، فليذهب نحوك بالطريق المباشر » . ان الله يكتب كتابة مستقيمة فوق اسطر ملتوية . ان تفاؤل (كلوديل) في مجال التاريخ يتضح كذلك في انه يجب ان

---

(١) Sygne de Coûfontaine (٢) Rodrigue (٣) Prouhèze

(٤) Amérique Etiam Peccata

يتخيل الى جانب الابطــال ذوي القلب الممزق ارواحاً اخرى نقيــة ــ (السيدة الموسيقى) [١] ، (ماري ذات السيوف السبعة) [٢] ، (دون جوان النمسه)[٣] ــ وهذه الارواح تغمرها النعمة فيما يبدو بصورة طبيعية وتتمتع بافضال الله فتحقق على نحو طبيعي وهي فرحة مسرورة الرسالة المباركة المنوطة بها • اما الاشرار فانهم بلا ريب احرار في صنع الشر ؛ ولكن انتصارهم ليس سوى انتصار ظاهري موقوت لانه لن يكون في وسع الانسان ان يبطل الوعد بمملكة الله •

ان المذهب الانساني المسيحي لدى (كلوديل) ، وهو جد بعيد عن صوفية (بلوا) المؤمنة بالرؤى الاخيرة ، يقترب من نظرة (بيغي) ولكنه يلحف الحافاً اقل على الجانب المفجع • وتبدو ادانة العالمالحديث جليــة لدى مؤلف « الخبز اليــابس » حيث نراه يسرف لدرجــة (الكاريكاتور) في تصوير فزع مجتمع انتزع من احضان المسيحية واستسلم للبخل والشبق والحقــد والكذب • ولكن سلامــة مزاج (كلوديل) وقوته يسهمان رغم ذلك في تقويم (بلوا) و (بيغي) في هذا المجال ايضاً • وغاية ما في الامر ان تعاقب اشكال المدنية الارضية، وفوارق الانظمة والحضارات والثورات التي تغتذي منها (الدول) ، كل ذلك لا اهمية كبرى له : ولئن شاء الله ماشاء ورضي باذلال امثال (كوفوتتين) وانتصار (تورلور) [٤] فلا ريب في ان ذلك ينجم عن ان الاوائل قد كفوا عن خدمة قضية المسيح وانه قد تنجب عن الآخر سلالة تقبل بدورها على خدمة هذه القضية • ان (فكرة كوفوتتين)[٥] وهي بنت فرنسي مرتد ويهودي ، ستلفى الحقيقة ماثلة في حب ابن

---

(١) Dona Musique (٢) Marie Des Sept-Epées

(٣) Don Juan D'Autriche (٤) Turelure

(٥) Pensée de Coûfontaine

اخت (البابا) وستبزغ شمس فرحها المشبع بضروب النعمة والحافل بآمال المستقبل في (رومه) تماماً يوم انهيار السلطة الزمنية للبابا : وهذا الانهيار لا يعني البتة انحطاط (الكنيسة) ، بل يدل على بـدء مرحلة جديدة من مراحل نموها في الزمان . ان الله فاعل في التاريخ بلا انقطاع ؛ ولذا

ــ لا اهمية للفوضى ولا للالم اليوم ، مادام ذلك منطلق شيء آخر، ومادام

ــ ثمة غد ، وما دامت الحياة موصولة ، وان هدمنا وهدم اضخم احتياطي الخلق ،

ــ وما دامت يد الله لا تفتـأ تكتب معنا على الابدية باسطر قصيرة أو طويلة ،

ــ حتى الفواصل ، وحتى النقطة التي لاتدرك ،

ــ تكتب ذاك الكتاب الذي لن يكون له معنى الا حينما يتم .

طوبائية (برنانوس) (١)

لا تستهدف اثار (برنانوس) (٢) الخرافيـة البحث في فلسفـة التاريخ . وانما يتساءل المؤلف عن معنى الحياة الانسانية بصورة غير مباشرة وهو يتعمق مشكلة الخلاص والقداسة ؛ وان جوابه ليتسق في آن واحد مع جواب (بلوا) و (بيغي) . فهو ، مثل (بلوا) يرى ان النعمة تنتصر من خلال الالام واذلال الطبيعة وان نصر الله يعقب حلول الكوارث والنكبات : ان « كل شيء نعمة » في « يوميات خوري في الريف » (٣) تتجاوب أوضح تجاوب مع « كل شيء معبود » ، وتوقد

---

(١) الخيال المحال هو المعنى الذي ندل به على كلمة (طوبالية) المنحولة من لفظ Utopie (المعرب) .

(٢) Bernanos (٣) Journal d'un curé de campagne

نجمة الامل في حلكة ليل مفجع تتخبط فيه الانسانية المعذبة التي افتديت واعيد شراؤها . وهو مثل (بيغي) يحب رغم ذلك « مملكة الارض العذبة » ويعترف بقيمة العواطف الطبيعية ويعجب بالحس السليم الفردي ، ويجلّ الاسس الراسخة التي يستند اليها نظام الكون، على الرغم من ان اسمى توثبه يحمله شطر ما يجاوز العقل وما هو تجرد ومحبة صوفية. انخوري (تورسي) [1] يقف امام خوري(امبريكور)[2] كما تقف (مدام ليدوان) [3] ، وهي الرئيسة الثانية في (الكرمليات) [4] حيال (الاخت ماري التجسد) [5] ، وهو ينطق باسم الواقعية المسيحية التي تتخذ نقاط ضعف الخليقة فضائل ويستخدم النقائص التاريخية على انها تقود الى صفاء السرمدي ونقائه . ان (برنانوس) الروائي والكاتب المسرحي يعرض عن شروط خلاص الانسان في الزمان فكرة لاريب في انها مشوبة بالخوارق ، ولكنها فكرة متزنة فيها تفاصيل دقيقة حذرة .

ومن الجلي ان خطوط فلسفة التاريخ ترتسم على نحو أدق في مؤلفاته السياسية . ومن باب المفارقة ان نجد ان النزعة الصوفية (البرنانوسية) المطلقة انما تبدو هناك في الغالب اكثر منها في رواياته، وهناك ايضاً تظهر احتقاره للمادي والواقعي ، ويتجلى مزاجه الفوضوي ورجعيته السلبية و « طوبائياته » المتحمسة . غير ان ذلك لا يعني انه يجنح ، مثل (بلوا) ، الى ان يرى يد الله في كل شيء : بل ان مزاجه كهجاّء يعود على الناس بلائمة المصائب او اخطاء توجيه الحادثات . وعنده ان ثمة مسؤولين في كل مكان . واكره مايكره هو فكرة تصور طائفة كبرى من معاصرينا الذين يتأثرون بأي ضرب من اضرب التقيد

---

(١) Torcy (٢) Ambricourt (٣) Mme Lidoine

(٤) Carmélites (٥) Soeur Marie de l'Incarnation

ويحسبون ان التاريخ حركة ذات اتجاه مفروض جارف كالنهر • انه يعلن — على العكس قائلاً : « ان انساناً مسكيناً مثلي لا يزعم البتة انه يغير مجرى التاريخ، بسبب ان التاريخ ليس نهراً، وان تشبيهه بالنهر هو بآن واحد صحيح وباطل ••• » • ويردف محدثاً الشباب بتعبير أدق : « اسفاً ! ان صورة التاريخ كنهر ، وهي ليست رغم ذلك سوى صورة ، انما تؤثر في ارتكاساتكم الذهنية ••• وانتم ترون حقاً هذا النهر العظيم الذي يحمل الانسانية بحركة جليلة لا تقاوم • ولكنني ارى من جانبي ان الناس هم الذين يصنعون التاريخ • وهم لايصنعونه كله • فهم لا يحددون وحدهم اتجاهه ولا جريانه • ولكن الحضارة لا تلبث لولا الجهد الانساني الموصول ان تستنزف نبعها وتنضب وثباتها » • وان مصدر القلق في فكرة تاريخ يسير من تلقاء ذاته وبصرف النظر عن عون الانسان يمثل لدى (برنانوس) في ان هذه الفكرة تتصل بنزعة من نزعات الفكر المعاصر وهي اشد هذه النزعات خطراً : انها ترتبط بنفي حرية الانسان : « ان لهذه الحضارة فلسفتها ، وان أول بديهية في هذه الفلسفة هي انكار حرية الانسان وتأكيد استرقاق التاريخ لها ، والتاريخ نفسه عبد الاقتصاد • ايها الشباب المسيحيون الذين تصغون الي • انكم لا تحاكمون كماركسيين ولكن بعض ارتكاساتكم الذهنية ارتكاسات ماركسية • انكم تتصورون المجتمع الانساني بصورة طبيعية على انه قاطرة قذفت فوق الخط الحديدي في حين ان من الافضل تشبيهه بأثر فني يعيد خيال الفنان الناشط بناءه بدون انقطاع » • ان الانسان هو صانع التاريخ ، تاريخه• ولئن اتجه التاريخ شطر الشر ، فثمة مسؤوليات انسانية • وبوجه خاص ، ان كانت الامور تسير اليوم سيراً سيئاً ، وكانت (فرنسه) امة في دور الانحطاط ، واذا انتصر الظلم وفقدت المسيحية فان ثمة مسؤولين ، وهم انفسهم في كل مكان : البرجوازية ، طبقة الموسرين ،

وهي تافهة (أي متوسطه) من حيث الوضع ومن حيث العواطف . هناك اذن « طوبائية » (برنانوسية) ، ولكن الجدير بالذكر انهـا ليست « طوبائية » تنبوء وانما « طوبائية » نظر خلفي : ان (برنانوس) لم يكف عن الحلم بـ « مسيحية بطولية وقروية وعسكرية » يفندها في رتبة ماض من نوع العصر الوسيط ، بعد تجميله ومن الصعب تحديد تأريخه بين تتويج (القديس لويس) وسيف (جان دارك) ، مسيحية هدفهـا مرتين الروح البرجوازيـة التي سحقت اولاً النبلاء بقوانين المساواة في القانون المدني وسحقت ثانياً الصعاليك بامتيازات المال . انه يحلم ، وهو يعادي بآن واحد الديمقراطية والرأسمالية ، بفروسية جديدة ، وبنظام بشر احرار ينبثق من التغلب على « الاثرة والوحشية وقنوط العالم » ، ويعيد الشعور بالشرف المسيحي ويعمل على ان تسود العدالة من جديد . فما هي فحوى هذه العدالة في نظر (برنانوس) ؟ اننا لا ندرك ذلك بوضوح أولا ندرك ماستكون عليه «مدينة المستقبل»، هذه « المسيحية الجديـدة » التي سيتكلم عنهـا في « رسالـة الى الانكليز » (١)

نرى الان بصورة افضل قليلاً كيف يتصور (برنانوس) عمل الانسان في التاريخ : انه تمرد ، انفجار ، روح الثورة ، انفجار ضد جميع ضروب الظلم ، وأنواع المين ، ومحاولات القوة والمكر . « ان حظنا بأسره يمثل في ايقاد قوى روحية مهما كانت اليد التي تدني الشعلة منها » . لقد كتب هذه الكلمات سنة ١٩٤٠ وكان يتحدث فعلا عن رجال (المقاومة) الذين كانوا يجابهون الموت وهم يتساءلون عما اذا لم يكن موتهم سدى ؛ وكان التحدي على لسانهم ، واليأس أحياناً في قلوبهم : « ان أحداً لا يسمع الانين الذي ينطلق من صدوركم التي

(١) Lattre aux Anglais

ثقبها الرصاص ، ولكن هذه النفخة الصغيرة هي نفخــة الروح » •
وسواء آمن هؤلاء الرجال بالسماء أم لم يؤمنوا بها فانهم « يمشون في طليعة المسيحية » لان « الله لم يصطف نفس الاشخاص لحمـــاية (كلامه) ولتنفيذه » • هنا يستعير (برنانوس) بلهجة عدوان شديد فكرة عزيزة على المؤرخ المسيحي وهي ان حكمة الله تتحقق في الغالب على يد أناس لا يعرفونها أو لا يعترفون بها ولاسباب تبدو في الظاهر غير دينية : ان كل عمل يثأر للعدالة ، وكل حركة تتطلع الى الشرف ، لا بد وان يخدما مشروع الله من طرف خفي • وعلى هذا فان الفعل التاريخي الخصيب لا يمكن ان يكون الا ثورة الروح سواء في ذلك حال الفوضوي الجامح الذي يبقى في تخوم النظم الكاثوليكية أوحال خادم المطلق الذي لا يرضى حماسه بأي تساهل في السلوك ولا يرضى بأية مخالفة تصدر عن ناقص • ان (برنانوس) نموذج الانسان المتمرد، ومثال الداعية اليه بثبات أعظم من ثبات (كامو) الذي يجنح مذهبه الانساني الراسخ الى الحيطة كما تدفعه ريبيته الى حلول معتدلة •

ان تمرده ينصب بوجه خاص ، وبصورةثابتة ، على العالم الحديث• الفكرة فكرة ذائعة في الفلسفة المسيحية للتاريخ في القرن العشرين ولكنها تلبس عند مؤلف « الخوف العظيم من ذوي الفكر السديد »(١) و « مقابر تحت القمر » (٢) و « الاطفــال الاذلاء » (٣) و « الرحرية ، لمــاذا ؟ » (٤) ، تلبس ثــوب شــدة وعنــف وتشكــل محــور تفكــيره السيــاسي من حيث وحــدة اللهجــة وثبــات المقصد • وهذا التفكير يبدو أقرب الى الحركة وعدم الاستقرار اذا شئنا ان نصفه بحسب القرارات المشخصة والميول الحزبية لاننا نلفاه يتنقــل

(١) La Grande Peur des Bien-Pensants (٢) Cimetieres sous la Lune

(٣) Enfants humiliés (٤) La Liberté, pourquoi faire ?

من مذهب (موراس) في عداء الديمقراطية الى مذهب عداء الفاشية فيتاخم مذهب (ماريتان) ثم يرجع الى مذهب يعادي الشيوعية عداء عنيفاً أقصى • ولكن نقطة تظل ثابتة خلال هذه التطورات المرتبطة بالظروف : وهي الحقد على العالم الحديث واعتباره بمثابة امبراطورية مادية هي امبراطورية المال والالة و (الدولة) • والانسان ليس انسانياً الا اذا كان حراً • و (فرنسه) ليست فرنسية الا اذا تعلقت بالدفاع عن حرية النفوس ، و (أوربه) لا تؤدي رسالتها الا اذا احتفظت بمعنى وبشروط استقلالها الروحي الذي شيدت مدنيتها عليه — وان المنحدر كله ، والكتلة الناجمة عن جميع ما يضاد المدنية الحديثة انما ينزعان الى خنق هذه المدنية عن طريق سيادة المال ، وسيادة الالة ، وظلم (الدولة) • ان هذه الافكار هي الافكار التي تضمها حملة (بلوا) و (بيغي) ولكنها هنا تصاغ على وجه أعنف وبصورة جد مفجعة بنتيجة تجربة شرور لم يدر (بلوا) ولا (بيغي) الا بشعور تنبؤ مسبق عنها ، وقد رأى المعاصرون من جيل (برنانوس) كيف ظهرت هذه التجربة في التاريخ • يقول (برنانوس) : « العالم الحديث ، أو هذا النوع من الحضارة الآلية الجمعية القامعة التي ندعوها بهذا الاسم » • وعلى الرغم من ذلك فان من المهم ان نعترف بأن حملاته ضد عالم اليوم فقيرة بالتفاصيل الدقيقة ولا تبعث على الاقتناع • مثال ذلك فكرته المفضلة في رد سلطان الدولة الحديثة العظيم ، وهي من ناحية اخرى فكرة عزيزة على انصار المذهب الانساني الاحرار • بيد ان الدولة الحديثة في نظره تعني الدولة البرجوازية أو الدولة الفاشية او الشيوعية على قدر سواء : ويبقى ان نعلم هل تطرح المسألة على طريقة واحدة وفي جميع الاحوال في (لندن) و (باريز) و (ستكهولم) كما تطرح في (موسكو) و (بلغراد) و (مدريد) ؟ أليس من الجائز ان نتكلم في صدد الدولة البرجوازية عن تهافت وانحطاط أكثر من

كلامنا على بشاعة استخدام السلطـة ؟ ان (برنانوس) يؤمن بأن الرأسمالية والمجموعية ، على اختلاف أشكالهما انما تمثلان وجوها من القول بتقدم الاقتصاد على سواه : ربمـا • ولكن هل النتـائج السياسية والاخلاقية الناجمة عن هذا التقدم هي ذاتهـا في الحكم الـ « تقني » الامريكي وفي ديكتاتورية (فرانكو) الكاثوليكية ــ العسكرية وفي القومية الشيوعية عنـد (تيتو) وفي الشيوعيـة السوفيتية ؟ ويحسب (برنانوس) أيضا أن طغيان الدولة نتيجة مباشرة عن التصنيع وعن نمو الآلية والـ « تقنية » نمواً عظيماً • ولكن هذه النظرية موضع مناقشة كبرى لاننا نشاهد اليوم ، من جهة اولى ، ديمقراطيات تحررية تخدم استقلال الضمائر مع معايشة نمو « تقني » عظيم ــ مثل (سويسرة) والدول (الاسكندنافية) و (انكلتره) ــ ونشاهد على العكس من جهة اخرى ديكتاتوريات تنهض في شعوب متخلفة اقتصادياً ، بله انها قد تنهض فوق حضارات زراعية صرف كما في (الصين) • كتب (برنانوس) : « اقول ان تنظيماً هو مجموعي قامع منذ المبدأ ، عندما يستتر خلف قناع الحرية واسمها ، ما دامت دعوى التحرر تستذل الانسان وتسترقه بعبودية الاقتصاد حتى تستطيع الدولة ــ او هذا الضرب من الطفيليات التي ما زالوا يجرأون على اطلاق هذا الاسم عليه ــ ان تستولي بآن واحد ، وفي الوقت المناسب، على الانسان وعلى الاقتصاد • وان رأسمالية الاحتكارات تمهدالسبيل أمام احتكار الاحتكارات ، امام الاحتكار الاعظم ، الاحتكار الوحيد: (الدولة) الـ (تقنية) مؤلهة ، وهي إله كون من دون الله » • ولا ريب في اننا نزعج (برنانوس) لو سألناه ان يضرب لنا مثلا على دولة « تقنية مؤلهة » وقد بلغت حال الديكتاتورية بتحول الاحتكارات الرأسمالية الى احتكار سيد وحيد • قد يكون ذلك حال (امريكه) ولكنه في جميع الاحوال لا يدل على حال (روسيه) •

اضف الى ذلك ان ثمة سؤالا ينبغي طرحه على (برنانوس) ولكنه ينبغي ألا يطرح عليه وحده ، لان هناك كثيرين ينزلقون في هذا المجال المبتذل : ماذا تعني ادانة الآلة باسم حقوق الفكر المتعالية ؟ ويبدو ان خطيئة العالم الحديث هي تقدم الـ « تقنيــة » ، هي الآلية • يقول (برنانوس) : « قد لا تكون الآلية خطأ اقتصاديا واجتماعيا وحسب ، بل انها ربما كانت عار الانسان اذا قرنت بعار الهيروويين أو المورفين »• ماذا يعني ذلك ؟ هل يعني ان « الانسان الصانع » هو بجوهره انسان مخطىء ؟ هل يعني ان المهندس الذي يبني آلات تزيد قوتها وسرعتها باطراد فتسيطر على قوة الطبيعة وتأسرها وتمتد حتى نطاق الطاقــة السرية للجوهر الفرد ، هل هذا المهندس هو تجسد مستحدث لـ (آدم) الباحث عن قطف الثمرة من شجرة العلم ام تجسد (بروموثه) [1] الذي سرق النار من السماء ؟ وهل تصدر الامنا كافة وشرورنا جميعاً عن هذه الجريمة التي تثير غضب الآله ؟ ان ذلك يعني تأويل التاريخ البشري تأويلا عابثا سدى الى حد كبير ، وهذا التأويل ينشأ بالاحرى عن كآبة الشاعر الحزين بأكثر من نشأته عن استدلال فيلسوف أو مطلب عالم من علماء اللاهوت • وأي انسان ــ وانا اعني أي انسان من اولئك الذين يحطون من شأن التقدم الـ « تقني » سواء كانوا من المتصوفة أو من الوعّاظ الاخلاقيين ــ يشعر مرة بشعور الاجرام عندما يركب قطاراً أو يصعد الى طائرة أو يقود سيارته أو يوكل جسده العليل الى جرّاح مسلح بجميع الادوات الكاملة في حجرة عمليــات حديثة ؟ لقد بلغت من العمر زمناً رأيت فيه عندما كنت طفلا كيف يحصد القمح بالمنجل في مقاطعة قديمة قروية ثم بالآلة الحاصــدة الرابطة ثم ظهرت الآلة الحاصدة الموزعة التي توفر على البشر الزمن

---

(١) Prométhée

والعرق والتعب كأحسن ما يكون توفير ؛ فكيف لا نعتبر ذلك تقدماً صحيحا ومشروعا ، وهو تقدم لا يمكن ان يتحقق الا اذا قام التمركز الصناعي وبناء الآلات ـ الادوات ، أي بكلمة واحدة : الآلية ، الى جانب التقدم العلمي وال « التقني » ؟ ان (برنانوس) يدرك بالطبع الصعوبة كل الادراك ، ويسعى الى ان يمكر بالاسم ويحتال عليه :

« انني لا ازعم البتة انني ادين الآلات • ولئن كانت آلات العـالم تتهدده بالفناء كما تهدد المخدرات المدمن بالفناء بسمه المفضّل ، فذلك لان الانسان الحديث يطلب من الآلات ، بدون ان يجرؤ على قـول ذلك ، أو ربما بدون ان يعترف به ، لا ان تساعده على تجاوز الحياة ، بل على اجتنابها ببراعة كما يلتف المرء حول عائق كثير الارتفاع •• »

لا ريب ، اذا دلت كلمة الآلية على استعداد الانسان الحديث لربط سعادته بعجائب الميكانيك ، والسعي عن السرعة للسرعة ، وعن الانتاج ابتغاء دوار الانتاج ، وعندئذ تغدو الآلية فساداً خلقياً ، تغدو محملة بامكان الخطأ الاقتصادي • ولكن (برنانوس) لا يقف عند هذا الامر ، بل يهاجم الآلة بذاتها : انها اختراع نول نسيج في (مانشستر) نجم عنه في رأي (برنانوس) انحراف المدنية عن طريقها الانساني التحرري؛ واذ حدث ذلك في (انكلتره) فمن الجائز ان نخلص منـه الى ان (فرنسه) ليست مسؤولة مبدئياً عن المادية الرأسمالية ! وحين كسر عمال مدينة (ليون) سنة ١٨٣٠ الآلات لم يخضعوا ربما لارتكاس سيء ؛ وقد نجم عن جهود أنصار الحكم الـ « تقني » الذين ارادوا دفع (فرنسه) الى رفع مستوى انتاجهـا الصناعي انهم اضلوهـا واخرجوها عن تقاليدها ورسالتها ، الخ • كل ذلك تقرؤه في « الحرية ، لماذا ؟ » ولا نستطيع الاحجام عن التفكير في الحيطة الزائفة عام ١٩٤٠ ، ولا في الحكمة الرعديد المموّهة التي نهض بها المفكرون الانهزاميون

النظريون الذين كانوا يحلمون ، عندما كان في وسع (المانيه) ان تسيطر على (اوربه) بجيشها وبضاعتها ، يحلمون بـ (فرنسه) الزراعية ذات الصناعة اليدوية والمنطوية على فضائلها الصغيرة وأحجارها القديمة وقصورها التي قلبت متاحف ونواقيسها التي تقرع الحان الحزن والكآبة . لقد كانت طريقة تافهة الى حد كبير من طرائق النظر الى التاريخ واعتبار مستقبل المسيحية نفسها ، ذلك ان ثمة قانوناً ينص على ان الامم لا ترجع القهقرى من غير ان تموت ، وان الحضارات كما أوضح (توينبي) ، تموت عندما تكف عن مجابهة تحدي التاريخ. بيد أن تحدي التاريخ للمدنية الاوربية في القرن العشرين ، وعلى وجه الدقة من حيث انها ذات جوهر انساني مسيحي ، أي تحرري وروحي ، لا يمثل في حذف الآلية ، ولا في الامتناع عن آفاق السعادة التي يلوّح تقدم العلم والـ « تقنية » للجماهير بأمل تحققها ؛ بل انه يمثل في أسر تلك القوة والاضطلاع بهذا الامل وتسديده .

إعادة تقويم التاريخي

ان ادانة المسيحيين للعالم الحديث أمر ذائع مألوف ، وهو عنيف في الغالب ولا يستوحى من حركة النفور من المدنية المادية التي افرغت من الله وحسب ، بل انها تضمر بوجه أعم نزعة لا هوتية موصولة تلحف على الفصل بين المدينتين ، بين التاريخين . ولئن بدا العالم الحديث هو الخصم الذي ينبغي قهره ، والروح الشرير الذي يجب طرده ، فما ينجم ذلك عن مكر استثنائي بقدر حدوثه عن ان هذا العالم يمثل « هنا الان » تجسد عالم الدنيا ، العالم المحكوم عليه . هناك تقاليد متزمتة تستمر من (القديس اوغسطين) الى (كارل بارت) وتشتمل على (لوثر) و (باسكال) و (كير كجارد) وهي تلح على تفريق

(الكنيسة) عن (العصر) ، وفصل التاريخ الخارق للارواح المتجهة شطر السماء عن تاريخ البشر الذين ينظمون الارض . وعلى الرغم من ان (القديس اوغسطين) يسعى الى اقامة صلات صحيحة بين الروحي والزمني والى ادخال (الكنيسة) في اطار (الامبراطورية) فانه يرى ان المدينة الارضية ليست مدينة (آدم) بل مدينة (قابيل) ؛ وهي شريرة بذاتها ولا يمكن تبريرها الا اذا اعتنقت هدى الله ، وخضعت لمملكة الله ، للكنيسة . وهذه الفكرة تظل كامنة في الفكر المسيحي اليوم وان تفاوت الاعتراف بها وكانت جذورها تمتد الى (الغنوص) بأكثر من اتصالها بالانجيل أو بالقديس (بطرس) . وانما يمثل الخطر الاعظم الذي تنطوي عليه في انها تحكم من زاوية المطلق بافتراق (الكنيسة) عن العالم ، ودعوة المسيحي الى الانطواء على حياته الداخلية ، على حوار الروح والنعمة ، بالتجرد عن أشكال الحياة الاجتماعية التي تعتبر سيئة كلها على قدر سواء — هذا على الرغم من انها قد تبشر من جهة اخرى بممارسة الواجب المدني واحترام سلطة (قيصر) . غير انه ليس من الصحيح ، حتى من وجهة النظر المسيحية الدقيقة ، ان تدان مؤسسات المجتمع المدني وقوانينه ، ولا سيما ان تدان كلها على قدر سواء . فاذا صح ان العالم لم يجسد ولن يجسد الرسالة الانجيلية برمتها ، فان من الصحيح أيضا ان الحضارات التي تقترب من ذلك الى حد كبير أو صغير هي حضارات مسيحية بالقوة الى حد كبير أو صغير . وما دام من الجائز ان تتحلى الاوضاع والعادات الاخلاقية بصيغة مسيحية أو بصيغة لا مسيحية ، فان من غير المعقول ألا يحاول المؤمنون بالمسيح بذل جهودهم لاخضاع الوقائع الزمنية بعمل زمني في منحى أفضل حظوظ الروح : فهناك بالاضافة الى فحوى (الوحي) سياسة مسيحية وطريقة مسيحية لتصور حكومة

التاريخ . وفوق ذلك : توجد عدالة طبيعية ، عدالة مستقلة عن الدين ، ويوجد نظام انساني زمني له قيمته بذاته ، وبصرف النظر عن غايات الانسان السرمدية . وعلى المسيحي ألا يتجرد عن هذه العدالة ، وهذا النظام ، وهذا الاتساق والازدهار الارضي والتاريخي ؛ وان مسيحيته لا تزيل انسانيته في شيء ، ولا تبيد شيئاً من ضروب التضامن الطبيعي التي تشده في الزمان وفي المكان الى مجتمع اقرانه ، سواء كان معمّداً أو غير معمّد ، مؤمنا أو غير مؤمن بالمسيح . ولم يدرك أي لا هوتي هذا الانخراط الذي لا تفصم عراه بين الانسان المسيحي والتاريخ الزمني ، أي انخراط كل انسان يولد في هذا العالم ، في عالم حديث أيا كان ، بأفضل مما أدركه (القديس توما)[1] ، ولذا لم يكن بمستغرب ان يصدر عن مفكر (تومائي) في القرن العشرين ، هو (جاك مارتيان) الارتكاس ضد الانجيلية بأشكالها المختلفة وضد التصوف المطلق ــ على الرغم من ان مثل هذا الارتكاس ماثل كما رأينا في تفكير (بلوا) و (بيغي) و (برنانوس) واضرابهم . ويرى (ماريتان) ان المسيحية الحية في التاريخ هي مذهب انساني كامل يتضمن في آن واحد نظامي الغائية الانسانية : غائيته السرمدية المفتوحة على اتحاد القديسين ، وغائيته الزمنية المفتوحة على ازدهار طبيعته الارضية في مجتمع سياسي منظم عادل . وقد ألح (ماريتان) ، لحسن الحظ ، على الفكرة القائلة بأن في المجتمع خيراً مشتركاً ، منطقة نشاط وتعاون يتابع فيها البشر ، على اختلاف نحلهم الدينية وارائهم في الحياة ، مصالح طبيعية وشرعية مشتركة بينهم : السلام ، النظام ، البحبوحة ، الحرية ، العدالة ، القوانين ، الخ . فماذا يعني ذلك سوى ان الزمني يعاد تقديره واعتباره بكل معنى الكلمة ، لا من حيث اخضاعه

---

(١) Saint Thomas

نظرياً ومن بعيد لمملكة الله وحسب ، بل من حيث استقلال غاياته المتطلعة الى خلاص البشر على الارض ؟

ولا ريب في ان تقويم الزمني يظل لدى (ماريتان) ولدى جميع انصار الحركة الشخصانية المستمدة منه مرتبطاً أعمق الارتباط بلاهوت (التجسد) الذي ينقذ الاهتمام بالسرمدي : وان صيغة المذهب الانساني الكامل تصحح بصيغة تقدم الروحي ، وتمارس هذه الصيغة علىوجهين: فمن جهة اولى يترتب على المسيحي أن يتصرف كمسيحي في منطقة المجتمعات الطبيعية حيث يعمل من حيث هو مواطن في مجتمع تاريخي ، أي عليه ان يمارس مبادىء الاخلاق الانجيلية ويمتنع عن الافعال التي تخالف هذه المبادىء ؛ وعلى هذا النحو يتحقق نوع من اضفاء الصبغة المسيحية المباشرة على التاريخ • ومن جهة اخرى ، يظل غير المسيحيين أنفسهم مكلفين في عملهم التاريخي باتباع مبادىء الاخلاق الطبيعية التي تعتبر الله صانعاً وكافلا ، على نحو ان كل ما يُصنع بصورة طبيعية في مجال الزمني ضد الطغيان ، من أجل العدالة ، من أجل ارضاءحاجات المخلوقات البشرية على الارض ، حتى ولو في جو علماني ، أو في جو ديني غير مسيحي ، أو حتى في جو نفي القيم الدينية نفياً منهجياً ، فانه يطابق خطة العناية الربانية وييسر على الاقل بصورة غير مباشرة اضفاء الصفة الروحية على التاريخ • يقول (ماريتان) : « اننا نعلم ان الكاثوليكية تضم في كليتها الروحية جميع ما يحمل اثار الله البارىء المخلص ؛ ذلك ان المسيح ، رئيس الكنيسة ، هو أيضاً رئيس النوع البشري ، وان كل حق يقال ، أو كل خير يُفعل في أي مكان من العالم انما يعود الى كنزه السري على نحو أو آخر ، وعلى صورة مرئية أو لا مرئية ، وعلى نحو طبيعي أو خارق للطبيعة » • وذاك هو موقف المذهب الانساني الكامل حيال التاريخ في جوهره الاساسي •

ولكن ماذا يحدث اذا اتفق لتبرير غايات التاريخ الارضية الخالصة تبريراً شرعياً وانسانياً ان انقطع تصحيحها باثبات تقدم الروح ، أو اذا قصّر تقويم الزمني عن أن يفي بتبيان معنى ترصيعه في السرمدي ؟ لا ريب في أن فلسفة التاريخ تكف عندئذ عن ان تكون مسيحية ، ولو جاء بها مسيحيون أو جاءت في جو فلسفة مسيحية . وهذا ما نشاهده اليوم في اسرتين فكريتين على الاقل تتقابلان تقابلا جذرياً حين تعارض احداهما الاخرى من حيث المقاصد الاساسية ، ولكنهما تتشابهان في موقفهما الرئيسي ازاء التاريخ : الموراسيون الكاثوليك والمسيحيون التقدميون .

يرى اتباع (موراس) ، من الكاثوليك أو غير الكاثوليك ، ان الانسان لا يستطيع بقاء ولا نماء الا حين يندمج في نظام اجتماعي ، ولذا فان النقطة الاولى في كل فلسفة جديرة بهذا الاسم هي ان يعتبر المجتمع بمثابة معطى رئيسي اول وتحدّد المبادىء والقواعد التي تتيح له البقاء في الزمان . وعلى ذلك فان السياسة ليست سوى « تقنية » غرضها الدفاع عن الجسم الاجتماعي ، وهي بذاتها خير اذا حققت غايتها . وانما يهدد قانون العدد الاكبر ، وغريزة الجماهير ، الجسم الاجتماعي أكثر ما يهدد ، وان خير وسيلة لحماية هذا الجسم هي الفهم المدرب لدى النخبة التي تعرف قوانين التاريخ وتستخلص منها قواعد دقيقة ناجعة : ومن هنا تنشأ السمة الارستقراطية والفكرية في السياسة (الموراسية) . ولما كان الجسم الاجتماعي يتحقق ، من ناحيـة اخرى ، أتم التحقق وأكمله في الامة ، فان السلامة القومية هي أكثر الاشياء أهمية عـلى الاطلاق ، وان الالوهية هي مجتمع الالهة شأنها في المجتمع القديم : انها تشد أزر الضمير الجمعي بعبادتها ، وترمز الى (الدولة) وتؤيدها . وسيتحدث المفكر (الموراسي) من حيث هو مفكر وضعي عن الالهـة

(فرنسه) ؛ وسينزع من حيث هو كاثوليكي الى ان يرى الكاثوليكية ديناً ضرورياً للامة الفرنسية ، وهي ابنة الكنيسة البكر ، وابداع الله التاريخي الممتاز . ولكن هذا المفكر سيشعر ، سواء من حيث انهوضعي او كاثوليكي ، بأنه يحقق أمراً طيباً على الاطلاق حين يجعل التاريخ زمنياً ، وحين يصنعه كذلك بوسائل من طبيعته وبصرف النظر عن الاخلاق. يقول (موراس) : « انما المؤسسة التي لا نهاية لدوامها هي التي تديم أفضل ما لدينا . وبها يتسم الانسان بالخلود ... » . اننا نرى أي لون من الوان الخلود يعني : خلود هو في الزمان باعتبار ، خلود هو استمرار تاريخي يبقى بعد فناء الفرد . فاذا كان المفكر (الموراسي) كاثوليكياً فانه سيبدّل هذا الرأي بعض التبديل ويرى ان ممارسة الفن السياسي على وجه عادل فضيلة تروق (الله) لان السلطة تصدر عنه ، ولانه هو الذي يريد المجتمع . ولكن الزمني ليس هو الذي يصبح روحياً عندئذ حين نفتحه على مشروع اتحاد القديسين السرمدي ، بل ان السرمدي هو الذي يعمد الى دعم الزمني ، و (الروح) هو الذي سيخدم التاريخ من أجل توثيق الصلات بين جماعة البشر الذين يحيون في امة . ومن لطبيعي حين يُخضع المتعالي للواقع التاريخي المشخص ان تخضع (الكنيسة) لـ (دولة) ، كما يغدو من المنطقي ان تنفصل مطالب العمل السياسي عن تعاليم الضمير الاخلاقي . ان التاريخ في نظرية (موراس) يتحرك حقاً بالاستجابة الى العقل ، وهو ابداع الحرية الانسانية ، ولكن حركته تستهدف أغراضاً من طبيعة وجود الاشياء وبقائها في الزمان والمكان ، وبوسائل غير روحانية : والحق ان التاريخ الموراسي يلقى هدفه في ذاته ولا يخدم الروح حتى ولو وضع مجدداً في جومسيحي .

وتماثل وجهة نظر المسيحيين التقدمين بالاصل وجهة نظر (موراس)، على الرغم من انها تصدر عن (ماركس) : ذلك ان الانسان على ظهر

الارض يبدو مرتبطاً بالمجتمع ارتباطاً حيوياً ، يغمره التاريخي ، ويتضامن من ثم أول ما يتضامن مع أقرانه ، ترغمه الحوادث ، وتجبره معنوياً على البدء بالتعاون معهم لتدبير المجتمع الارضي على وجه معقول سواء كان المرء مسيحياً أو غير مسيحي ، وسواء كان يأمل بحياة اخرى أو يقتصر على حياته الدنيا • ففي نقطة الانطلاق في الحالين اذن رد فعل عنيف ضد المذهب الفردي وضد الصوفية المطلقة • ويرجع الفارق الى ان نظام المجتمع الارضي في نظرية (موراس) انما يتحدد بصحة الامة وقوتها وانتظامها في سلك التسلسل والتقاليد والارستقراطية • اما في مذهب التقدميين المسيحيين فان نظام مدينة الارض يتحقق بالعدالة الاجتماعية وبتحرر الطبقة الكادحة المضطهدة وباقامة المجتمع اللاطبقي في خاتمة المطاف • وهذا ما يضفي على الحركة اتجاهاً سياسياً آخر ، ولوناً فكرياً آخر مبايناً المباينة كلها : نسف القيم البرجوازية ، رفع لواء القيم العمالية ، الايمان بالتقدم ، اعلاء شأن العالم الحديث بدل اداتته • ولكننا نشاهد من جهة اخرى انبثاق اخلاق تلغى غائيتها وكمالها من جديد في خدمة التاريخ فتخضع الروح لذلك أو تضعها بين قوسين •

من الجلي ان التقدمية المسيحية نشأت في جو الماركسية وانها تعتبر ان ثمة حادثاً ثابتاً يمثل في ان روح التاريخ تتطلب اليوم الثورة لان نظام المجتمع البرجوازي أشبه باضطراب راهن • وثمة حادث افتراضي يلخص في ان خط القوة في هذه الثورة يمر بالماركسية ـ اللينينية بصورة مشخصة حتمية وان النظام الزمني سيكون ذات يوم شيوعيا • وهناك حادث معترف به ، هو ان الشيوعية ، في تجسدها التاريخي الحاضر ، ملحدة وانها تستقي قوتها من الالحاد ، أي من حركة الثقة بالانسان المعاصر والاعتزاز به ، هذا الانسان الذي يظن ، ويريد ، ان يكون قادراً بذاته على انقاذ ذاته بقوته وحدها • فماذا يفعل المسيحي

عندئذ ؟ هل يعارض الحركة او يتبرؤ منها ؟ يقولون : كلا ، لان هــذه الحركة تمثل صنع التاريخ ، وليس من المباح ، بل ولا من الجائز ان يضع الانسان نفسه خارج التاريخ • ولئن وجب ان يمر الخلاص الارضي للانسان بمرحلة الحاد مهما كلف الامر ، فلا يعني ذلك أن ليس من الواجب العمل من اجل هذا الشكل من أشكال الخلاص ، العمل من اجل مستقبل يحق للنوع البشري ان ينشده بالتآزر مع الملاحدة الذين يصنعونه • ويشرح ذلك الاب (موتتوكلار) [1] حين يذكر ان (الكنيسة) قد استخدمت في القرون الغابرة بؤس الانسان وذله من أجل هدايته ، واتخذت لنفسها قوة تمكنها من الكفاح الزمني ابتغاء تقويض هــذا البؤس ورفع ذاك الذل : « لقد رضيت بأن تهبط الى ما تحت ــ الانساني لكي ترقى بابنائها الى انسانية اسمى • وبعدئذ سيبلغ البشر تلك الرتبة من تلقاء أنفسهم وسينقطع اهتمامهم بالكنيسة الا بدء من لحظة اكتسابهم الانساني » • فغزو البشر للانساني ، وبوجه أدق ، غزو الكادحين له ، في جو ملحد ، ذاكم هو منحى التاريخ في الوقت الحاضر • وثمــة اذن عالم جديد في طريقه الى الظهور بنتيجة جهود جبارة ، وان العلم والـ « تقنية » والثقافة لتتقدم باتجاه العمق والاتساع في ضمير الجماهير: وعلى هذا النحو يتهيؤ خلاص الانسان : يقول الاب (موتتوكلار) أيضاً : « هناك خلاص الانسان بالانسان ، الى جانب الخلاص الذي يمنحه (يسوع ــ المسيح) الى الله ••• وان الايمان بالتقدم يمنح من لا ينتمون الى (كنيسة) ايماناً واملا ويهبهم معنى العالم والحياة ، وهي كلها تدعو البشر الى ان يسلكوا سلوك الناجين على الرغم من النقص والانغلاق والجهل بمدى هذه الامور وببعدها الشامل الوسيع » • وينجم عن ذلك ان المسألة الكبرى التي يلقاها المسيحي هي ألا يبقى

---

(١) Le P. Montuclard

بمعزل عن هذه الحركة الزمنيـة الصرف ، ولهذه الحركـة في الحق ما يبررها كل التبرير : « ان شاغل (الكنيسة) بالدرجة الاولى سيكون الاعتراف بهذا التاريخ الذي يكتبه الله في خارجها وبدون تدخلها المرئي المباشر ، وان يكون غرض هذا الاعتراف ايقاد ذاك التاريخ من باطن » .

هنا نجد محاولة جريئة لدمج تراث الفلسفـة الهجلية بالعقائـدية المسيحية . فالى جانب (الوحي) الخارق المستودع في (الكنيسة) يوجد وحي آخر من نوع طبيعي يحققه التاريخ ـ حتى ولو كان الالحاد هو محرك التاريخ كما هي الحال اليوم ، وكان من الضروري اقصاء الله موقتاً فيما يبدو من شكل المجتمع الذي ينزع اليه هذا التاريخ . موقتاً، بلا ريب : لان الهجليين المسيحيين يشاطرون فكرة الاب (مونتوكلار) في ان الطبقة الكادحة ستعود مسيحية ذات يوم ، « ولكن ذلك لن يكون الا بعد ان تغزو الانسانية بوسائلها الخاصة وباتباع هدى الفلسفة المحايثة التي تحملها بين جنباتها » . أما كيف تعود الروح الى الانسياب في التاريخ ، فنحن لا نعرف عن ذلك شيئاً ، ولكن علينا ان نثق بالله الذي يضع مسيحي القرن العشرين امام وضع راهن تنتقل فيه حظوظ التاريخ كلها الى يد الالحاد . لقد ترك راهب توفي خلال (المقاومة) قصيدة نقرأ منها الفقرة الآتية :

المسيح المبعوث يجعل العالم شابا
مثل (سرمديتك) و (تجسدك)
وان مستقبلنا ، حتى مستقبل (جبريل بري) (١)
يمجّد (اللانهائي) وينفجر شطره
في بسمة الله
الذي يعلم أيان تذهب البشرية

(١) Gabriel Péri

ومن البين ان هذا الوضع يقلق التسلسل الكنسي وانه يظل غـير مفهوم البتة اذا لم ندرك الموضوعة التي يستند اليها : وهي انالماركسية تعبير عن الحقيقة السياسية المطلقة الضرورية وان الشيوعية هي الطريق المحتوم نحو العدالة الاجتماعية . وقد أعرب (اندره ماندوز) (١) عن هذه الموضوعة اعرابا قويا حين كتب : « الحق ان الروحي ينتمي بجوهره الى المسيحية وجوبا ، كما ينتمي السياسي وجوبا الى الماركسية » . ولم يعرب (الموراسيون) بصورة أكثر جلاء عن تمايز السياسي والروحي تمايزا مطلقا : وبذا يسوّغ رأي « السياسة اولا » لدى التقدميـين المسيحيين . ولكنه لا يسوّغ الا اذا صحت الموضوعة ، اعني ان تعود السياسة وجوبا الى الماركسيين ، أي ان الماركسيين هم اولئك الذين يملكون اليوم التاريخ ويعطون مفتاحه . وهذه هي المسألة التي يحسن طرحها الآن .

(١) André Mandouze

الماركسية، لاهوت التاريخ

يترتب على كل فلسفة من فلسفات التاريخ ، أياً كان مضمونها ، ان تبين رأيها في مشكلتين : مشكلة حرية البشر وحتمية الاشياء في علاقاتها بهم ، ومشكلة أساس الامل الانساني . هل الفكر الانساني هو العامل الفاعل في المشكلة الاولى ، والمحرك الرئيسي للحوادث ، أم ان الحوادث ، على العكس ، تتبع جرياناً طبيعياً محدداً يبعث مواقف الضمير ؟ هذا هو السؤال الاول — وسواء كان منحى التاريخ محتوماً أو حراً ، فهل يطمئن له الانسان ، وهل ينبغي له ان يقنط من تعاقب المصائب ، واطراد العنف عبر العصور ، ام يجب عليه ان يأمل ، على العكس ، ان لم نقل بغائية ضرورية هي غائية النظام والسلام ، فعلى الاقل بتقدم سوي نحو وضع أفضل ، نحو خلاص جائز للنوع ؟ وهذا هو السؤال الثاني .

وقد رأينا جواب الانسانيين والمسيحيين على هذا التساؤل المزدوج ، تساؤل الانسان عن مغامرته الخاصة . فهم يتفقون في رفض صورة التاريخ الجاري كنهر يجرف الارادات البشرية . ويعتقدون من جراء أسباب وتفاصيل مختلفة ، ان الحركة الرئيسية للتاريخ حصيلة حرية اختيار الناس وان العقل يصنع التاريخ بمقاومة ثقل المادة والتغلب على الطبيعة . يقول الاولون : بقوة العقل الموجّه خير توجيه وحسب ؛

ويقول الآخرون : بمقصد العناية الربانية وبتأييد النعمة • وعندهم ان الفكر هو الذي ينبغي ان ينتصر في هذا الكفاح آخر الامر : وقد انتهى المطاف بأكثرهم قلقاً الى الوقوف ، بعد التفافات كثيرة أو قليلة في الفاجعي ، عند نظرة متفائلة ، أو على الاقل حيال الامل • وعلى الرغم من ذلك فان الصعاب التي يلفاها الانسانيون والمسيحيون هي صعاب جسام ؛ وهذه الصعاب تختلف في الحالين • فمن أجل تسويغ حرية الانسان في التاريخ ينزعج الانسانيون بأقل من انزعاج المسيحيين الذين يجب عليهم التغلب على تعارض هذه الحرية مع مشروع الله • وعلى العكس يتميز المسيحيون بوضع أفضل من وضع الانسانيين من أجل تأسيس التفاؤل وبناء الامل ، لان المسيحيين ينطلقون من لاهوت يقول بالعناية الربانية ، والانسانيون محتاجون الى ان يقفزوا قفزة اعتسافية في الميتافيزياء ويلجأون الى مجردات مبجلة مثل (الفكر) و (العقل) و (التطور) و (التقدم) ولا ندري كيف تعلق هذه المجردات في سماء فارغة فوق التحام الانسانية الدموي الاليم •

حيال هاتين المتناوبتين : حرية ـــ حتمية ، وأمل ـــ يأس ، تقترح الماركسية بدورها حلولا خاصة ، وهذه الحلول وليدة تفكير عميق في شروط الوجود الانساني في التاريخ ، وتتصف في الغالب بصفـــة المفارقة والابهام ، وبأنها عرضة لتبسيطات جد زائفة حين تهمل النظر بامانة الى الماركسية في تعقدها وتوازنها • لا شيء أيسر من القول مثلا بأن الماركسيةَ حتمية متفائلة لانها تفترض ان التاريخ يسير وفق حركة جدلية تتجه بالضرورة شطر التحرر الثلاثي ، التحرر النهائي للانسان ازاء الطبيعة ، وتحرر الكادح من قوانين الاقتصاد ، وتحرر المواطن من نير الدولة • ولكن من الواجب ان نعترف ، رغم ذلك ، بأن الماركسية تضمر أولا فلسفة حرية ، وان النظرة الماركسية لنمو التاريخ لا تخلو

ثانياً من صبغة مفجعة . ومن المناسب أن نبدأ بتبيان هاتين النقطتين .

الحتمية والحرية

الماركسية ، لاول وهلة ، مذهب الضرورة من حيث هي فلسفة تاريخ . وليس من ريب في ان المادية الجدلية تختلف عن المادية الميكانيكية الصرف التي نادى بها فلاسفة القرن التاسع عشر البرجوازيون . ولكنها، رغم ذلك ، منطلق حركة تاريخية لا يمكن اجتناب مراحلها ، وهي متجهة نحو غاية محددة من قبل . لقد انجبت الرأسمالية طباقها الخاص : الطبقة الكادحة ؛ ومن هنا الصراع الطبقي الذي لا يمكن ان تنكشف نتيجته عن غير ديكتاتورية (البروليتاريا) وظهور المجتمع اللاطبقي آخر الامر وزوال الدولة من حيث هي قوة قسر واكراه . ويبدو أول الامر ان ليس للارادة عمل كبير تحققه في هذا النماء الآلي : النهر مجرى مرسوم ولا بد للحوادث من ان تتبع مجراه الى حد كبير أو صغير ، وستنشأ الماركسية من تناقضات الرأسمالية كما نشأت الرأسمالية من تناقضات النظام الاقطاعي ؛ وربما استطاع الذين سيعترضون الجريان ابطاء حركته ولكنه سيجرفهم في نهاية الامر لان الفكر لا يقدر على قلب تقيد الاشياء رأساً على عقب . هذا وجه أول من فلسفة التاريخ في الماركسية .

ولكن لفلسفة التاريخ في الماركسية جانباً آخر مبايناً كل المباينة لأن كل شيء تناقض وتوازن اضداد وانحلال : انها تلحف أعظم من الحاف غيرها على دور الانسان الفاعل الضروري في التقدم التاريخي ، وعلى الانسان وحده بعد خلاصه من الله ومن الالهة ووعيه بسلطانه وبرسالته كانسان . ولئن صح ان العلوم الطبيعية تغلف علم الانسان ، فان ذلك لا يعني ارتباط الانسان الى الابد بتحديدات طبيعية ، بل يدل على انه

يحقق رغبة الطبيعة الآتية : ولادة الكائن الذي سيسطر عليها . ولا يرى (ماركس) ان الانسان يصنع التاريخ وحسب ، بل انه يصنع نفسه خلال ذلك : « ان كل تاريخ العالم المزعوم ليس سوى نتاج الانسان بالعمل الانساني ، واذن صيرورة الطبيعة الانسانية » . ان التاريخ نماء يحوّل الانسان به نفسه حين يحوّل بالعمل شروط وجوده الاقتصادية، وهذه القدرة ، قدرته على اعادة صنع العالم وصنع نفسه ، انما هي قدرة انسانية بالدرجة الاولى وهي التي تبين معنى مغامرته . ويأخذ (ماركس) على الفلاسفة الذين سبقوه اسرافهم في الاقتصار على معرفة العالم وتفسيره ، في حين ان المهم هو تغييره والسيطرة عليه . انه يعارض عدم نجوع النظريات المجردة والمثالية بمختلف صورها بفلسفة ناجعة ، فلسفة « عمل » ، معرفة هي في آن واحد عمل ويضبطها العمل . فالانسان يملك قدره بين يديه ، ولا سيما يديه الكادحتين : انه حين يعجن الارض يصنع تاريخه ويصنع ذاته .

وعلى هذا النحو ينبثق تناقض في قلب الماركسية : فمن جهة اولى يوجد وعي بمنحدر تاريخي محتوم ، ومن جهة اخرى تأكيد شديد على حرية القدرة الانسانية . بيد أن الانتباه الى ذلك لا يعني بعد ادانة الماركسية لان لفلسفة التاريخ المسيحية أيضاً تناقضها كما رأينا ، وللمذهب الانساني تناقضه . وقد يكون التناقض خصيباً عندما ينحل في تركيب ، فكيف يتم اذن تركيب الحتمية والحرية في الماركسية ؟ انه يتم بتعريف الحرية في الماركسية على انها تقيد الفكر والعمل بضرورة التاريخ . فاولئك الذين يستخدمون حقاً عن معرفة جيدة امتياز كونهم كائنات احراراً ، انما يعون اتجاه الحركة الضروري ويعملون في خط التاريخ وبحسب منحدره . اما الآخرون فانهم متخلفون أو ضالون ، يشيدون على الوهم عملهم التافه العقيم . انهم ليسوا أحراراً . ومن

شأن الماركسي ان يستعيض عن الحرية النظرية المثالية الفوضوية التي يقول بها (البرجوازي) ، وهي تمثل في اعتبار ترجيح نزوة من نزوات ذكائه أو قلبه يتخذها بمثابة قاعدة ، يستعيض عن ذلك بالحريةالمشخصة الواقعية المنظمة ، حرية الكادح الذي يعرف منحى سير التاريخ : (الثورة الشيوعية) ، ويبذل في سبيل خدمتها ذكاءه كله وارادته كلها . وعلى ذكر (ديدرو) [١] الذي عاش نهباً موزعاً بين مفهوم اخلاق مطلقةتتوج قيماً في السماء ، وبين واقع انسان ، وهو حيوان اجتماعي ، مقيد بواقع يجعله وحده يعي ذاته » ، يلاحظ [٢] (كلود روا) [٣] ان الفلسفة الماركسية كانت تتيح له حل هذه الخصومة الزائفة بين المثالية والتقيد ما دامت تبين بأن خدمة (الثورة) ، من حيث ان الثورة تعتبر ضرورة تاريخية ، هي انبل استخدام للحرية . ويضرب على ذلك مثل : « المقتولون بالرصاص لـ (شاتوبريان)[٤] » الذين نرى في رسائلهم « كيف يتفق لدى اشخاص بذاتهم ، لحظة وفاتهم ، معنى التاريخ الذي لا مفر منه مع عاطفة الواجب الشخصي ، تتفق المادية في أجلى صورها مع الاخلاق أنقى الاخلاق » . والواقع ان الشيوعي الذي يقتل رمياً بالرصاص ويرضخ للضرورة ويرضى بالتضحية التي يقوم بها لانه يعرف انها قربان يقع في الخط ، فان رضوخه نفسه ، لما يعتبر انه ضروري ، في لحظة رضاه ، هو الذي يؤكد كمال حريته .

لا ريب ان من الجائز ان نشعر ببعض الاضطراب حيال مفهوم الحرية التي تقوم على اتباع مجرى الاشياء الضروري ، أو على الاقل ، ما يعتبر بمثابة مجرى الاشياء الضروري ، والتي يمثل قوامها ،لدى التحليل الاخير ، في مصلحة نوع من أنواع الاعمال السياسية ونظام

---

(١) Diderot (٢) ممارسة المدرسيين Commerce Des Classique, N.R.F. 1953

(٣) Claude Roy (٤) Fusillés de Châteaubriant

حزب من الاحزاب . ولكن من الواجب أيضاً ألا نستعجل الاستغراب وان نطرح المسألة بأمانة . فمن الملاحظ ان للحرية في الفلسفات الكبرى كافة مفهوماً متماثلا : فالحرية لا تعرّف البتة ، في كامل معناها ، بأنها القدرة على فعل أي شيء من الاشياء ، بل القدرة على فعل ما ينبغي فعله بحسب سلّم قيم يقبله الفكر . وعلى هذا النحو فان الانسان الحر ، في الرواقية ، هو من يرضخ لنظام العالم ويجعل ارادته متسقة مع « نغمة » الكون ؛ وان اسمى افعال الحرية في نظر المسيحية هـو التضحية ، بالاقلاع عن الذات ، في جو اطاعة قانون الله والاستسلام لمشيئته . والحق ان ما نشاهده في فلسفة التاريخ الماركسية هو ، في بادىء الامر ، قلب وجهة النظر المسيحية القائلة بالعناية الربانية . فما كان في نظر المسيحي المشروع الالهي السرمدي يصبح في نظر الماركسي تقدماً جدلياً للتاريخ ؛ ولكن الثابت في الحالين هو الاعتراف والافتراض بأن نية متعالية على ارادة الانسان تعمل في التاريخ وتنزع الى دفعه نحو خلاصه ، نحو انجاز طبيعته انجازاً كاملا . وينجم عن ذلك اننـا نشاهد أيضاً قلب نظرية الحرية في المسيحية . فالانسان الحر في نظر الماركسي وفي نظر المسيحي هو الذي ينجز ذاته بانكار فرديته وطبيعته الناقصة من أجل طبيعته الكاملة . ولكن هذه الطبيعة الكاملة في نظر الاول ليست كما هي في نظر الآخر مما تحدده ارادة الله تحديداً مسبقاً ومما يمكن تحقيقه في عالم سرمدي هو عالم اتحاد القديسين : انهـا تولد في التاريخ ، ومن أجل التاريخ ، في الطراز الزمني لمجتمع لا طبقي . والحرية ، في الحالين ، تعرّف وتنتظم وتنضد بالاضافة الى مطلق ، ولكن مع فارق ضخم ؛ هو ان المسيحي ، بالاتفاق هنا مع انصار المذهب الانساني ، يرى ان المطلق يتحقق في قيم متعالية يتصورها الفكر في تأمله الحر (فكرة ما عن قانون الله ، أو (الخير) أو (العدالة) ، فكرة روحية بالمعنى الصحيح وبصورة مستقلة عن ملابسات التاريخ) ؛ اما

الماركسي فانه يرى ، على العكس ، ان المطلق هو التاريخ ذاته ؛ انه ما يحدث ؛ وبتعبير ادق ، انه ضرب من تأويل التاريخ يطابق نظرية المادية الجدلية • وبدل القول بأن المطلق ينقذ هنا الانسان من سلاسل التاريخي ، فان التاريخي ذاته ، بنقائصه كلها ، وبعدم تفاوته باسرها ، وبجميع أشكال عنفه ، أو بالاحرى ، ان ضرباً من أشكال التاريخي المستخلص بصورة نظرية ، والمحدد تحديداً تعسفياً ، هو الذي يضحي مقياس كل شيء ، مقياس العادل والظالم ، والخير والشر ، وان خدمته هي التي تعتبر بمثابة أفضل استعمال جائز للحرية • ومن هنا يصدر القلق الذي قد يشعر به المسيحي بصورة مشروعة كما يشعر به انصار المذهب الانساني ، القلق من مذهب يضع الاهداف والوسائل المتصلة بسياسة معينة في منزلة قيم عليا ولا يعترف للفكر بأية وظيفة سوى الوعي بضرورة التاريخ ، ولا يعترف بفضيلة اخرى إلا فضيلة الرضوخ لها •

المذهب الانساني الاشتراكي

ليس الماركسيون الذين ما زالوا يأخذون بتقاليد المذهب الانساني المدرسي بآخر من يستشعر الخطر : ومن هنا تنشأ عنايتهم بالحفاظ على استغلال الضمير الفردي استغلالا ذاتياً والحاحهم في التركيب الذي جاء به (ماركس) على جانب الحرية على حساب جانب الحتمية • وان لحال (جوريس) [1] بهذا الاعتبار قيمة عظمى •

ان (جوريس) ، بمزاجه وثقافتــه ، مفكر من المذهب الانساني بالمعنى الدقيق ؛ بل ان تكوينه الفكري يشده الى المثالية الفلسفية ذاتها •

---

(١) Jaurès

وقد كتب وهو شاب سنة ١٨٩١ في رسالته : « ان الحوادث تصدر عن الافكار » • ولما قرأ اثار (ماركس) رفض ان ينكر هـذا الرأي ويطرده طرداً باتاً ، وسعى الى توفيق المادية الجدلية لدى الفيلسوف الالماني مع مثالية (ميشله) الصوفية وحتى مع أخلاق البطولة التي ينادي بها (بلورتاك) [1] • وكان يروقه ان يلاحظ ان (ماركس) لم يصرف النظر أبداً عن « العناصر المثالية » وان « المادية الجدلية ليست آلية قاهرة حتمية » • وعنده ان الفرد لا يخضع خضوع التقيد التام لشروط وجوده الاقتصادي ، لمهنته • « انه يعيش أيضا بالحـواس و بالفكر في وسط أوسع ، هو الكون ذاته » • واذا نظرنا الى الانسانية بجملتها وجدنا انها لا تلقى حتمية شروطها على نحو سلبي : وان طراز وجودها أكثر تعقداً من امكان ارجاعه « بقسوة وبصورة آلية الى صيغة اقتصادية » • ويؤكد « جوريس » ما يسميه بتسامح الى حد ما « التكوين الدماغي المسبق للانسانية » ازاء الشروط الاقتصادية التي لا يستطيع ان يتنكر لها من حيث هو اشتراكي : ويقصد بذلك الاشارة الى وجود بعض الاستعدادات الفكرية الكلية الايثارية التي لا تتبع التاريخ ولا ينتجها التاريخ ما دامت سمة طبيعية للنوع البشري ، وانما يفسر الضمير الانساني وضعه في المكان والزمان من خلالها • ان الحياة الاقتصادية والحياة الاخلاقية يرتبطان اوثق الارتباط بالنسبة الى كل انسان : يقول (جوريس) أيضاً : « ان العقل الانساني لا يصنع وحده كل التاريخ ، ولكنه جزء من التاريخ ، الجزء الانور الاسمى » • واذ يلقى الضمير ضغط الحوادث ، ولا سيما الحوادث الاقتصادية ، فانه يخضع في الوقت ذاته لـ « منطقه الخاص » ، لـ « حافزه الداخلي » • وعلى هذا النحو فان التاريخ ، بحركته العامة ، يخضع للفكر الى درجة كبرى : انه ، بلا ريب ، « ارتكاس آلي تقوم به القوى الانسانية ضد

---

(١) Plutarque

كل تدبير اجتماعي عنيف غير مستقر » ، ولكنه كذلك « احتجاج مثالي ينهض به الضمير ضد الانظمة التي تحط من شأن الانسان » • فمن جهة اولى اذن « تطور ضروري » ومن جهة اخرى « توجيه معقول ومعنى مثالي » •

ويرفض (جوريس) ، من ناحيته ، ان يشرح بحوافز اقتصادية صرف الحوادث الكبرى مثل المسيحية أو الاصلاح الديني أو الثورة الفرنسية• انه يفسح لها منزلة كبرى ، ولا سيما في « التاريخ الاشتراكي للثورة الفرنسية » (١) ، ولكنه يرى في الوقت نفسه أثر « قوى التاريخ المعنوية الداخلية العميقة » • وهذه القوى تتمتع بما تتمتع به الحياة نفسها من عدم التقيد وهي تتشخص ــ في رأيه ــ في فرديات متميزة تميزاً استثنائياً بالذكاء أو بالشجاعة ، فرديات تبدع بعملها في زمنها ، وتبدع في الازمنة القادمة من حيث انها قدوة واسوة : وعلى هذا النحو يلتحق (جوريس) بركب عبادة البطل لدى (بلوتارك) ؛ والبطل في نظره هو من يحمل مقتضى مثالياً ويكشف عنه وليس كالبطل في نظر الماركسيين الصرف الذين يعتبرونه الوكيل الواعي الكريم الذي يضطلع بضرورة التاريخ • واليكم قولا أخيرا يحدد نزعة (جوريس) الى اضفاء صفة انسانية على التاريخ : « ان الثورة الاجتماعية لن تتم بقوة الاشياء وحسب ، بل بقوى الناس ، بطاقة الضمائر والارادات • وان التاريخ لا يعفي الناس أبداً من اليقظة الفردية والنبل الضروري »(١) •

ورب معترض يقول بأن ماركسياً « سنياً » مثل (اراغون) قد يرضى بهذه الصيغة وينادي بأعلى صوته مؤكداً هو أيضاً ضرورة اليقظة وأهمية النبل في (الثورة) • نعم • ولكن يكفي ان نضغط تفكير

---

(١) Histoire socialiste de la Révolution Française

(٢) انظر فيلسيان شاليه : جوريس Félicien Challaye; Jaurès, Mellotée, 1953

« جوريس » ضغطاً خفيفاً حتى ندرك انه يعتبر العامل الروحي عاملا مستقلا بذاته وانه يؤثر في التاريخ من غير ان ينجم عنه بالمعنى الصحيح. انه ينظر الى ضغط الحوادث الاقتصادية والآليات النفسية والسياسية التي تحدثه ويعتبر ذلك شرطاً ضرورياً لتجلي مفاهيم الفكر المحض في تضاعيف الحوادث . وبقول آخر ، لا بد من ظهور آليات تاريخية حتى تغدو الفكرة المحضة فكرة ــ قوة ، حتى يغدو مطلب الضمير ناجعاً فيحدث فعالا ويخلق أوضاعاً وينشيء قوانين وهذا لا يمنع ان يمثل مبدأ القوة واصل التوثب في الفكر . يقول (جوريس) : « ان نمو الفكر القديم بأسره مهدّ السبيل امام المسيحية من حيث أساسها الميتافيزيائي والاخلاقي ، ولكن تجسد فكر المتصوفين والفلاسفة في كيان البشرية استلزم حدوث الازمة الاجتماعية الكبرى في الامبراطورية الرومانية ، حدوث ألم العالم المهزوم ، وثورة في نفس المستضعفين الاذلاء الذين سحقتهم القوى الخارجية كلها سحقاً » . كانت هذه الفكرة اذن تحمل الحادث بالقوة ، على الرغم من انها تولد من فاعلية الفكر بصورة مستقلة عن ظروف التاريخ المادية ــ وعلى هذا النحو فان « الاشتراكية تنبثق عن الثورة الفرنسية بنتيجة تفاعل قوتين : قوة فكرة الحق ، وقوة عمل طبقة الكادحين في اول ظهورها » . ولا يصبح التفكير الاشتراكي قوة سياسية الا حين « تخلق الصناعة الكبرى طبقة « بروليتارية » يتزايد عددها باطراد ويزيد باطراد أيضاً اتساقها ووعيها » ، وهذا هو الجانب الضروري الحتمي في التاريخ ؛ ولكن وجب ان يوجــد أيضاً الفكر الاشتراكي وجوداً يسبق ذاك الضغط الذي يجعله ناجعاً ومبدعاً . ذكر (جوريس) بلهجة متعاظمــة في مقدمة كتابه « التاريخ الاشتراكي »: « كان المتصوف الاسكندراني الكبير يقول : « لقد رفعت الامواج الغالية قاربي ، فرأيت الشمس وهي تبزغ لحظة خروجها من أليم » . وكذلك ترفع أمواج الثورة الصاعدة قارب البشر فيحيّ الانسان ،

وهو الصياد البائس الذي سئم عمل الليل ، يحيي من علٍ بزوغ الفجر ، يحيي غرة الفكر الذي سيغمرنا ضوؤه » • وهذا يعني ان القوة التي تؤثر في الجماهير ، وتوقد نار الثورة الاشتراكية ، انما هي من جوهر روحي ينزع الى ان يتيح للانسان امتلاك ناصية حريته الفكرية التامة • وبذا يتوصل (جوريس) الى انقاذ نصيب الضمير الانساني في نموه المستقل داخل حركة التاريخ الجدلية كما يتوصل الى انقاذ وثبة الفكر الحر في نطاق عمل القوى المادية التي توجه الثورة • ومن الجـديـر بالملاحظة انه يفسر حرية الفكر من ناحية اخرى تفسيراً متفائلا : والظاهر انه لا يتوجس خيفة من احتمال ان تعمل هذه الحرية ضد الانسان ، أو تتدخل في مجرى التاريخ من أجل تزييفه •

هنا نرى مرتسم صورة « الاشتراكي الانساني » الذي يميل الى ان يتجسد سياسياً في أشكال الاشتراكية ـ الديمقراطية • وقد أمسى (ليون بلوم) (١) فيلسوف هذه الاشتراكية من الناحية النظرية ، ولا سيما في آثاره الاخيرة اذ يرجع صراحة الى تقاليد (جوريس) • يقول في كتابه « بالمقياس الانساني » (٢) : « لقد أمد (ماركس) ارادة الكفاح العمالي بأقوى المنشطات وأشدها عزاء وتشجيعاً ، اعني الاقتناع بأن حتمية التاريخ تعمل لصالحها • ولكن الحتمي ليس بالضرورة عادلا ، بل انه لا يرضي بالضرورة الفكر الانتقادي والضمير الاخلاقي • وقد اظهر (جوريس) آنذاك ان الثورة الاجتماعية لا تمثل النتيجة الحتمية للنظام الاقتصادي وحسب ، بل انها في الوقت ذاته نهاية مطلب سرمدي للعقل وللضمير الانساني » • ماذا يعني « المطلب السرمدي للعقل » ، ان لم يكن عمل العقل الذي يلقي في التاريخ بقوة لا تولد من التاريخ ؟ وكذا فان (هنري دي مان) (٣) يرى ان الثورة الاشتراكية تنشأ أول

(١) Léon Blum (٢) Al'Echelle humaine (٣) Henry de Man

ما تنشأ من افتراض موضوعة الضمير : « ان الاشتراكية تدين التخلق السائد باسم التخلق العام » ـــ انها اذن رفض وضع باسم مبـــدأ • ويعتقد (هنري دي مان) من ناحية اخرى ان الحوافز التأملية السخية تعظم كلما زاد تقدم الضمير الاشتراكي ونقص المجال الذي يفسحه أمام حوافز المصلحة وشواحذها الاولى : « وتشير القرائن جميعاً الى افتراض ان النظرية المادية الماركسية التي تبرّر الاشتراكية بعامل المصلحةالطبقية قد غدت غير مستعملة وان المذاهب الاشتراكية ستستجيب في المستقبل القريب لجريان تيار العصر وتستعيض بالتدريج عن النظريات المادية بنظريات طاقة ـــ نفسية » ـــ وهذا الطراز من القول المتعالم قليلا انما يعني ان حافز التقدم الثوري سيكون شيئاً بعد شيء هو الفكر الناهض بحرية مبدعة ، وسيزداد بالتدريج انحطاط ذاك الشكل من الضمـــير السلبي المنحط الذي يرتكس ارتكاساً آلياً حيال وضع معطى •

ومن النافع ان تتذكر هنا فقرة من « الشرط الانساني » [١] حيث يفضح (مالرو) ابهام الفكر الماركسي تجاه التاريخ • يتحدث (كيو)[٢] قائلا : « في الماركسية منحى حتمية وتمجيد ارادة • وانني اسيء الظن دائماً كلما تقدمت الحتمية على الارادة » • ويمكن ان نراهن بوثوق على ان كل ثوري يتجلى في ضميره هذا التعارض لا بد وان يخلص من الشيوعية عاجلا أو آجلا : فاما ان يرضخ ويجد في الاشتراكيـــة ـــ الديمقراطية صيغة تركيبية تؤلف من المذهب الانساني المتحرر وبين المادية الجدلية ؛ واما ان يبحث عن دربه « فيما وراء الماركسية » وينتهي بالدوران حول الفاشية ؛ واما ان يستسلم لتيار الابداعية الفوضوية •

الجـــدل والفاجعـــة

تشتمل الماركسية على نظرة الى التاريخ متفائلة بالدرجة الاولى •

---

(١) La Condition Humaine (٢) Kyo

ويشرح (يسبرز) [1] ذلك بقوله :

« يرى (ماركس) ان التاريخ كل ؛ وان ثمة في البدء حالا ابتدائية عرف فيها الانسان مجتمعاً بلا عنف ولا تفاوت ؛ ولكن وعيه بذلك كان وعياً غامضاً • وكان التاريخ من قبل ان تنمو الـ « تقنية بأي وجه من الوجوه ، كان يسير نحو هذه الخطيئة الاصلية التي تنشأ عن تقسيم العمل ، وعن الملكية الخاصة وعن تمايز الطبقات وتوصل التاريخ أخيراً الى تقدم جبار في المعرفة وفي الوسائل • وقد غدا هذا النماء مذهلا في العصر البرجوازي الذي عرف ازدهار الـ « تقنية » الحديثة • ويرى (ماركس) ان مجرى الامور ينبغي ان يعود بنا أخيراً الى مجتمع يتساوى فيه الناس قاطبة ويزول العنف — ومن ثم الدول — ويزدهر فيه انطلاق الانتاج الانساني الحر » •

تلك هي رؤي (ماركس) الاخيرة وقد لخصت أفضل تلخيص ومن شأنها انها تطمئن الانسان : انها تدعوه الى الاعتقاد بأن مستقبل النوع البشري مضمون ، وان هذا النوع سيتبع مجرى نهر يتجه شطر حال أفضل ، شطر « خلاص » زمني • وهذا جد معلوم • ولكننا قد لا نلاحظ على قدر كاف — أو اننا قد نغفل القول — بأن الماركسيةوهي متفائلة تفاؤلا تاماً في اعتبار غايات التاريخ ، انما يقل تفاؤلها الى حد كبير من حيث اعتبار الوسائل •

ومن المناسب ان نرجع الطرف هنا الى المذهب الانساني • ذلك ان المؤمن بهذا المذهب حين يبلغ مستوى من مستويات الاطلاع والذكاء لا يجهل وجود التناقض في شرط الوجود الانساني ؛ وهو يعلم ان

---

(1) العقل واللاعقل في زماننا — ترجمة هيلين نايف .

Jaspers : Raison et Déraison de notre Temps, Traduction Hélène Naef, Desclé de Brouwer, 1953.

التاريخ تعاقب موصول من الخصومات ؛ ولكنه يؤمن بعدالة العقل وبنجوع الفكر ، ولذا يجنح الى التفكير بأن كل مباينة يمكن ان تحل بالذكاء قبل ان تحلها الحوادث ، وان في وسع نظام نظري ان يغدو دائماً نظاماً عمليا . وبتعبير آخر : من شأن الانسان انه يقدر بفكره على ان يحلل وضعاً من الاوضاع المعطاة ، ويعي تبايناته ويجد صيغة توفيقية يمكن تطبيقها عملياً ومن غير ما اصطدام . الصراع ، باعتبار ما ، صراع باطني داخل الفكر وصراع باطني داخل العالم ، وان كل اتساق في الذكاء هو ، من ناحية اخرى ، اتساق يمكن تطبيقه في التاريخ . وهذه القناعة التي تحايث المذهب الانساني تفسر جنوح المفكرين السياسيين أو النظريين المنتمين الى هذا المذهب الى انهم يرجحون دائماً جانب الوسائل السلمية على جانب الحلول العنيفة القاهرة ، ويرجحون كفة المناقشة في المجالس أو المحافل ووسائل المصالحة وطرق الاصلاح سواء في مستوى السياسة الدولية حيث يودون خلق منظمات الامم والحق الدولي أو على مستوى السياسة الاجتماعية حيث يتحدثون عندئذ عن « ثورة بالقانون » وعن مواثيق جمعية وتنظيمات مهنية الخ .. ومثل هذا الاستعداد وهذا النحو من اختيار الوسائل التاريخية يفترضان الثقة الكبرى بالفكر والايمان بأن في وسعه ان يبلغ درجة من القوة تمكنه من ان يفرض اراءه المعتدلة على الحوادث وعلى صور الاشياء حتى يخلق النظام بلا عنف ويكفل التقدم بلا صراع . بيد ان هذا عينه مالا تقره الماركسية على الاطلاق . فالماركسية ترى ان التاريخ نسيج خصومات مبدعة لا يمكن اجتنابها وان للعنف فيه عملا ضرورياً . وفي الحوادث يتحقق انحلال الاضداد ، ولا يجاوز الفكر دور الوعي بضرورة جدلية والتنبؤ بحل الفاجعة والاسراع في حركة ايقاعها وتسويغ مراحل الحرب والارهاب تسويغاً لاحقاً بحدوثها .

من الملاحظ ان الاشتراكي الانساني يحتج في هذه النقطة على هذا النوع من استقالة الفكر حيال المفجع ، وعلى هذا الضرب من استقالة الحرية ازاء المحتوم ويسعى الى اللحاق بركب التفاؤل المطلق . وهنا أيضاً يطالعنا (جوريس) ونجد ان من النافع ان نقتبس فقرة طويلة من كتابه « مشكلات الطريقة »[1] :

« ان ماركس » يتصور حركة الاستقلال الحديث في إهاب تحول المسيحية تحولا هجلياً . فكما انحنى الاله المسيحي الى ما تحت الانسانية المعذبة ليرقى بالانسانية جمعاء ، كما وجب على (المخلص) ان ينحل الى هذه الدرجة من العوز التي تتاخم الحيوانية والتي لا يمكن ان نلفى دونها أي انسان وذلك لانقاذ البشر جميعاً في الواقع ، وكما ان الله بانحداره اللانهائي على هذا الوجه كان شرط ارتقاء الانسان رقياً لا نهائياً فان الطبقة الكادحة في الجدل الماركسي ، هذا (المخلص) الحديث ، لا بد وان تتجرد عن كل ما يكفلها وتتعرى عن كل حق من الحقوق وتنحدر الى أعمق عدم تاريخي واجتماعي كيما ترقى برقيها الانسانية باسرها . وكما وجب على الاله ـــ الانسان ان يظل فقيراً متألماً ذليلا ليبقى في ميدان رسالته الى يوم القيامة والنصر ، الى هذا النصر الخاص على الموت الذي حرر الانسانية بأسرها من الموت ، كذلك تظل الطبقة الكادحة أحسن ما تظل في حلبة رسالتها الجدلية ما دامت تحمل الى حين تمردها الاخير ، الى البعث الثوري للانسانية ، تحمل كما يتحمل صليب يزيد ثقله باطراد ناموس اضطهاد الرأسمالية وانحطاطها . ومن هنا تنشأ بلا ريب نزعة (ماركس) الاصيلة الرامية الى التشدد في ألا يقبل فكرة نهوض الطبقة الكادحة نهوضاً جزئياً . ومن هنا هـــذا النوع من الفرح المشتمل على ضرب من الصوفية الجدلية ، الفرح

---

(١) Questions de Méthode .

بمشاهدة القوى الساحقة التي ترين على الكادحين » .

لنلاحظ في هذه الاثناء ان (جوريس) يدرك جيداً كيف قلبت الماركسية اللاهوت المسيحي واضفت عليه صبغة العلمانية . ولكن المهم هو ان نلاحظ هنا بوجه خاص فضح هذا النوع من سياسة الاسوأ ، السياسة المألوفة لدى الاحزاب الماركسية المحضة : فمن الحقيقي تماماً ان هذه الاحزاب ترفض يسر المذهب الاصلاحي وترقب شيئاً أكثر من وضع بلغ درجة الازمة القصوى فهي تلعب لعبة الكارثة المبدعة . تلك هي في الحق وجهة نظر (ماركس) وان (جوريس) ليرى ان (ماركس) يضل في هذه الناحية ايما ضلال . انه وارث تقاليد المذهب الانساني التحرري الاشتراكي ، وهو ينزع الى طرد التصور المفجع لتقدم التاريخ عن طريق المعركة ، وانحلال الاضداد بالعنف ، ويفضل الصيغة المتفائلة لتطور سلمي يتم أولا في الفكر بجهد التوفيق المنطقي ، ثم ينجز في الحوادث بتكيف البنيات بالتدريج . وهذه الطريقة التي تنقل الجدل من مستوى الحوادث ، حيث تتجلى في صراع وحشي بين المنافع ، واضطرام عاطفي وحرب محتومة ، الى مستوى الفكر حيث هي انتقال ومصالحة ونقاش ودي ، انها تستجيب بجلاء لحاجة حذف الجـانب المفجع في (الماركسية) ، حتى تنضوي على الدرب القومي (للتقدم)، تحت علم واثق مطمئن ، هو علم (الحرية) ، وتلحق بركب المذهب العقلي المتفائل الذي ذاع في القرنين الماضيين ؛ ولا ريب في ان ذلك يمثل خط انفصال مهم بين الاشتراكية ــ الديمقراطية وبين الشيوعية .

والحق ان من الجائز ان ندرك بصورة مباشرة نتائج قبول ثقـة المذهب الانساني في المجال السياسي . فلقد ساقت (جوريس) الى الاعتقاد بأن « الطبقة الكادحة لن تصل الى الحكم عن طريق الاضطرابات السياسية المباغتة الارتكاسية وانما بتنظيم قواها الخاصة تنظيماً منهجياً مشروعاً في ظل الديمقراطية والتصويت العام » . وكذا فانه لا يتخيل

ان يكون في وسع الطبقة الكادحة حين انتصارها ان تذهب الى تعليق الديمقراطية من حيث هي نظام يكفل حرية الاشخاص • يقول أيضاً : « ان الطبقة التي تنشأ من الديمقراطية وتستعيض عن الانتظام في ظـل قانونها الديمقراطي بالمضي في الديكتاتورية الى ما وراء اوائل ايـام (الثورة) انما تتحول سريعاً الى عصابة تحتـل ارض البلاد لتعبث بثرواتها » • وقد وجد مثل هذا الاساس المتفائل الذي ينطوي على مثل هذا الاهتمام بالاعتدال وبالصيغة الشرعية لدى (ليون بلوم) عندما تحدث في كتابه « بالمقياس الانساني » قائلا : « ان للتقدم البشري قوة لا يمكن ضغطها • فلا يمكن ان يدوم شيء اقامه العنف وابقى عليـه الاكراه ، شيء يحط من الانسانية ويستند الى امتهان شخص الانسان » وقد ذكر أيضاً : « لا يمكن اخماد الحقد بالحقد ولا العنف بالعنف ••• وان الغلو في القوة يخلق مشيئة الانتقام ويمنع الزمن من اخماد ناره واطفاء أواره • وستتيح له صدف التاريخ في العاجل أو الاجل فرصاً لم تكن مرتقبة » • ويذهب (ليون بلوم) آخر الأمر الى ان « مرحلة المناظرة قد انتهت » بالنسبة للاشتراكية ، وان في وسع هذه الاشتراكية ان تنتقل من « مرحلة الكفاح الى مرحلة النصر » • وعلى هـذا فان التفاؤل الاشتراكي لا يمثل بالضرورة في انتظار خاتمة سعيدة وحسب ، بل في الوثوق أيضاً ببلوغها بوسائل سلمية وشرعية • وبذا يتم اجلاء الاثر المفجع من النظرة الماركسية الى التاريخ ، ـ وقد بلغ هذا الاجلاء شأوا يجعل المرء يتساءل عما اذا كان ذلك لا يقدح في النهاية بضرب من ضروب الواقعية التاريخية •

عطـالة (انتيغون) (١)

عندما يتفق للماركسيين الخلّص ، للمفكرين الشيوعيين ، وعي

(١) Antigone

الجانب المفجع في فلسفتهم يشعرون هم أنفسهم بحاجة القضاء عليه ولكن بوسائل مغايرة كل المغايرة • فهم لا يقدرون على التردد في الاعتراف بأن التاريخ مؤلف من سلسلة تناقضات متعاقبة قد تنحل الى حدود الكفاح والعنف ومن ثم الآلام ، اذا شاؤوا الحفاظ على جوهر مذهبهم ورفضوا التنكر له • ولكنهم يستطيعون دائماً الالحاف على الصوفية الماركسية وعلى رؤاها الاخيرة ليزينوا الامل العظيم الذي يلمع في السماء ويبشر بحلول نظام جميل سيغدو فيه شرط الوجود الانساني شرطاً سعيداً كاملا • ولئن استلزم بلوغ ذلك الانتقال عبر مراحل كفاح وألم ، فان هذه المراحل بلا ريب ليست سوى ضرورة موقوتة سوف تنتهي الى حال زوال التناقض في وجود الانسان على الارض ويغدو كل عنف بلا جدوى ويتم أخيراً تجاوز المفجع الى غير رجعة •

هكذا بدت الامور لـ (اندره بونار) [1] استاذ الادب الاغريقي في جامعة (لوزان) • فقد ذكر في مقدمة ترجمته لـ (انتيغون) : « ان حل (انتيغون) يشعرنا بلذة تخترقنا وبها يعدنا هذا الحل بما بدأ يبزغ في نفوسنا : وعد بظهور عالم لن يكون التعذيب فيه مصير (انتيغون) ولن يضطر أي (كريون) [2] الى اليأس ، لان الناس سيتغلبون على الشياطين الكئيبة بممارستهم الطبيعية لهذا الحب الذي شهدته (انتيغون) » • وفي كتاب « المأساة والانسان » [3] يرجع الى المشكلة ذاتها ويقول : « اننا نعلم أيضا ــ والحبور يملأ شغاف قلوبنا ــ ان كان من الجائز انقاذ (انتيغون) ، وان (انتيغون) اخرى ــ هي نحن ــ قد تنقذ ذات يوم » • وعلى هذا فان المأساة الاغريقية ليست ذات قيمة

(١) André Bonard (٢) Créon (٣) La Tragédie et l'Homme

سرمدية في نظر عالم (هلنستي) ماركسي : فهي قد تفجرت « في شباب الانسانية تفجر عاصفة هوجاء » ؛ ولن تتخطى بأي معنى في نظر الانسان الذي تحرر من خوفه وقيوده ؛ « اذا كان المجتمع الراهن لا يزال خاضعاً لضغط قوى مفجعة ولا يقدر إلا أن يسحق أمثال (انتيغون) ، فان وجود مثيلاتها يؤلف على وجه الدقة وعداً ومطلباً بمجتمع جديد أعيد صنعه على مقياس حرية الانسان ، مجتمع لن تكون فيه الدولة التي تسير في طريق الانحلال الا كافل الحريات المزدهرة » • ليكن ! ولنقبل فكرة مدينة لن يعادي فيها (كريون) (انتيغون) أبداً • ويبقى السؤال الآتي : باسم من تتكلم ؟ أما ان يأتي وقت في المستقبل سيكون الاحتجاج فيه غير مجد ولا نافع فان ذلك لا يفسر البتة انها ما زالت تضطر الى اطلاق صرخة حب وعدالة تناقض قوانين المدينة في حال وضع تاريخي معطى • انها لم تستوح هذه الصرخة من التاريخ لانها صرخة ترجع صراحة الى قانون انساني غير مكتوب • أليست ترمز بالدرجة الاولى الى استقلال الفكر المبدع استقلالا ذاتياً حيال مجرى الاشياء والى الكمال الاخلاقي الذي يتم بوثوب الروح وثبة كريمة حرة خارج حدود الزمان ؟ وهل يمكن حقاً ان نتوقع من جهة اخرى ظهور حال انسانية تحل فيها خصومات القانون الاجتماعي والضمير الشخصي على نحو جد حسن يجعل علماء الآثار وحدهم قادرين على فهم الفاجعة في المستقبل ؟ هل سيأتي وقت تمّحي فيه البطولة وتصبح أثراً بعد عين ؟ اننا لا نجرؤ على الاعتقاد بذلك ، وان شيئاً ما في أعمق اعماقنا يمنعنا من عقد الامل عليه •

وفي هذه الاثناء لا يزال عصر الحرب قائماً ولا يزال على البطل ان يرفع عقيرته ويحقق اعماله • غير ان من واجبه في الجو الماركسي ان يبدل اسلوبه : فعوضاً عن معارضة قوى التاريخ بمطالب الفكر يترتب

عليه ان يخدم هذه القوى ذاتها ويدعمها بقبوله اياها ما دامت قوى ثورية ، ماركسية ـ لينينية ، ما دام خلاص الانسان والحقيقة المطلقة انما يقعان على هذا المنحدر . وقد انتهى (اندره بونار) الى امتداح شجاعة الانسان السوفياتي الذي يرفض ان يضل في متاهات ضميره الخاص ويرضى بالوسائل الناجعة حتى ولو كانت وسائل قاسية فقال:[1]

« ان قتل المرء فلاحي قريته ، اولئك الذين يحبهم ، واعدامه الذين اساؤوا الى خير المجموع بسائق المنفعة أو الخبث او الضعف : انه عمل مثالي من أعمال الشجاعة لان الامر لا يتصل عندئذ بالانسان نفسه ولا بمن يحب بل يتصل بمنح حياة البشر في الغد معنى لا تملكه من قبل » . استدلال منطقي ، ولكنه لا يحتاج الى تبديل كبير لكي يسوّغ قسوة (كريون) وعنفه الملكي والبوليسي : يكفي ان تنجب (الثورة) المنتصرة (دولة) حتى يدخل البطل في إهاب المفوّض ، وتترتب على المثقف الموافقة والتحبيذ . والحق ان التوفيق بين الحكمة الاغريقية وبين الاخلاق الماركسية ليس بالامر السهل اليسير ؛ ونحن نفهم على وجه أفضل التوفيق الذي سعى اليه (البير كامو) في « الانسان المتمرد »[2] حين حاول التأليف بين ثقافة الحوض المتوسط وبين المثالية الانسانية . وعلى الرغم من ذلك فان (اندره بونار) يزعم انه يجد في الادب السوفياتي استمراراً رائعاً لـ (هيلنية) : يتساءل قائلا : « هلاّ يوجد في العالم الحديث ادب يقترح في عصرنا نظرة الى الانسان تستطيع بدورها ، كما استطاع المذهب الانساني الاغريقي ، ان تزيد قدرتنا وتغذي فكرنا وعملنا » ، ولا يرتاب أبداً في انه عثر على ذلك الادب

---

(1) نحو مذهب انساني جديد ـ الرابطة السويسرية ـ السوفياتية .
Vers un Humanisme Nonveau, Assdciation Suisse - U. R. S. S., 1948

(2) L'Homme Révolté

في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، وهناك وحسب . وعنده ان الشعر السوفياتي الذي انتقل « من الرمزية الى الواقعية الغنائية » انما يلتحق « بأعظم الفضائل المدرسية : الوضوح » ، ويلتقي بالافكار الرئيسية في المذهب الانساني الخالد . انه يعجب بالواقعية الاشتراكية التي ترسم علاقات الفرد الحيوية بمجتمع لذاته ، كما كان الادب الاغريقي دائماً يعبر عن روح المدنية ولا يخلو البتة من ربط الانسان بالانسانية . ولا ريب في ان من الجائز القيام بهذا التقريب ، ولكن هل نبلغ به صميم الاشياء ؟ ان بوناً لا يمكن حذفه سيظل ماثلا دائماً بين المذهب الانساني الاغريقي وبين المذهب الانساني السوفياتي . الاول يضع في منزلة الصدارة تأمل (الحقيقة) الثابتة المطلقة ، لا الحقيقة التاريخية ، ويرى ان التأمل اسمى رسالة انسانية : وان الصانع والمهندس والعبد كل اولئك محرومون من الجدارة العليا وهي جدارة معرفة (الجميل) و (الخير) و (الحق) واجلالها ؛ بل ان الفن السياسي ذاته لا يتميز عن خدمة الفكر ؛ وما اتساق المدينة الا ترصيع زماني لنظام يتقيد بقانون سرمدي . اما المذهب الانساني السوفياتي فانه على العكس مذهب صانع بالدرجة الاولى ؛ انه يرفض قيم التأمل ويقر قيم العمل ؛ وهو يحكم على (الخير) و (الحق) بالاضافة الى وضع في التاريخ ، الى مقصد نجوع . واذ يعلن (فادييف) (١) ، امين « رابطة الكتّاب في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » « ان الانسان الحر هو الانسان الذي يقول الحقيقة » فان المسيحيين وانصار المذهب الانساني يشاطرونه ايمانه تماماً . ولا ريب في أن من المتعذر مخالفة ذلك الا لدى نفر من الوجوديين الطائشين الذين ينكرون الحقيقة الموضوعية ويقولون

---

(١) Fadelèv

بحرية اعتباطية كأنها تتحقق بالكذب • ولكن الفارق الرئيسي بين المسيحيين والانسانيين من جهة ، وبين الشيوعيين من جهة اخرى ، يظل دائماً فارقاً يمثل في ان الحقيقة في نظر الاولين تتعالى على التاريخ وان الفكر هو الذي يستبينها ، بينما يرى الآخرون ان الحقيقة حقيقة تاريخية وسياسية تطابق فكرة ما عن معنى التاريخ ، وتوائم القوى التي تتجه في هذا الاتجاه • وهنا يثوي خطر المذهب •

من طريف أسرار التجسد

هناك نقطة رئيسية يجدر ذكرها لدى مفكري الشيوعية وهي ان الماركسية لم تبق فلسفة نظرية وانما يجب اعتبارها مذهباً سياسياً متحققاً حاضراً : وقد طُرح بصورة اعتقادية الرأي القائل بأن منحى التاريخ يمثل في تأمين انتصار (الثورة) التي انتصرت من قبل في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، وان يكون انتصارها القادم انتصاراً شاملا نهائياً • ولذا يغدو من باب الدخول في مناقشة مدرسية نافلة بالية السعي الى تعريف فلسفة تاريخ ماركسية ونقدها : وان المسائل المستعجلة المهمة التي يجدر طرحها انما هي تلك التي تظهر للفكر عندما تتجسد الماركسية في الوقائع وتصبح حادثاً من الحوادث ، عندما تطابق فلسفة التاريخ الماركسية التجربة الشيوعية في التاريخ • من البديهي مثلا ان تعريف الحرية بالخضوع للضرورة الجدلية يثير صعوبات خاصة عندما تعرّف هذه الضرورة على نحو مشخص بأنها سياسة حزب ما ، وشعارات دولية تصدر عن بلد من البلدان بدل تعريفها تعريفاً مجرداً على انها صورة منطقية مختزلة • ومن البديهي أيضا ان للوجه المفجع في الشيوعية ألواناً اخرى حسبما نعتبره في تحليل مفهوم الصراع الطبقي تحليلا مجرداً أو حسبما ننظر

اليه نظرة مشخصة على ضوء محاكمات (موسكو) و (صوفيا) أو (براغ) • ولا يضطلع الكتّاب الشيوعيون أبداً بمثل هذا التمييز ، وهم يقبلون قبولا تاماً فكرة نوع من أنواع التقيد المطمئن كما يقبلون فكرة تقدم محتوم شطر المجتمع اللاطبقي ، بل ويقبلون أيضاً الايمان بمذهب سياسة راهنة ، بتجسد فكر الحقيقة في نظام وفي حزب •

يرى (اراغون) ان الحزب الشيوعي عقـائدية منتصرة ؛ وان « الطبقة الكادحة لا تظل بفضله ذاك الطفل الذي لم يكن في وسعه الا ان يموت وهو ينشد فوق المتاريس ، بل صارت طبقة الامل ، الطبقة التي تصنع لذاتها اخلاق المنتصرين لانها واثقة بالنصر حتى في وسط الصعاب التي تميت الناس » • وقد كتب عندما هتدي (جان ريشار بلوخ) واعتنق الشيوعية قائلا : « لا ريب في ان على (جان ريشار بلوخ) ان يعيد النظر في ارائه من الناحية العملية ، لا على محك الحقيقة المجردة وحده ، بل على ضوء (لينين) و (ستالين) وعلى ضوء التاريخ وبالتجاوب مع شعبه » • وهذه الجملة المهمـة تؤلف في الاعراب عن حقيقة معصومة واحـدة بين فكر (لينين) و (ستالين) وبين نور التاريخ وغريزة الشعب من حيث انه يتجـه صوب الشيوعية • وقد أعلن (جان ريشار بلوخ) من اذاعة (موسكو) في السادس عشر من أيار ١٩٤٢ قائلا : « لم يبق (الخير) أعزل اليوم بفضل (موسكو) ، وان الجيش الاحمر ليقاتل في سبيله ولا يدعـه وحيداً » ـ ويعلق (اراغون) على ذلك بقوله : « لقد ادرت هـذه الجملة في فمي كما ادير الحصاة • اليوم : هذا يعني فيما يبدو : اليوم على خلاف الحرب الماضية • اذن كان (الخير) أعزل في الحرب الماضية التي كان فيها (بلوخ) برتبة ملازم ، ولكنه لم يبق أعزل لان التاريخ قد فك في غضون ذلك لغز العادل وغير العادل » • فعوضاً عن تعريف

(الخير) بأنه قيمة مجردة من قيم الفكر فان مفهومه أصبح يجاوز من حيث الدقة المشخصة مفهوم حركةحتمية توجه التاريخ شطر المجتمع اللاطبقي : ذالك ان (الخير) يتعرّف ، تاريخياً ، بأنه السبب الشيوعي المتجسد في سلطة سياسية وعسكرية هي سلطة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية .

وربما بدا مثل هذا الموقف الفكري ازاء التاريخ موقفاً واقعياً تماماً في الظاهر : وان اتجاه الحوادث مرسوم رسماً بيناً ، يسوّغه بآن واحد منطق الاشياء وقبول الارادة العاقلة . غير ان هذا الموقف ينطوي في الحق على مثالية رئيسية .

هناك اولا نداء للكرم وللعواطف الجميلة والغرائز الاخلاقية بالمعنى الذائع تماماً . ولعل من السهل ان نستبين رجوع الكتّاب الشيوعيين الى التقاليد (الكورنيلية) . يرى (اراغون) ان الابطال يصنعون التاريخ ، وان لكل زمان ابطاله ، وهم جميعاً ابطال لا غنى عنهم : ابطال اناشيد الحركات ، ابطال البرجوازية الذين غزوا السلطة وغزوا المال . اما البطل في الوقت الحاضر فانه المناضل الشيوعي ، وهو أسمى من سائر الابطال كما ان « البروليتاريا » اسمى اخلاقياً من كل ما سواها : اننا نقرأ في « الانسان الشيوعي »[1] : « ان البطل الحديث سيكون بطل الطليعة الجديدة ، ولئن كان لهذه الطليعة ، « البروليتاريا » ، صفات طبقة مثل طبقة البرجوازية أو الطبقة الاقطاعية ، فانها طبقة تختلف عن سائر الطبقات التي سبقتها لانها تحمل في وجودها ، من حيث هي طبقة ، اداة السيطرة الطبقية ، وهي الاعلان المبدع عن زوال الطبقات المتصارعة في كفاحها ذاته ضد البرجوازية » . أي ان المناضل الشيوعي يبدو انقى ابطال التاريخ وأكثرهم تجرداً وبراءة :

---

(١) L'Homme communiste

« على نقيض الابطـال الاشباح الـذين أوكل اليهم تبرير مشاريع البرجوازية فان للـ « بروليتاريا » اليوم ابطالها الحقيقيـين الذين يتسمون بسمة مزدوجة هي انهم تعبير عن لحظة من لحظات التاريـخ مثل (رولان) [1] و (روبنسون) [2] أو (راستينياك) [3] ولكنهم في الوقت ذاته أشبه بتراكم أفضل ما ملكت الانسانية ، وانهم ليسوا ابطالا في نظرنا اليوم وحسب ، بل انهم ابطال بالنسبة الى الماضي وبالنسبة الى المستقبل » وعلى هذا النحو فان البطل « البولشفيكي » هو أيضاً « بطل النصر الانساني الاخير » على حد تعبيرهم • ولا تحتاج « البروليتاريا » الفرنسية ، و « هي أول من نهض في العالم كقوة منظمة » ، الى ان تغبط « البروليتاريا » في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية على شيء لانها انتجت في مجالها الخاص صورة عن ذاتها تجسد القوة ، والحكمة ، ومصير هذه الطبقة التي هي من نمط جديد ، صورة تتجسد في انسان ، في بطل من نموذج جديد ، بطل حقيقي ، (موريس توريز) [4] ، وهـذه الصورة أفضـل من صـورة (رولان) ابان سيـادة الاقطـاع أو من صورة (نابليون) الـذي نهض على انقـاض (الباستيـل) • ذلك ان (مـوريس توريز) ، رئيس الحزب ، (والذي سيظل خلال زمن طويل رئيساً له بالحفاظ على ثقة الاسياد) ، سيجسد حقيقة (الثورة) ومعنى التاريخ ، وسيفيد من بعده ابطال آخرون من النور ذاته ، وسيحملون الهالة ذاتها ، وسيسيرون معاً على رأس فروسية اليوم : الحزب الشيوعي : كتب (كلود روا) يقول [5] : « ان الفرسان في عصرنا لا يملكون

---

(١) Roland (٢) Robinson (٣) Rastignac (٤) Maurice Thorez

(٥) (اراغون) : سلسلة : « شعراء اليوم » •
Aragon, Seghers, Coll. « Poètes d'Aujourd'hui »,1951

شعارات النبالة ، ولكنهم يتحلون بمعنى الشرف ؛ انهم لا يزهـون بالزينة بل يتذوقون الاخاء ، ويتعمقون محبة الناس ؛ وهم لا يحتمون وراء ترس الا ترس الذكاء المشحوذ والوفاء لذويهم . انهم (فلوريمون بونت)[1] و (ايتين فاون)[2] واضرابهما » . واذ يسأل المجند (باربنتون) [3] في كتاب « الشيوعيون » (موريس توريز) عما اذا كان ثمة توجيهاً ينبغي اتباعه ، يبادر (اراغون) فيعزو اليه الاجابة الآتية : « ليس ثمة شيء خاص . كن الافضل في كل شيء . افعل ما يمليه عليك ضميرك كشيوعي وكفرنسي » . كشيوعي أولا بالطبع، شأنه في ذلك شأن مرشحين آخرين للفروسية دأبهم ان ينشدوا قائلين: كاثوليك وفرنسيون دائماً ! بيد أن من الثابت أخيراً ان هناك نزعة تحرص على ان توكل مناصب قيادة الامة وتوجيه التاريخ الى نخبة مثالية ، الى اخوة ابطال قد يغدون شهداء عند الاقتضاء .

ولا تقل عن هذه النزعة وضوحاً نزعة اخرى نلفاها لدى اكابر المفكرين الشيوعيين اليوم ، ولا سيما منذ ان عظم جاه الحزب واشتد تأثيره بنتيجة اسهامه في حركة (المقاومة) ، وهذه النزعة ترمي الى اللحاق بالوطنية على انها الشكل المثالي التقليدي . ويرى (اراغون) ان (توريز) هو استاذ ذو طاقة قومية كما انه رئيس ثورة : فقد اراد التوفيق بين (النشيد الدولي) [4] و (المارسيليز) وأوكل الى الطبقة العمالية مهمة الحفاظ على تراث الامة الروحي والثقافي : « ان هذا الحزب ، حزب (موريس توريز) ، هو حزب الطبقة الوحيدة التي تستطيع بعد الآن توجيه الامة من غير ان تلتفت الى غير مصلحة الامة». وان مؤلف « ديانا الفرنسية » [5] لا يمجدّ حزبه لانه وهبه معنى

---

(١) Florimond Bonte (٢) Etienne Fajon (٣) Barbenton

(٤) L'Internationale (٥) Diane Française

الملحمة وحسب ، بل وحب العلم المثلث الالوان أيضاً :

لقد ارجع الى حزبي عيوني وحافظتي
ولم أك لاعرف شيئاً مما يعرفه طفل
سوى ان دمي جد احمر وقلبي فرنسي جداً ...

والثابت اننا لا نستطيع فيما اعتقد ان نرتاب في صدق (اراغون) عندما يهز أوتار الوطنية بشعره أو بنثره : ذلك انه يستمد الهامه الصريح الواثق اول ما يستمده من العواطف البسيطة الكبرى ، من التعاطف مع الاندفاعات الغريزية للروح الشعبية . وهو لا يتطوع في « الغصة » (١) وفي « عيون الزا » (٢) من اجل ان يكون (ديروليد المقاومة (٣) و (بول جيرالدي الثورة) بسائق التقشف الثوري وحده ولا عن طريق الدعاوة وانما بدافع حاجة القلب والذوق .

ونحن نجانب الصواب ان آخذناه بقولنا اننا نحتاج بعد (هوغو) الى ظهور شاعر شعبي عظيم . والحق ان من الاجدر بنا ألا نفكر بـ (هوغو) الذي لا يشاطره النفحة ولا التمكن من عمود الشعر (٤) ، بل ان نفكر بـ (بريفرت) (٥) صاحب العقائدية ، ولئن كانت

---

(١) Crèvecœur   (٢) Les Yeux d'Elsa

(٣) Déroulède de la Résistance   (٤) Paul Géraldy de La Révolution

(٤) يجرؤ (اراغون) على ان يقرض الرباعية الآتية في قصيدة عنوانها « المؤامرة » Le Complot ليحتج على التدابير البوليسية التي اتخذها وزراء برجوازيون تجاه رؤساء شيوعيين :

ثابت أن لا شيء يعدل التحريض
عندما يمكن تغليفه بغلاف السلطة الشرعية
الجريمة فضيلة ، والفضيلة تمسي اثماً
على الرغم من مخالفة الدساتير .

ونحن مضطرون ، على الرغم من حذف التنقيط وهو التراث الوحيد الذي يظل (اراغون) متمسكاً به من اصول الشعر فوق الواقعي ، مضطرون الى الانتباه الى ان اسلوب الهجاء السياسي لم يتقدم بعد كتاب « الجزاء » Les Chatiments

(٥) Prévert

النتيجة الادبية تخيب الرجاء أحياناً فان عفوية اللهجة عفوية مؤثرة • والامر الذي يتسع لمناقشة أوسع هو الفحوى الحقيقية في هذه الوطنية الجدلية كما يتجلى تحليلها مثلا في « الشيوعيون » • ذلك ان اشخاص (اراغون) يستخدمون على طريقتهم مفهوماً خطراً هو مفهوم « فرنسة الحقيقية » : وهذا المفهوم يختلف في الواقع عن مفهوم الشريف القروي من (الغرب) وهو لا يرضى ان تكون (فرنسة) سوى كاثوليكية وملكية ، وعن مفهوم المنتمين الى رابطة أقصى اليمين التي تطرد اليهود والماسونيين ، وعن مفهوم البرجوازي الجذري على الطراز القديم وهو يعتبر ان (فرنسه) تبدأ بـ (فولتير) ولا تخرج عن اطار مؤتمرات « عصبة حقوق الانسان » [1] • أما الوطني الشيوعي فانه يقول كذلك بـ « فرنسة حقيقية » ويرى انها بالضرورة هي التي تطابق مصالحها مصالح اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية وان أفضل مكان نلفى فيه اوضح شرح لهذا الضرب من الشعور الوطني المبهم انما هو فقرة من « الشيوعيون » حيث يبين الاستاذ (كورمي) [2] من الناحية المذهبية الخالصة رأيه في ميثاق (هتلر — روبنتروب) لاحد المؤيدين الذين سمحوا لانفسهم فاعجبوا به : « من المحال افهامه هذه الفكرة الجريئة التي كان (كورمي) يتمسك بها : انه اذا كانت المصلحة الفرنسية لا تطابق بالظاهر المصلحة السوفياتية ••• — رفع (بيين) [3] يده قائلا: بالظاهر ، أي فيما اذا كان من الجائز ألا نرى كيف ، في الواقع ، تطابقها ••• ، وجب اعتبار المسألة برمتها جدلياً ، أي كشيء متحرك لاسكوني ••• » • هنا تكتسب فرضية التقيد التاريخي مزيداً من الدقة والمطلب : ان الحوادث لا تتجه باتجاه النصر العالمي للشيوعية وحسب ، بل ان مصلحة الامة السوفياتية تطابق بنتيجة اتساق مسبق مصلحة الامة

---

(١) Ligue des Droits de L'Homme

(٢) Cormeilles (٣) Pierre

الفرنسية ـ كما ان الاحزاب الشيوعية في أوطانها الخاصة تبدأ دائماً بالقول بأن قضية اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية تطابق قضية بلدهم • وان ما يسمى « التيتوية » يمثل بوجه الدقة ارتكاساً قومياً انجبته اللحظة التي بطل فيها الاعتراف بهذا التطابق من حيث اعتباره امراً ضرورياً ، وهذا مالا يحدث الا في البلاد التي جربت من قبل الثورة الشيوعية ؛ أما في البلاد الاخرى ، وخاصة في (فرنسه) ، فلا يزال في وسع الاتباع ان يفرضوا عدم تعارض واجبهم الوطني اطلاقاً مع واجبهم الثوري • وعندما أعلن (موريس توريز) قائلا : « كلا ، ان الشعب الفرنسي لن يحارب الشعب السوفياتي أبداً » ، وحين قال أيضاً: « اننا نحن كادحي (فرنسه) نقاتل ضد عدو مشترك : البرجوازية الفرنسية » ، فانه يفضح بصورة كاملة ابهام شكل من أشكال الوطنية وهو الشكل الذي يزعم ان على المرء ان يخضع خدمة امته الخاصة لخدمة ثورة عالمية متجسدة في (دولة) اخرى •

ان الهوى الفردي ليس هو الذي يشوب العاطفة الوطنية في الواقع• يقول (اراغون) : « ستكتب السيرة الكبرى لتصفية الفردية في (فرنسة) ذات يوم • وسيكون ذلك تاريخ الحزب الشيوعي الفرنسي»• والحق ان الشيوعية تستعيض عن عاطفة الاتحاد القومي بالتعلق بشكل آخر من أشكال الاتحاد : اتحاد الـ « بروليتاريا » الثورية الدولية • ومن الانصاف ان نعترف بانها تنمي في هذه الحدود اخلاق التضامن حيث يتجلى أفضل جانب من جوانب رسالتها : ان انفتاح هذا الحب يمتد ويمتد فيشمل المعوزين جميعاً ، يشمل جميع المستثمرين ، جميع المعذبين في الارض ، وانه كرم منعش تتقد فيه أعمق العواطف الشخصية وأخفاها ، حتى مشاعر الحنين في الحياة الخاصة • ويوضح (اراغون) على هذا النحو بقلمه الذي كتب به « عيون الزا » حب العامل (غيوم

فاليه) [1] لامرأته (ميشلين) : « شيء ناعم لا يقال البتة بصوت عال ، سر الحب ، حب الاثنين وحب الجميع ، دغدغة قلب ، نفي العزلة والظل والخوف » . وقد جعل (انطونيو الاسباني) [2] يقول : « هل لنا نحن وحدنا تاريخ خاص ؟ هل يتعلق بنا ان نكون سعداء ؟ ان تاريخنا هو تاريخ عصرنا وبلدنا ، تاريخنا هو تاريخ ذوينا . ثم كيف تريد ان تكون سعيداً ، حتى بصوت عميق ، وبقيثارة وساقي راقص عندما يبلغ الشقاء من ذوينا هذا المبلغ ؟ » .

ان هذه اللهجة صادقة متكررة جداً في الادب المستوحى من الشيوعية ــ تارة بلهجة الاشفاق العنيف على آلام المستذَلين المستثمَرين وتارة على العكس بلهجة الفرح كما في التعبير عن المرح الجمعي وعن الايمان الواثق بنفسه وعن الامل الذي لا يقهر « بمستقبل مغرِّد » سيغرِّد للبشر اجمعين . ويزعم (كلود روا) بمناسبة « الشيوعيون » ان عنوان قصة (جول رومان) الكبرى : « ذوو الارادة الطيبة » انما يوائم أكثر ما يوائم « تحفة » (اراغون) . والواقع اننا نرى فيها « ارادة العقل والنضال المتجسدة في نخبة القادة والمناضلين الشيوعيين»، وهؤلاء هم فعلا ذوو ارادة طيبة . وان الارادة الطيبة توجد أيضاً ، في حال اختلاط ساذج ، ... لدى ملايين وملايين البشر الباحثين عن سواهم وعن أنفسهم .. » . اما « اناس الرأسمالية » فقد كُشف عنهم على انهم « قبضة صغيرة من الحيوانات الحقيرة التي تسعى بجميع الوسائل للحفاظ على امتيازاتها » . ذلك ان العالم الشيوعي عالم تمييز ثنائي وحسب : هناك الصالحون والاشرار ، والاشرار يُعتبرن أيضا بمثابة الحمقى ؛ هناك الكائنات النورانية التي تتجه شطرها ارادة الفداء الماركسية ، وهناك كائنات الديجور التي لا تتمتع بحق ولا بخلاص ولا

---

(1) Guillaume Vallier (2) L'Espagnol Antonio

بعدالة ولا بشفقة أيضاً • الارادة الطيبة الشيوعية من جهة ؛ ومن جهة اخرى الارادة السيئة لدى مائتي اسرة ، لدى زعماء اشتراكيين وجذريين وفاشيين من الانواع كلها • وبين الجانبين يوجد جمهور لا شكل له هو جمهرة الساذجين الذين ينبغي ان تنار افكارهم ؛ تلك هي لوحة العالم من وجهة نظر الروائيين الشيوعيين • فواجب التضامن والتفهم والطيبة نحو الآخرين انما يقف عند حدود الارثوذكسية ، كما انه يخضع لتعاليم الصراع الطبقي : وما ان صرم (تيتو) حبل (موسكو) حتى كتب (اراغون) مثل سائر احزابه : « طغمة تيتو » ، وعنــدما حكم عليهم الحزب فضح (اراغون) متكأ الرفيقين (مارتي) [١] و (تيلون) [٢] ضد الحزب وفضح انشقاقهما •

بيد ان لموقف الماركسيين حيال التاريخ نغمة مثالية على الرغم من لجوؤهم الى تدابير حزبية عن طريق الحيطة والفصل ، بمعنى ان المثالية توحي بوثبات القلب وبكرم ناشط وتمس الحساسية العاطفية ذاتها • واذا شئنا دقة أعظم جاز لنا ان نتحدث أيضا عن المثالية حينما ينظر الى العمل الثوري على انه مطلب العقل : فما دام من المفروض ان التاريخ منطقي ، فان أعظم فضيلة المناضل ، فضيلة البطل الشيوعي ، هي ان يفهم التاريخ ويريد ان يفهمه الى الناس من حوله • ويرى (كلود روا) ان رواية (اراغون) « هي رواية العقل ، رواية فرسان العقل ، وان بطولتها اليومية هي اولا بطولة الارادة الدائمة ، ارادة تفســير كل شيء ••• » والواقع أن الاشخاص المرموقين هم الذين يفترضون ان عمل الحزب ، ومن فوقه سياسة اتحاد الجمهوريات السوفياتيةالاشتراكية هما دائما وبصورة قبلية مسبقة امران عقليان يتسقان وخط التاريخ • وكل شيوعي لا يدهش من أي قرار يصدر عن الرؤساء الكبار هــو

---

(١) Marty

(٢) Tillon

شيوعي حقاً . وترى (مرغريت كورفيزار) (1) أن لا سؤال : « أيها الرفيق ... هل تعلم انت بم يتميز نص ويعرف بانه (تروتسكي) (2) ؟ كلا ؟ اذن سأخبرك : انه يُعرف من حيث انه يضاد توجيهات الحزب ». فكل ما يضاد توجيهات الحزب يضاد المنطق ، وهو بدعة بالمعنى الصحيح، ومن الواجب رفضه على الفور . واذ يضطرب المفكر (باتريس اورفيلا) (3) ــ وهو ممن كان يجوز له اعتناق النازية ــ حيال ميثاق (هتلر ــ ستالين) يستنجد بـ (فلزر) (4) . يرى (اورفيلا) ان ثمة مأساة . يقول (فلزر) متسائلا : « اية مأساة ، ان المرء يفكر كما يفكر، وهذا هو كل شيء . انني لا ارى مأساة .

ــ افهم كيف تقول ذلك ، ولكن ... يوجد الناس ممزقون . بين رفاقنا . وهذا ما اسميه مأساة .

ــ ممزقون ؟ آه ! نعم . عشاق الضمير الممزق ... اما انا فانك تعلم انني قليل البضاعة في هذا المضمار .

ــ اعلم ، اعلم . ولكن ... تخيل مثلا ان معظم أفراد الشعب الفرنسي يفكرون على نحو ، وانت تفكر على نحو آخر . انها مأساة... الا اذا انقلب الناس (تروتسكيين) .

ــ ماذا تثرثر ؟ دع (التروتسكيين) وشأنهم . (التروتسكيون) رجال شرطة وحسب . انهم لا يشكلون مسألة فلسفية » .

ويرى (فلزر) ان من الشاق جداً على المرء ان يرضى بامكان الشك في سياسة (ستالين) . وعندما يفهم ان (اورفيلا) يعارض الميثاق

---

(1) Marguerite Corvisart (2) Trotskiste

(3) Patrice Orillat (4) Felzer

يرغمه على ان يغادر مائدة المطعم حيث بدأا بتناول الغداء معاً . وها ان موظف المصرف ، (لوبك) [1] ، يتحمس للدور التاريخي الذي يقوم به (الحزب) قائلا : « ما نحن لولا (الحزب) ؟ حمقى كسائرالآخرين.. لا يرون ابعد من انوفهم .. وانا اتساءل كيف يستطيع المرء ان يحيا لو لم يوجد (الحزب) ؟ وماذا ينتظر هؤلاء الآخرون ؟ اننا نحن الذين نعمل ... ونبين للناس .. ونفضح المين .. كلا ، ولكنك رأيت خطاب (مولوتوف) [2] ؟ ماذا وضع بين فكيهم ! انه كالمعتاد دائماً خطاب سهل هادىء نستطيع نحن ان نفهمه ... وليس هو من (جيرودو) ! وكذا انه ليس صراخاً كغيره ... » .

ان مثل هذا الايمان المستقر ، والثقة المطمئنة بنظام الحوادث وعصمة مجتمع صغير من الناس يفرض فيهم انهم يوجهون التاريخ ، ان ذلك امر مؤثر . ولكن من الواجب ان تقول أيضاً ان فيه كذلك ما يثير قلق كل انسان ذي عقل يلم بجواز الاشياء . ثم ان مذهباً اعتقادياً كهذا المذهب لا يخدم الفنان من جهة اخرى : وقد اعترف (كلود روا) بذلك حين قال : « من السهولة المسرفة تقريباً ان يقدر الانسان المؤمن بأن للتاريخ اتجاهاً ، وللحياة معنى ، ولأهدافنا دلالة ، على تنظيم مجموعة كبيرة من الاشخاص وطائفة من المغامرات الفردية بالاضافة الى مرحلة تاريخية معطاة . وهناك فتنة ينزلق فوق منحدرها روائي ذو فلسفة معينة مثـــل (اراغون) فتدفعه الى ان يصب روايته كلها بصورة آلية في قالب كتاب ماركسي مدرسي . انها سهولة عظمى ... » . اجل ان (كلود روا) يعني ان (اراغون) قد جانب هذه الغواية ورفض تلك السهولة . ولكن روايته تصطدم حقاً على الرغم من ذلك بعائق اعتقادية تاريخية تفسر كل شيء . وبوجه عام يتمنى المرء ان يجد لدى الروائيين الشيوعيين أحياناً

---

(١) Lobscq

(٢) Molotov

تلك الدفقات من حرية الانتقاد ، وذاك التردد الذي يعتري العقل أمام تعقد المسائل وسر الكائنات ، أو أن يجد مثل هذا الرفض للنظام عندما تتجمد سلطة التسلسل ، ان يجد تلك السخرية الاليمة المرتعشة التي تتفجر في نطاق الكاثوليكية لدى (هويزمان) [١] أو لدى (بلوا) أو (موریاك) أو (برنانوس) ، وبهذا الثمن وحده يمكن القول بوجود أدب شيوعي قيم . أما الآن فاننا لا نعرف في (فرنسه) سوى صحافة حمراء جيدة [٢] .

(٣)

جبوب (مورتي-بنغ)

أبان الاب (بيغو) [٤] في كتابه المهم : « الماركسية والمــذهب الانساني » [٥] ما به تكون وجهة نظر (ماركس) الى التاريخ انسانية وما به لا تكون . ومن الجلي ان الفلسفة تكون فلسفة انسانية عندما تعتبر الاقتصاد السياسي جملة علاقات انسانية وتزعم الحكم عليــه بالرجوع الى الانسان بدل ان تنظر اليه نظرتها الى مذهب قوى محضة . ويكون مفهوم العمل مفهوماً انسانياً عندما يعتبر العمل فاعلية تستحق المكافأة وحدها وتخلق وحدها القيم التي يجب اخذها بعين الاعتبار لانها

(١) Huysman

(٢) في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ما هو افضل من ذلك حيث يبدو رغم هذا ان الآثار الكبرى التي تستخلص من الانتاج الموّجه انما تنتمي الى نوع المذهب الغنائي والى الملحمة (ستالينغراد ،) لـ (سيمونوف) ؛ على الدون الهادىء ، لـ (شولكوف) ، واقد غطس الفولاذ لـ (اوستروفسكي) .

Stalingrad, de Simonov; Sur Le Don Paisible, de Cholokov, et l'Acier Fut Trempé, d'Ostrovski,

وهي روايات ملحمية ، اي انها من نوع لا يتسع لتحديد الوحي ولا لان يجنــه الفكر الانتقادي .

(٣) Murti - Bing (٤) Le P. Bigo (٥) Marxisme et Humanisme

مشتقة من جوهر الانسان • وعلى الرغم من ذلك فان علم الاقتصاد لا يدخل نطاق مذهب انساني حقيقي لمجرد اعادة النظر فيه ابتغاء جعله يخدم الانسان ، ولا أيضاً حين يتصور نظاماً خاصا يهدف الى تحرير الكادح من قيوده : بل الامر يتعلق ، في النهاية ، بالفكرة التي يتمثلها المرء عن الانسان ، وما يريد انقاذه من كيانه • ولم يرفض (ماركس) رفضاً باتاً الدين والميتافيزياء وحسب ، بل رفض كل ما يثبت جوهراً وتعاليا ، رفض الروح ، والقيم الروحية ، لانه رأى ان الفلاسفة المثاليين يعربون عن الضمير البرجوازي الذي يقر أثرة الظلم الاجتماعي ويغلفها بظاهر التأملات الفكرية الحلوة • وقد ربط (ماركس) حياة الفكر ذاته بالضرورة القاهرة واخضعها بصورة مباشرة للاوضاع الاقتصادية • فهو لم يشأ ان يعرف من الانسان الا ما ينجم كمعطى بتحليل الواقع الاقتصادي ــ الاجتماعي تحليلا موضوعيا ، وقد انتهى الى التعريف الآتي : « الانسان جملة علاقات اجتماعية ••• والفرد هــو الكائن الاجتماعي » • وبذا اصبح من الممكن ظهور جميع الانحرافات التي قامت في الشيوعية ضد المذهب الانساني • فاذا لم يكن الانسان سوى كيانه الاجتماعي استطاع المجتمع بالبداهة ان يمتلك جميع حقوقه عليه• واذا لم يوجد انسان باطني روحي ، متعالٍ على التاريخ على الرغم من ان له جذوراً راسخة في التاريخ على الرغم من انه مدعو الى تأمــل قيم خالدة وتحقيقها في هذا العالم أو ذاك ، فان من الحقيقي أن شيئاً لا يعلو على (الدولة) ، وهي عامل الطاقة الاجتماعية ، وان شيئاً لا يحدّ من سلطان المفوّض في الامة الاشتراكية • ولم يخطىء الاب (بيغو) حين درى ان ثمة تجثم نزعــة الفكر (الماركسي) المشؤومة ، فضلا عن غموضه القيمي وتناقضه الهدام • ألا يثبت الاحتجاج على انخلاع الانسان في النظام الرأسمالي بصورة ضمنية الاعتقاد بجوهر الانسان الروحي وبجدارته ككائن اخلاقي لا يمكن هدمه باذلال يفرضه عليــه

التاريخ ؟ ولكن الاتجاه بعدئذ الى الارتياب في هذا الجوهر وهـذه الجدارة والسعي الى ارجاع الانسان الى جوهر فرد اجتماعي ، ذرة تنتج وتستهلك ، ألا يعني ذلك تسليمه وهو أعزل الى (مولوخ) [١] طاغية ؟ ان الشيوعية تود انقاذه من انخلاع مشؤوم حتماً ، انخلاع يحرمه نتاج عمله وحظوظ الوجود السعيد ، ولكن هذا الانقاذ يبتغي قذفه في انخلاع أعظم حيث يفقد اصالته المبدعة ، وشخصيته وروحه .

يحكي (تشيزلاو ميلوز) [١] في كتاب « الفكر الاسير » [٢] أن الروائي البولوني (ويتكيوز) [٣] تخيـل بصورة مسبقة ان جيشاً صينياً ــ موغولياً غزا (اوربه) وجعل الشعوب المغلوبة على أمرها جد بائسة الى اليوم الذي سمح لها فيه باستخدام حبوب (مورتي ــ بنغ) وكان في قدرة هذه الحبوب ان تساعد على نقل النظرة الصينية ــ المنغولية الى العالم الى كل من يبتلعها ، واذ ذاك ينقطع فوراً تساؤله ويقبـل النظام الجديد بغبطة وحبور . انه رمز متنبىء ! وقد تناول المفكرون البولونيون الذين عاش (ميلوز) تجربتهم الخطرة وحكاها بامانة ، تناولوا بادىء الامر حبوب (مورتي بنغ) التي انتحلتها (موسكو) ، وخلصوا من حال القلق والفراغ اللذين شعرا بهما أثر مذابح الحرب وخيبة الامل الناشئة عن الاضطرابات الغربية . ولكن مزاجهم وثقافتهم أهابا بهم الى الارتكاس ضد السم فجاءت اللحظة التي وجب عليهم فيها ان يختاروا إما الاخلاص لنظام يخنق الفكر واما احترام الفكر ذاته . وقد ذكر (ميلوز) قولا عميقاً في صدد أحد هؤلاء المفكرين وقد دعاه « عبـد

---

(١) Czeslaw Milosz (٢) ترجمه من اللغة البولونية الى اللغة الفرنسية

١ . برودهمو والمؤلف . مقدمة كارل يسبرز ١٩٥٤ .

La Pensée Captive, Trad. Par A. Prudhommeauy et l'Auteur. Préface de Karl Jaspers, Gallimard, 1954.

(٢) Witkiewicz

التاريخ » لان الشيء الرئيسي الذي تعلمه هو ان التاريخ شيوعي وانه لا بد وان يسير دائما بالمنحى الشيوعي : « من العسير ان نغبط هذا الرجل على ما اختاروعلى الثمار التي جناها من شجرة العلم بالخير وبالشر . انه يعلم أن بلاده تشرف على افق آلام تتزايد باطراد ، ويعلم في نفسه ان ليس في ارائه رأياً هو رأيه حقاً . وهو يتحدث الى نفسه بأنه « كاذب » ويؤمن بأن التقيد التاريخي مسؤول وحده عن هـذا الكذب . ولكن فكرة تخامره أحياناً هي فكرة ان الشيطان الذي يبيع المرء روحه له انما يستمد قوته من الناس انفسهم ، وان التقيد التاريخي ابداع أدمغة بشرية » .

« التقيد التاريخي ابداع ادمغة بشرية » : ذاك هو على وجـه التحديد موطن العيب في المذهب . ذلك ان موقفاً رئيسياً واحداً يشترك فيه بآن واحد التقدميون الذين يرفضون ميتافيزياء (ماركس) ويقبلون طريقته واراءه الثورية والشيوعيون الذين يعتنقون المذهب الماركسي ــ اللينيني برمته : انهم جميعاً تناولوا حبوب (مورتي ــ بنغ) وقبلوا كموضوعة ان ينزع مجرى الحوادث حتماً الى نصر الشيوعية العالمية وان يصحب ذلك تحرير الانسان ؛ ولذا فانهم لا يرون سوى التناوب الآتي : اما معارضة موجة جارفة بعوائق عاجزة تخلق ازمات ومآسي ليس من شأنها الا تأخير مالا بد من وقوعه ؛ واما الانطلاق المستنير في منحى التاريخ كما لمحه (ماركس) اول من لمحه وحدده بدون خطأ واتبعه فيه خلفاؤه من بعده . لم يكفهم في الواقع ان يعتبروا تحليل تناقضات الرأسمالية تحليلا دقيقاً صحيحاً ، بل انهم يعتبرون التنبؤ ذاتـه أمراً لا تجوز مناقشته . لم تكفهم مشاهدة تهافت الحضارة البرجوازيـة وانحطاطها الكامل وصدعها الذي لا يرأب وانما آمنوا بذلك ايمانهم بمهدية العالم العملي الموكل اليه وحده امل حلول مذهب انساني جديد، هو المذهب النهائي ما دام هو الذي يحقق النصر الاخير للانسان على

الطبيعة ويختم انخلاعه في المجتمع •

وعلى هذا النحو استعيض عن السرمدي المحذوف باتخاذ التاريخي مبدأ يبرّر الاخلاق ويكون دعامة الامل وحامل المقدس الجديد • ولكن هل يمكننا ان نزعم باننا نفكر تفكيراً علمياً ونحدد سلوكنا بحسب قوانين شيدت على أسس عقلية حين نربط اخلاقاً وسياسة بفرضية من الفرضيات؟ ذلك انه اذا بدا من الممكن أخيراً ان على الحوادث ان تتطور شطر النهوض بضمير الجماهير وترقية الكادحين وتحرر العمال المنخلعين ، فلا شيء يتيح لنا ان نؤكد بأن الدرب في جميع البلدان ستكون درب « ديكتاتورية البرولتياريا » بحسب الاسلوب السوفياتي ، وان كل درب آخر ، ومثلا درب النقابية الاصلاحية من النمط (الاسكندنافي) أو (الانكلوسكسوني) لن يبدو اسهل ولا اقل كلفة ولا أفضل تكيفاً مع الامم الاكثر تطوراً والتي ابتعدت عن الاخلاق الاقطاعية بعداً أعظم • لا شيء يبرهن على ان ليس للحكم التقني على النمط (الامريكي) حظوظه كما ان له اخطاره • وفوق ذلك فليس من المحال على الفكر أن يتصور ان الشيوعية في البلاد التي نجحت فيها ذاتها وفي البلاد التي ستنجح فيها أيضاً ، سترفع مستوى حياة الناس وثقافتهم فتعيد اليهم تذوق الاستقلال على نحو انهم يأخذون بمكافحة الشيوعية وبهدمها من باطن حين ينساقون بحركة طبيعية الى اعادة اختراع الراحة التحررية والقيم الفردية • ان استباق الغد على طريق التنبؤ أمر مضحك دوماً ، والمسألة هنا لا تجاوز ميدان التخمين • ولكن من المباح ان نؤكد ان المثالية التي يعتبرها الماركسيون جوهر العيب في الفكر البرجوازي ليست على الرغم من ذلك سوى خطأ يقع فيه اولئك الذين يزعمون انهم يحددون غاية التاريخ ويرسمون علماً للقدر والمصير •

هناك اسرة ضعيفة الائتلاف ولكن قرابتها العصبية كاملة وهي تضم

مفكرين من أقصى اليسار ، ماركسيين بعقائديتهم وصداقاتهم ، وانسانيون بثقافتهم وبمزاجهم ، وهم يزعمون بآن واحد انهم اوفياء لشيوعيتهم النظرية وانهم يدينون الافعال والقوانين التي تتجلى فيها الشيوعية التاريخية [1] تحت سمعنا وبصرنا . ولولا العسر لما أمكن الاستمساك بهذا الوضع . فالفكرة تقود بالضرورة الى ظهور النتائج المتصلة ببنيتها منذ ان يعتبرها الذهن حاضنة تحرّض العمل . وكلما عهد المرء الى ادخال المرونة والروحية الى معنى المادية الجدلية وجد ان من الصعب محو معالم مذاهبها الجلية من حيث تعريف الانسان من الناحية الاقتصادية ومن حيث الحط من قيمة الفكر التأملي والحياة الباطنية . واذا اختار المرء اعتناق ميتافيزياء تتخذ المادة مبدأ العالم ، وآمن بأن آلية القوانين الاقتصادية في ما تحت بنية حركات الفكر ومآسي حياة الشعوب ، فان التطابق الاخير بالهوية بين المطلق وبين (الدولة) الشيوعية ، بين العدالة وبين نجاح (الثورة) لا يكون ضرباً من الانحراف بل انه مسعى منطقي . وعندئذ تعتبر السلطة المادية لانسانية جماهير هي الغاية ويستخلص من ذلك ان من الجائز اخضاع شرف الاشخاص وحريتهم أو التضحية بهما على انهما وسائل . وحين يستلم زمام الحكم من يملك هذا التفكير فانه ليس من باب عدم الامانة مع نفسه ان يعمد الى تصفية الاقليات المعارضة واضطهاد المبتدعين بل بسائق ضرورة جدلية لا يمكن اجتنابها الا بحركة القلب والغريزة ، بلا منطقية سخية ، بارتكاس مدنية أو ثقافة .

كتب (سارتر) و (مرلوبونتي) : « كلما ابتعدنا عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية جغرافيا وسياسيا ألفينا شيوعيين

---

(1) هناك نص ذو اهمية كبرى في هذا الميدان هو المقالة الافتتاحية في «الازمنة الحديثة» Temps Modernes بتاريخ كانون الثاني ١٩٥٠ وهي تحمل توقيعا مزدوجا يدل على اهميتها هو توقيع (مرلوبونتي) و (سارتر) .

هم بشر مثلنا دائماً ووجدنا حركة شيوعية سليمة » • ألا يعني هذا ان تجربة الحكم تثير تناقضات المذهب ؟ ولكن ثمة أكثر من ذلك : ان خطأ المذهب يفسد بالعدوى الحكم الاخلاقي ذاته • يقول كاتب ماركسي هو (لوكاكس) [1] : « ان فحوى التاريخ الموضوعية واتجاهه الحقيقي هما اللذان يحددان سجية الاشخاص العاملين تاريخياً وهل هي بطولية ام مشينة » • وبعبارة اخرى ان الانسان لا يكون في التاريخ من حيث انه هو ، من حيث انه كائن حر اخلاقي يجعل عمله متسقاً مع فكرته عن عدالة متعالية : لا شيء يتعالى على التاريخ ، حتى ولا الانسان الذي ليس خلوقاً الا بقدر ما يساير مجرى النهر • لا فعل عادل بذاته ، ولا فعل ظالم بذاته : والفعل الواحد فعل بطولي اذا اتجه في المنحى الشيوعي للتاريخ ، وفعل شائن اذا اتجه ضده • مثال ذلك : يمجد (اراغون) في « الشيوعيون » بقلم واحد احتلال روسية السوفياتية بلاد البحر البلطي والعدوان على (فلنده) ويعتبر ذلك عملا رفيعاً من اعمال التخلق السياسي ، ولكنه يذم قرار الحلفاء بلغم المياه (النرويجية) ليقطعوا الطريق على (المانية) ويعتبر ذلك حادثاً عدائياً ومكيافلية برجوازية — وقد كانت (المانيه) حليفة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية في ذلك الحين • لنكن منصفين ، ولنجانب الاسراف في الاعتزاز : ان في وسع الضمير البرجوازي فعلا ان يقترف ابهاماً مماثلا حينما يعتبر مثلا بمثابة بطل قومي الفاتح الشرس أو الماكر الذي يخدم مصلحة بلاده دونما مراعاة الضمير ، ويقترف الضمير البرجوازي عندئذ هو أيضاً خطيئة وضع القيمة كل القيمة في واقع زمني وتاريخي ، في امة معبودة كما يُعبد الاله ، ويغفل القيم العليا التي يكتشفها الفكر عندما يفكر بما فوق التاريخ •

---

(١) الوجودية او الماركسية
Lukaks : Existentialisme ou Marxisme, Nagel, 1948

تلك هي الزلة الكبرى . انني افهم حق الفهم ان يكون المرء ستالينياً اذا كان شيوعياً : فثمة منطق في ذلك . ولكن العائق الاعظم الذي يحول دون ان يكون المرء شيوعياً هو ان يلمح في صميم المذهب المشروع الرئيسي الحاسم الماثل في نقل نور متعال يتصل بالسرمدي وتسليطه على التاريخي . وبدء من ذلك ، كل شيء جائز . وكما اكتنفت بالقوة تأملات المذهب العرقي المجردة دخان الافران التي أحرقت فيها الجثث البشرية ، وكذلك أضمرت معسكرات « اعادة التربية » في الشمـــال الكبير ، والتطهير البوليسي ، ومحاكمات الرؤساء المنبوذين ، والاتهام الذاتي المنظم ، أضمرت كلها في فلسفة سياسية تتخذ التاريخ وثناً ، لان الاوثان تدعو من يضحي من أجلها وفي وسعها دائماً ان تبرّر سلوك طاغية من الطغاة .

— ٥ —

وجهات نظر وجودية الى التاريخ

الشعور باللاعقلي

اذا صح ان الكون ــ في ــ التاريخ يمثل ضمير القرن العشرين ، فان من شأن تيارين فلسفيين يتمتعان بتأثير راجح منذ عشرين عاماً انهما عملا على تعميق ذلك وتوسيعه واثارته وهما : الماركسية والوجودية . فالماركسية فلسفة تاريخ ، وهي فوق ذلك فلسفة الانسان الذي ينجز نفسه في التاريخ بخضوعه الحر للمادية الجدلية . اما كلمة الوجودية فانها تشير الى مذاهب فلسفية متنوعة ولكنها تشترك جميعاً في اصل واحد هو النظر الى الانسان من حيث جواز مصيره ، ووضعه المشخص ، من قبل ان تعمد الى تحديده تحديداً مجرداً بذاته وعلى انه طبيعة . وعلى هذا فان المذاهب الوجودية تنطلق، مثل الماركسية، من نظرة الى الانسان التاريخي بالمعنى الدقيق . وفي اساس تأمل الفيلسوف يقوم دائماً الشعور بأنه موجود في محل من المكان والزمان ، وانه يوجد في جملة معقدة الاواصر تشتمل على ظروف وعروق وثقافة ووسط اجتماعي فيه تشكلت شخصيته . ومن هنا يستطيع ان يتجه بتفكيره إما جهة فلسفات الكون ، وشطر اعادة الكشف عن قيم لازمنية كلية في ضميره ، وإما ان يتجه على العكس في منحى الريبية والعدمية ، وشطر اثبات حريته

الخالصة في عالم خلو من القيم والارشادات ؛ ولكنه ، في الحالين ، يبدأ بأن يفكر في نفسه من حيث انه موجود ، كائن في وضع ، وانه لا يقدر على ان يؤثر في نفسه الا بتحويلها : انه يفكر في ذاته على انه كائن تاريخي .

على هذا النحو تقوم بين الماركسية وبين الفلسفات الوجودية تخوم مشتركة . ولكن بينهما كذلك فارقاً رئيسياً . تخوم مشتركة : يمثلها من الجانبين اثبات ان الانسان ينتقل من الوجود الى الذات ، وانه يصنع نفسه بالتاريخ ولكن منحى التاريخ في الماركسية منحى محدد من قبل ، ترسمه فاعلية قوانين طبيعية ، وهو ينزع الى تحقيق طبيعـة الانسان الواقعية ، « طبيعة حقيقة النوع الانساني » كما يقول (ماركس) . ويقول أيضاً : « التاريخ جزء واقعي من التاريخ الطبيعي ، انه تحول الطبيعة الى انسان » . وان التقيد في المادية الجدلية ، وان كان أكثر مرونة وأقل صلابة من التقيد في المادية المحضة ، فانه أمر ثابت لا ريب فيه . وانما ينظر الى الانسان الذي يحمله التاريخ في مجراه من خارج، وعلى انه شيء ، متحرك ينحدر بانحدار النهر ، فيخضع له أو يقاومه ، ولكن النهر يجرفه أخيراً نحو الهدف ، نحو كمال ضروري هو كمال النوع البشري [1] .

اما الوجودي فانه يرى ، على العكس ، ان الانسان ينطلق من معرفة ذاته على انه فاعل ، ويكتشف حريته في عالم يسود فيه الجواز ، ولا تبدو مسوّغات الوجود أول ما تبدو ، بل ان التناقض لشديد بين مطالب الفكر العقلية وبين المطالب اللاعقلية للحوادث ؛ عالم يبدو فيه كل شيء

---

(1) يرى الماركسي ان اختلاط الافعال الفردية الحرة لدى كل انسان « يغدو اسلوب حركة موضوعية تسيطر عليها قوانـين تمكن معرفتها وهي ما نسميـه بالتاريخ » . انظر (لوكاكس) : المصدر المذكور .

مفجعاً غامضاً سدى • وليست ذات موضوع هنا بوجه من الوجـــوه مسألة الاستعاضة عن الرؤى المسيحية الاخيرة المطمئنة القائلة بالخلاص السرمدي وبمملكة الله برؤى الخلاص الزمني الاخيرة التي تقرها المادية وبمملكة الانسان على الارض • ففي الآفاق الوجودية لا يبقى للتاريخ منحى يمكن التنبؤ به ، بل يغدو التاريخ ما يصنعه الانسان • ويرى (سارتر) ان الحرية الانسانية لا يحدها حد ، وانه لا وجود لطبيعة انسانية معلقة كالمثل الافلاطوني فوق التاريخ ، بل ان في وسع كل فرد ان يخترع الانسان باستعماله حريته الكاملة ، وما الطبيعة الانسانية الا ما يولد في الزمان بنتيجة ابتكاراته الحرة • ويذهب (مرلو بونتي) الى ان الانسان الحديث يضطلع بتجربة الجواز بوجه خاص : « ان التقدم غير ضروري بمعنى الضرورة الميتافيزيائية ، وانما يجوز القول بأن من المحتمل جداً ان تنتهي التجربة الى حذف الحلول الزائفة وتجاوز العقبات والسدود • ولكن ما ثمن ذلك، وما أكثر المداورات والالتفافات؟ وليس من الممتنع مبدئياً ان تخفق الانسانية اثناء الطريق اخفاق جملة لا تستطيع ان تبلغ الكمال » • انه شعور مأساة بالقدرة الملكيـــة ، وبالصدفة وبالحرية ، شعور يتيح الحظوظ كلها لاستقلال الانسان ، ولكنه يطرح أيضاً على بساط الممكن المجازفات جميعا ، ولا يكفل شيئاً•

ان في ذلك منحدراً رئيسياً من منحدرات الفكر المعاصر • وقد تجلى في (جنيف) سنة ١٩٥١ حين سجلت (الالتقاءات الدولية) في منهاجها « معرفة انسان القرن العشرين » (١) • وقد تكررت في الخطب والمقالات ثلاث كلمات رئيسية هي : التنوع ، الابهام ، الجواز • والواقع ان الانسان الحديث يعرف اشياء جد كثيرة تمنعه من الاكتفاء بحقائق

---

(١) لقد جمعت نصوص المناقشات في « معرفة انسان القرن العشرين »
La Connaissance de l'Homme du XXe siècle, la Baconnière, 1952.

الحس المشترك ؛ وان كلمة عقل ذاتها لا تبدو له جلية واضحة ؛ كما انه عاش التاريخ بما يكفي ليدرك ان الحظ والاتفاق هو العامل الرئيسي في التاريخ • وانه ليعرف ، أخيراً ، بنتيجة بحث كثير من المسائل واعادة بحثها أن لا شيء بسيط وان التفريق المدرسي بين الجسد والروح ، بين الكلام والفكر ، وبين العنف والعدالة ، يبدو تمييزاً تعسفياً عندما يقرن بالتجربة الراهنة للحياة والتاريخ • وقد أوضح (مرلو بونتي) هـذه الفكرة ببراعة ، وخلص منها الى ان الفلسفة الحقيقية تمتنع على التفاسير المنهجية ، وان المذهب الانساني الحقيقي هو دوار يقره الفكر ازاء الغرابة الاصيلة للمغامرة الانسانية • وعلى هذا النحو يلخص فيلسوف نيّر التفكير النزعة العميقة التي اغتذى بها ما يُسمى بالوجودية ، وان حصرت دلالة هذه الكلمة من غير حق بمعنى الوجودية الملحدة : ان التاريخ مفجع بالدرجة الاولى ، والكون سدى على نحو جذري • لم يبق الانسان الذي يطاله الالم والموت مؤمناً بنهاية سعيدة بالضرورة لملحمته الارضية الغامضة ، تحت سماء لا تومىء بأيـة اشارة ؛ وانه لا يخلص من اليأس الا بالرواقية ان كان شجاعاً ، أو بالريبية النسبية ان كان حذراً وحسب • وقد انتقل هذا الشعور بالدوار وبالقلق من مجال التأمل الفلسفي وانساب في ابداع الفنانين ، ولا سيما في القصة والمسرح ، وعندما لا ينحدر هذا الشعور الى رتبة التكلف الاجوف ولا السهولة المائعة فان « الادب الاسود » يغدو هو التعبير ذات التعبير عن هذه الحال الفكرية •

انني لن اذكر هنا إلا نصاً واحداً اختاره من الرواية التي نشرت بعيد (التحرير) وهي : « التربية الاوربية » (١) من تأليف (رومان كراي) (٢) • وانا اختار هذا النص لانه ضد جميل للنصوص المنشورة

(١) l'Education européenne (٢) Romain Gray

غداة الحرب العالمية الاولى والتي جاء بها روائيو المذهب الانساني • يحكي المؤلف باسلوب قوي مركّز مرحلة (المقاومة) في (بولونيه) خلال حرب ١٩٤٠ ــ ١٩٤٥ • وقد كتب احد اشخاصه كتاباً دعـاه « التربية الاوربية » وأبان فيه الاسباب التي حملته على القتال • ذلك انه كان لا يزال احد اولئك الذين يحتاجون للاعتقاد بأن للعالم معنى كيما يبادروا الى العمل • لقد قتل هذا الشخص وحمل أحد رفاقه المخطوطة وأخذ يتأملها في الريف كما جاء في آخر صفحة من صفحات الرواية •

« تناول الملازم (توادرودسكي) [1] من جيبه المجلد الصغير ووضعه على الارض في طريق النمل • وقد وجب شيء آخر ليحول دون مضي النمل في طريقها التقليدي الموروث وارغامها على الانحراف عن جادته• صارت النمل تتسلق على العائق وتجري ، دونما اكتراث ولا استعجال ، فوق الكلمات الغريبة المكتوبة فوق الورق باحرف كبيرة سوداء : تربية أو ربية • ان النمل تسحب بعناد قشاتها المضحكة • وقد كان من الواجب حقاً شيء آخر غير كتاب ليرغمها على الابتعاد عن دربها ، الدرب الذي سارت عليه ملايين النمل من قبل • كم الف من السنين كانت النمل تتعب على هذا النحو ، وكم الف من السنين ينبغي عليها ان تتعب أيضا ، انها النمل ، هذا العرق المضحك المفجع الدؤوب الذي لا يعرف الملل ولا الكلل ؟ كم كاتدرائية جديدة ستبنى لتعبد الاله الذي خلق لها كلىً ضعيفة جدا وكلفها بعبء ثقيل جد ثقيل ؟ ماذا ينفع الكفاح ، والامل ، والعبادة والايمان ؟ ألا ان العالم الذي يألم فيه البشر ويموتون انمـا هو ذات العالم الذي تألم فيه النمـل وتموت : انه عالم رهيب غـير مفهوم » •

تلك هي الكلمات التي تنتهي بها رواية تحكي مغامرة بطوليـة ،

(١) Twardoski

ملحمة اناس جازفوا بحياتهم ، ـ كما قد يتبادر الى الذهن : من أجل شيء ما • وعلى هذا القدر يمضي تشاؤم الجيل الذي عجنته الحرب العالمية الثانية الى أبعد بكثير مما ذهب اليه الاناسي الذين خرجوا من الحرب الاولى ! فقد اعتبر انصار المذهب الانساني من طراز (دوهامل) و (مارتان دي كارد) أو (جول رومان) الحرب بمثابة عارض مؤسف، ولكنهم وجدوا ان هذه الحرب لا تسد درب التقدم والعقل والثقافة ، الدرب السوي التي بها يملك الانسان قناعته واسباب عمله وشواحذ امله • اما الآن فان العارض لا يبدو استثنائياً ، بل انه هو الذي يؤلف نسج التاريخ • ان تاريخ البشر خلو من العقل شأنه شأن تاريخ الحشرات، وان النكبات التي تمحق المدن لا معنى لها كما ان الكوارث التي تبيد الاوكار غير ذات معنى • وكل شيء في الوجود تحمله هزة كونية لا اتجاه لها ، وليس من مسؤول عنها • يرى المسيحي ان صخب الحوادث يخضع من طرف خفي لارادة اله ذي عناية ربانية • ويرى المفكر الانساني النزعة ان في الافق انواراً مجردة لا تزال تضيء الدرب وتفتح الليل • ويرى الماركسي ان ثمة (عناية ربانية) محايثة قوامها المادية الجدلية • اما الوجودي فانه يرى ان لم يبق ثمة مطلق يـعزّي ، لا فوق التاريخ ولا في التاريخ ، وان حكمة الانسان لا تبدأ الا حين يقتنع حقاً بهذه الحقيقة ، ويشعر بأنه حر بالاستجابة لوضعه في العالم بدون ان يؤمن بآله ولا بوثن ولا بقانون •

(جان-بول-سارتر) يتقدم البلد

من الواجب اذن ان نطرد من التاريخ وسواس المطلق ، نطرد الشعور بتعالٍ يوجهه ويرين على ارادة الانسان ، تعالٍ يبدّل ارادته شيئاً آخر غير ان تكون طراز الاستجابة لوضع معطى على نحو اصيل دائماً ، مبتكر دوماً • من الواجب اولا ان نطرد الله من التاريخ • ولذا نلفي

(سارتر) يتكالب على استخدام مهارته الجدلية وسلاح مناظرته وموهبته كروائي ومسرحي في هذا السبيل .

وليس من شأننا ان نعود هنا[1] الى البحث في الحاد (سارتر) من حيث اسسه الميتافيزيائية وشواحذه النفسية ، و الى اظهار ان الدعاوة الملحدة هي محور اثاره وانها تتجلى بوجه خاص في مسرحه . وانما نقتصر على ذكر مثل واحد ، ذي دلالة ، حين نفتح « الشيطان والاله الصالح » [2] . فجوهر هذه المسرحية هو على وجه الدقة اقامة الدعوى على الله في التاريخ . هناك شخصان يقومان في هذه المسرحية بتجربتين متضادتين ومتكاملتين معاً وهما هنريك [3] ، « خوري الفقراء » ، و (غوتز) [4] ، المغامر . وقد وجد (هنريك) في وضع ينجم عن ابهامه انفضاح التناقض الداخلي في اخلاقه . انه خوري الفقراء ، وعليه في الوقت نفسه ان يخدم (الكنيسة) ويخدم الشعب . بيد ان الشعب المتمرد سيغتال الرهبان ؛ واذا ما سلّم (هنريك) مفتاح المدينة السري الذي يملكه الى (غوتز) الذي يحاصرها نجا الرهبان وذُبح الفقراء . وفي الحال المعاكسة ، ان الوفاء لقضية الفقراء سينقلب ضد مصلحة (الكنيسة) . وبعد تردد وتمزق خلص (هنريك) الى اعطاء المفتاح الى (غوتز) . ولكن وخز ضميره يدفعه الى اليأس ، واليأس يقوده الى التمرد ، فيغادر (الكنيسة) ويقدم روحه الى (الشيطان) . اما (غوتز) فانه سار في الطريق المعاكس . ذلك انه هو بطل الشر في اللحظة التي يبدأ فيها العمل . وهو يفعل الشر لا بسائق شبق أو شح ، ولا أيضا بسائق لذة وانما يقترف الشر بصورة منهجية : لانه هو الشر ،

---

(1) انظر ب ـ هـ. سيمون : « الانسان في المحكمة » ؛ و « شواهد على الانسان » .
P.-H. Simon : l'Homme en procès, la Baconnière, 1949, et Témoins de l'Homme, A. Colin, 1951

(2) Le Diable et le Bon Dieu (3) Heinrich (4) Goetz

لان الله اخترع الخير واراد (غوتز) ، من جهته ، ان يكون مخترعاً حراً ضد الله . ان الانسان هو الذي يعيد صنع (لوسيفر) [1] ، يريد محاربة الله بأسلحة مكافئة ، بقدرة حريته اللانهائية . ورغم ذلك فان (غوتز)، بنتيجة ظروف هي في الحق ظروف خارقة ، وبنتيجة اختيار مسرحي مجاني ، يقرر بناء على لعبة القموع ان يقلب اتجاهه ويغدو قديساً . ولكنه وقد بدأ يلعب لعبة القداسة انتهى الى الوقوع في شباك اللعب وآل امره الى التقشف الكامل ومحا شخصيته الانسانية والتاريخية كلها وانصرف بعنايته الى السرمدي والى الخدمة الالهية وحسب . « لم أبق انساناً ، لم ابق شيئاً ، لا يوجد الا الله » . وعلى هذا الدرب لايعرف (غوتز) سوى الاخفاق : وزع املاكه على الفلاحين فلم يجعلهم سعداء، ولكنه دفع الفقراء الى التمرد فثاروا قبل الاوان فأغرقوا في بحر من الدم . وحين طرد خليلته حكم عليها بأن تموت قلقاً ويأساً . اما «مدينة الشمس » التي كان يمارس سكانها على وجه الاطلاق شرعة الاحسان والرأفة فقد هدمها القساة . وبدا له ان ما يعتبر اخفاقاً على مستوى التاريخ ليس سوى نعمة ووعد بالخلاص السرمدي ، وعبثاً حاولت (هيلدا) [2] الحكيمة الكافرة التي تجسد في نظره العقل الكريم المتحرر من عجائب الصوفية ، عبثاً حاولت الرجوع به من هذا النقص البشع العقيم الى خصب نقائص طبيعته الانسانية . ولكنه عاد الى هذه الطبيعة بعد حديث قاس طويل مع (هنريك) جرى عندما عمد الرجلان الى الموازنة بين تجربتيهما وخلصا من ذلك الى ان من العبث على قدر سواء ان يبيع المرء نفسه للشيطان او يمنحها الى الله . ذلك انه لا وجود لله ولا للشيطان ، لا وجود للخير ولا للشر . لا وجود لمطلق في العالم بدون اشارة . لا يوجد الا الانسان الحر الذي يصنع تاريخه ويصنع ذاتــه

---

(١) Lucifer (٢) Hilda

في التاريخ • وحين يتخلص (غوتز) من هوى الشر ومن حب الخير ، يفرح حين يلفى نفسه آخر الامر على ما هي عليه ، وعلى ما ظلت هي عليه دائماً : نفس انسان يقبل برجولة حب (هيلدا) ، نفس انسان يقبل بشجاعة بريئة من الوهم ان يتولى قيادة الفلاحين المتمردين ، ما دام قد بدا له ان ذاك هو قدره التاريخي • ولا بأس ان وجب عليه ان يبدأ بحادثة قتل ليحقق قدره ، ويثبت قدرته بقتل جندي كان يحرّض على الخروج على النظام : « ذلك ان مملكة الانسان هي التي تبدأ »، وينبغي على من يزعم انه يؤثر في التاريخ ألا يرفض عند الاقتضاء بأن يكون « جلاداً وقصاباً » • « ــ لن اتراجع ، وسأرهبهم ما دمت لا املك سبيلا آخر من اجل ان احبهم ••• سأبقى وحيدا مع هذه السماء الفارغة فوق رأسي ، ما دمت لا املك سبيلا آخر لأكون مع الجميع • علي ان احارب ، وسأحارب » •

بهذه الكلمات تنتهي المسرحية ، وهي كلمات تعني قبول مصير زمني ، في تاريخ انساني صرف ، وتحت سماء لا يشوبها الله ، وبضمير لا يعترف بقوانين غير القوانين التي يمنحها لنفسه • لقد اراد (سارتر) ان يبرهن على الاخفاق المحتوم وعلى خداع القداسة ، خداعها على وجه الدقة من حيث انها تود ان تكون طراز تأثير في التاريخ • ولا ريب في ان البرهان يتحلى بقدرة أعظم على الاقناع لو ان (غوتز) كان قديساً صحيحاً يعمل ابتغاء محبة الله ولا يعمل عن طريق اصطناع يضطلع به عن لهو وصلف فيمثل « مهزلة الخير » • غير ان ثمة أكثر من اتهام القداسة في « الشيطان والاله الصالح » : ان فيها مناقشة قضية المطلق وحلها حلا سلبياً عنيفاً • ويعلن (سارتر) قائلا : « ان هذه المسرحية تعالج جميع علاقات الانسان بالله ، أو اذا شئنا ، علاقات الانسان بالمطلق » • والحق ان القضية تتناول المطلق بأكثر من ان تتناول مسألة الله • وان (غوتز) ، وهو خادم (الشر) ، كان يتعطش للمطلق

ويرفض حدود وضعه كانسان ليؤكد حرية مجردة معلقة فوق التاريخ • وهو انما يود بلوغ المطلق كذلك ابان خدمته لله • ولكن التعطش للمطلق قذف به في الحالين خارج الانسانية ، وعلى نحوين : نحو فصله عن الكائنات ، ونحو جعله عاجزاً عن القيام بعمل ناجع • انه يرجع الى الانساني ، يرجع الى اكتشاف شروط التضامن والنجوع حين يرضى بتواضع الخضوع للنسبي ولابهام الشرط الارضي — بل لنقل ، حين يرضى صراحة بالاضطلاع بدوره في الزمني وهو غير فضولي بالنسبة الى السرمدي • ومن هنا التهليل الهاذي بموت الله وهو يقذفه في وجه السماء عندما طالعته حقيقتها المحرِّرة : « الله لا يوجد ! فرح ، دموع الفرح ! هللويا ! لا سماء ، لا جحيم ! لا شيء سوى الارض ! وداعاً ايتها المسوخ ! وداعاً يا قديسين ! وداعاً يا صلف ، لا يوجد الا بشر ! » •

لنلاحظ في هذه الاثناء ان الجدل (السارتري) يقود صاحبه الى معارضة الاحسان المسيحي معارضة جد دقيقة بالفضيلةالايجابية الوحيدة في الاخلاق الوجودية : فضيلة التضامن • اما الاحسان المسيحي فانه محبة القريب بالله ، ومحبة الله بالقريب — وهو حب ، ولذا فانه يزدهر ، من ثم ، في ضوء المطلق • ان في كل كائن بشري انعكاس المطلق الالهي، وهذا الانعكاس هو الذي يحدد التسويغ الاسمى في حبي ، ويجعله حباً روحياً مقدساً • وعلى العكس نجد التضامن عاطفة مباشرة تنجم عن صلة وجودية بين (انا) ي والآخرين • التضامن شعور نسبي تماماً، شعور حيوي ، زمني ، يولد بصورة عفوية من وضع في التاريخ ووضع يمكن دائماً استخدامه في التاريخ — وهذا في نظر (سارتر) يخالف الاحسان • والواقع ان (سارتر) لا يكتفي بترجيح التضامن على الاحسان ، بل يعتبر ان التضامن ناجع محسن ، وان الاحسان شلل ضار • وان اقحام فكرة مطلق وسرمدي في الحب لا يمكن الا انيؤدي

الى انحراف وثبة القلب نحو هذا الوهم الذي هو الله ، ومن ثم ، يمنع حب البشر حباً متواضعاً جسدياً مشخصاً . وان الحكيمة (هيلدا) هي التي تبين المعنى العميق للمسرحية حين تصيح : « لا يمكننا ان نحب إلا على الارض ، وضد الله » . ولا تمثل هذه الصيحة كفراً شديدا في نظر المسيحي وحسب ، بل ان كل مراقب شريف للتاريخ يرى انها خطأ صراح يضاد الحقيقة تماماً . فمهما كان من أمر اخفاق المسيحيـة في التاريخ ، ومهما عظمت خيانة المعمّدين للانجيل عبر الزمان ، فان من الغلو قليلا ، بل من غير الامانة ان تقول ان كلمات (المسيح) طردت الحب من التاريخ ، وعلى الاقل فان كلماته دفعت ملايين «السامريين»[1] الطيبين الى العطف على آلام عشرين من القرون . اجل ان المسيحيين ، كل المسيحيين ، لم يمارسوا الفضيلة المسيحية ممارسة الابطال : وفي وسع أي انسان ان ينهض ليفضح تقاعسهم وانهزامهم ورياءهم أيضاً . وانا لا اقول كذلك ان اللامؤمنين ، العقول الوضعية اللامتدينة ، ابطال الضمير العلماني ، عاجزون عن محبة اقرانهم والاقبال على عونهم ونجدتهم: بل ان ثمة محبة النوع البشري هي محبة علمانية متحمسة نقية . ولكن يظل من الواجب النهوض في وجه المجاهرة بالكذب الوقح : فعنـدما يجعل (سارتر) القول الآتي يتكرر كل مساء أمام آلاف المشاهدين المشدوهين من منبر المسرح : « لا يوجد حب الا على الارض ، وضد الله » ، فانه لا يكذب الميتافيزياء ولا اللاهوت ولا روح التحيز بل انه يكذب التاريخ ، وهو يعرف ذلك .

ملاحظة اخرى مهمة . ان « الشيطان والاله الصالح » تختلف عن « الايدي القذرة » اختلافاً بيناً من ناحية الدلالة السياسية وبالنسبة الى فلسفة التاريخ . ففي « الايدي القذرة » ، كان (سارتر) ، في ابتعاده

---

(١) Samaritains

الاكبر عن الشيوعية ، يحبّذ عدم انخراط الفرد الذي يريد ان يظل نقياً . ان (هدرر) [1] الشيوعي هو الذي يبشرّ في هذه المسرحية بما سيغدو المحور الاخلاقي في المسرحية التالية : ألا وهو تسويغ عمل انساني ناقص بمنحى التاريخ . يقول : « لا سماء . لا يوجد عمل ينبغي تحقيقه . وهذا هو كل شيء » . وعلى العكس فان (هوغو) وهو يختار نفسه على انه « لا يتجلب » ، كان يؤكد مطلب ضمير لا يرضى فوق نقائه شيئاً ويضع نفسه في مستوى متعالٍ على التاريخي ، وهذا ما يسبغ عليه أخيراً صورة البطل . اما في « الشيطان والاله الصالح » فان المنتصر الحقيقي هو (ناستي) [2] رئيس الحزب الشعبي : انه يضمّن المسرحية لغة ماركسية ويعلن ان من الواجب ألا ينفصل البتة عن الفقراء مهما حدث ، ولكنه يرضى بسائق اساليب التنفيذ وعن طريق الخضوع لقوى التاريخ ، ان يحارب وهو يشعر بأنه لا يحبّذ الحرب . ف (ناستي) يفوز بجانب الحق ضد (هنريك) ، خوري الفقراء — (الخوري — الفقير) كما يعني (سارتر) — حين يجهد (هنريك) للتوفيق في ان يتكامل عمل تاريخي مع صوفية حب الله . و (ناستي) يدرك الصواب أيضا دون (غوتز) لان (غوتز) يزعم انه « فوضوي يميني » على ما يرى (سارتر) ، وانه يثابر في طلب المثل الاعلى المجنون، مثل كمال فردي يتحقق في مطلق مجرد . وأخيراً ينجز (غوتز) رسالته وينقذ نفسه حين يقبل الاضطلاع بحرب (ناستي) ، على الرغم من نفوره من تنبؤه — كما يزعم (سارتر) انه ينجز اخلاقه ويخلص من النتائج الذاتية لميتافيزيائه في موضوع الحرية الخالصة وهو يبشرّ بالتحالف السياسي مع الشيوعيين في مستوى العمل ، في حين انه يرفض اتساعات كثيرة للماركسية ويحتفظ بحرية تقديره لسياسة الحزب أو سياسة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية . ان مثل هذا

(1) Hœderer (2) Nasty

الموقف العملي لا يخلو من اثارة طائفة من التناقضات هي التي سيجهد (البير كامو) لاجتنابها ...

البير كامو يغلب وثنا

يرى (كامو) ، كما يرى (سارتر) ، ان الله غائب عن التاريخ ، وان مسألة ارجاعه ليست ذات موضوع . ولكن مؤلف « الانسان المتمرد » [1] يلاحظ ان انسانية القرن العشرين تستعيض عن الله بشيء أعظم خطراً : انها تؤله التاريخ ذاته . وهذا ما يسمى « التاريخية » وهي بوجه الدقة نقل المطلق الى التاريخ . اما استدلاله على ذلك فهو :

كان المطلق متمثلا في الله خلال القرون التي سادها الايمان المسيحي، وكان الانسان يلفى بصورة موقوتة أمنه ونظامه بتقديم خلاصه الابدي على سعادته الارضية . ثم كف عن الايمان بذلك وعاد بقلبه كله ، وبأمله كله ، شطر الارض . غير انه لم يجرأ في بادىء الامر على تفريغ السماء: بل ترك القيم الاخلاقية التي ترمز اليها كلمة (الفضيلة) معلقة فيها . (الفضيلة) ، أخذ الانسان بعبادتها مثل (روسو) و (سان جوست)[2] ، او أخذ يجدّف عليها ، مثل « المتأنقين » [3] و (بوذلير) ، ولكنه احترم في اول الامر هذا التعالي ، احترمه تارة مثل (اليعاقبة) الذين يبررون بها (الارهاب) ، وتارة مثل (الابداعيين) الذين تمردوا عليه . ففي هذه المرحلة الاولى من مراحل التمايز والاستقلال الانساني لم يكن الامر يتصل بعد بقتل الملك والاستعاضة عنه كأمير مقدس بسلطة ارادة الشعب العامة ، « وبخلق نظام شامل يقيم اتجاها محلياً شطر الخير » ، على حد تعبير (سان جوست) . ذلك ان (الخير) لا يزال موجوداً ، بل وان « الله لم يمت تماماً في نظر (اليعاقبة) ، كما انه لم يمت تماماً في نظر

---

(١) L'Homme Révolté (٢) Saint-Just (٣) Dandies

(الابداعيين) • انهم ما زالوا يحتفظون بـ (الكائن الاسمى) • ولا يزال (العقل) وسيطاً بنوع ما » •

بيد ان القرن التاسع عشر سيشاهدتغيراً جذرياً في الضميرالانساني• وسيفكر ثائرون أكثر استنارة، وبمنطق أكثر اتساقاً، ان الله لا يمكن ان يكون نصف ميت • فاذا لم يكن المطلق في الله ، فانه لا يمكن ان يكون الا في الانسان • واذا لم يوجد الله ، فان كل شيء مباح ـ وهـذا ما سيخلص الى القول به الملحدون ، « ممسوسو » (دوستفسكي) • ويعتقد (شترنر) [1] ان الله ان لم يوجد فان الفرد هو (الوحيد) • اذا لم يوجد الله فان الانسان كائن وحيد بقدرته وبيأسه ـ وان قدرته ستشفيه من يأسه ، وسيجاوز ذاته ليصنع من ذاته آلهاً ، وسيرقص في اللحظة ، واللحظة هي التي ستكون أجمل لانها غير خالدة : ذاك هو درس (نيتشه) • ولن نلبث ان نسمع باتفاق اساتذة ، على القول ، بالرغم من اختلاف طرقهم ، بتحرير غرائز الانسان ، وبهدم تعالي القيم الروحية ، وبتأليه دوافع الحياة ، أي ، في ختام التجربة ، بمنح اعمال الموت والقتل حظوظها • على ان شخصاً سيلعب في هذه الثورة العدمية المسرحية دوراً حاسماً : هو (هجل) • فما دام الوجود الخاص للفرد يحمل في ذاته القيمة العليا فان في وسع الانسان ان يفكر ويعمل على مقياس الانسان • وقد أدخل (هجل) آلهة جديدة : (التاريخ) • فهذه الحركة الكبرى التي ستعمل على تعاقب اشكال العالم وصوره تتمتع بحق ذاتي ، وهذا الحق حق آلهي • وليس للانسان ان يوجهها وانما يستسلم لها • ولا بد ان يضمحل في مجرى الاشياء الضروري ما يحسب الانسان انه حر في فعله : المغلوب مخطىء ، والغالب مصيب • يقول (كامو) : « ان المنطقية الهجلية الموسعة تبرر الامر الواقع ••• ولكن

(١) Stirner

حذف القيم الاخلاقية كلها وحذف المبادىء والاستعاضة عنها بالامر الواقع ، وهو ملك موقوت ، وان كان ملكاً حقيقياً ، لم يقدر على انجاب غير الكلبية السياسية » • وهكذا فان الرجوع الى التاريخ واعتباره ينبوع القيم الوحيد قد « افرغ السماء واسلم الارض الى قدرة بلا مبادىء » ؛ وحلت « ارستقراطية النجاح » محل «ارستقراطية التضحية» — وفتح الباب امام عهد القتل •

وقد يؤخذ على (كامو) انه بسّط التفكير الهجلي أو نهجّه ؛ ولكن المسألة غير ذلك : اننا لا نسأله على اعتباره مؤرخ فلسفة ، بل على اعتباره شاهداً على ضمير عصره • والجدير بالذكر ان تأويله يتفق مع نظرات (بول ريكور) (١) في مقال مهم نشر في مجلة (الفكر) (٢) • فكلاهما يرى ان الانقطاع العظيم في جريان المدنية الحديثة قد تمّ عندما زعمت فلسفة التاريخ انها تلقى تعالياً حقيقياً وتعريف الغايات القصوى التي كان مقرها الله أولا في نظر الميتافيزياء واللاهوت — يقول (كامو) : « لقد تجسدت الحقيقة والعقل والعدالة فجأة في صيرورة العالم » • ويذكر (كامو) و (ريكور) بمفردات واحدة تلفت الانتباه ان فلسفة التاريخ شاءت ان تؤلف وحدة النوع البشري ، ولكن الوحدة تفترض الارتباط المتسق بين ارادات حرة ، وان الحرية تموت عندما تنزع فلسفة التاريخ الى التجلي في أوضاع دولة طاغية حتماً ، ما دامت الاخلاق لن تكون سوى اخلاق النجاح ، وما دام التقدم تقدم غاية في الزمان • ان التاريخية ، أو نقل القيمة المطلقة الى التاريخ ، لا تتجه شطر الوحدة ، أو نحو التأليف المتسق للنوع البشري ، بل الى المجموع ، أي الى سحق الواحد بالكل • يقول (كامو) : « المجموع غير الوحدة:

---

(١) Paul Ricœur

(٢) « الحقيقة والكذب » مجلة (الفكر) Esprit كانون الاول ١٩٥١

وان حال الحصار ليست بحال المصالحة وان شملت العالم باسره » .
بيد أن من الواجب النظر من هذه الزاوية التي تنكر تعالي التاريخي لادراك معنى المعارضة التي لا يفتأ (كامو) يقول بها في تباين المتمرد عن الثائر . وفي هذه النقطة يخالف (سارتر) مخالفة منهجية ويتهمه بالوقوع هو ذاته في التاريخيـــة . ونحن نــذكر ان (سارتر) في « بودلير » كان يقحم بوضوح التمييز بين المتمرد الذي « يصون سلامة الاسراف الذي يألم منه ابتغاء التمرد عليه » وبين الثائر « الذي يريد تغيير العالم وتجاوزه باتجاه المستقبل ، شطر نظام قيم يبدعها » . التمرد في نظر (سارتر) مجرد حركة عاطفية لا نجوع لها ، وهي تفسد بالضمير السيء ، وتدنو مرتبة عن الثورة التي تدخل وحدها دنيا التاريخ حين تحمل اليه شعار « حرية البناة العظمى » . ولكن الاشياء تبدو على نحو آخر عند (كامو) ، يقول : « الثائر متمرد في الوقت نفسه ، او انه لا يكون عندئذ ثوريا ، بل شرطياً وموظفاً يقف في وجه التمرد . ولكنه ان كان متمرداً فان امره ينتهي بالنهوض ضد الثورة » . وبعبارة اخرى ، يتمرد الانسان على النظام الاجتماعي باسم العدالة ؛ فاذا نجح تمرده صار ثورة ؛ ولكن الثورة هي الاستعاضة عن نظام اجتماعي بنظام آخر ؛ وان كل نظام اجتماعي نظام ظالم اضطهادي ؛ واذن ، فان « كل ثائر لا بد وان ينتهي اما الى ان يصبح مضطهداً أو مبتدعاً » . والنقاء الاخلاقي والسمو الاخلاقي وقف على المتمرد . اما الثائر فانه انسان ظاميء للسلطة يضع نفسه في خدمة التاريخ ؛ والمتمرد هو الانسان العاشق العدالة وهو يضع نفسه في خدمة الفكر .

اجل ان (كامو) لم يعدم حججاً لدعم نظريته . فهو يظهر مثلا كيف ينحدر تمرد (نيتشه) ، وهو تمرد نقي المقصد ، تقشفي الوحي ، بطولي الالهام ، ينحدر الى « ارهاب لا عقلي » في الدولة النازية ، فينجب

نزوعه الى خلق (دولة) جديدة وشرطة جديدة ، ولا بأن يحملنا على قبول فرصة تصحيح الفوضى الراهنة بمثل هذا النحو من العمل : ويجب من الناحية النظرية على الاقل ، ان نعترف بأن الصواب حليف الثائر الذي يسعى الى ان يقيم بوسائل موائمة نظاماً أكثر عدلا ، ويسعى الى صونه والحفاظ عليه ، على نقيض الفوضوي الذي يميل الى ارضاء ضميره بالاحتجاج وباعمال عنف محض ولكنه عقيم •

وفي « اسطورة سيزيف » [1] يختار (كامو) بصراحة جانب التاريخ ويرجحه على جانب الله ، يختار السيف على الصليب ، والعمل النضالي على التأمل المشلول • ولكن الوضع يتغير في « الانسان المتمرد » [2] : انه يرجح جانب « الذين لايجدون الهدوء لا في الله ولا في التاريخ » • ويبدو له ان متصوفي الزمني عاجزون مثل متصوفي السرمدي عن طرد قلق العبث ــ انهم ليسوا بعاجزين وحسب : بل انهم خطرون لان صوفيتهم تصبح قاتلة حين تنتقل الى مستوى العمل • وهذا الموقف موقف سلبي تماماً ، وهو موقف يتعذر دعمه لو لا ان « الانسان المتمرد » ، في هذه الاثناء ، يضطلع بتراث كامل من الثقافة والحكمة يجعله حليف مذهب انساني دائم ، ان لم نقل جندي هذا المذهب ، وذلك كله لابسائق مطلب منطق صوري على قدر ما ينجم عن مطلب أوامر خفية صادرة عن ضمير مصبوغ بالصبغة الانسانية الصميمية • ان تمرد (كامو) هو ، بالدرجة الاولى ، احتجاج على العالم ، احتجاج يجأر به باسم قيم ، أي انه بجوهره روحي وعقلي • بل انه كذلك الى حد انه ينتهي باستيعاب معرفة دقيقة خالية من الوهم، هي معرفة شرط الوجود الانساني ومقياس الاشياء • انه رفض الاضطهاد ، رفض لا يعلنه حب العدالة واحترام الوسائل الصافية ، بل

---

(١) le Mythe de Sisyphe (٢) l'Homme Révolté

ينطلق من وضع مشخص ، ويبتغي الوصول الى نتيجة جائزة بصورة مباشرة ، ومن غير رجوع الى أية رؤية اخيرة على طريقة الانبياء . «ليس التمرد نزعة ابداعية بل انه على العكس تحيز النزعة الواقعية الصحيحة» . وهو ينتهي الى ان يعايش ، على نحو المفارقة ، فلسفة الرضى بالحدود ، يعايش حكمة الاغريق القائلة بالاعتدال [1] . واما اهداء « الانسان المتمرد » الى (جان كرنيه) [2] فانه يدل على انه لم تخل من نتيجة تربية (كامو) على التقاليد الهلينستيه ، وانه قد تدرب على التفكير في الشمس ، وعلى ساحل البحر المتوسط . وحين تنتقل هذه النسبية الميتافيزيائية الى مستوى السياسة فانهـا تقود الى مذهب واعٍ ضد الماركسية والى ترجيح النقابية الثورية التي تلاحق تحول العالم بدء من الجماعة المهنية ولا تنزع البتة الى ابداع (دولة) آمرة وجمعية شأنها شأن (الكنيسة) . ويؤخذ من ملاحظة هامشية ان المصلح الاجتماعي من الطراز الاسكندنافي لا يمجه « الانسان المتمرد » . ويقود اعتناق الهلينستية في حقل الاسلوب الى امتداح الاسلوب المدرسي . ولا ريب في ان (كامو) ، مثل (مالرو) ، يرى في ابداع الفنان ، ولا سيما في ابداع الروائي ، صوناً وانتقاماً من القدر : « ان الانسان المبدع يزوّد نفسه اخيراً بالصورة وبالحد المهدىء الذي عبثاً يسعى اليه في شرط وجوده . والقصة تصنع قدراً بحسب الطلب . وعلى هذا النحو يباري في ميدان الخلق وينتصر موقتاً على الموت » . ولكن هـذا التعويض وذاك الدفاع لايكونان فعليين الاعلى قدر مايقيم الفنان في

---

(١) يستشهد (كامو) بهذا التعويف المرموق الذي يستقيه من (لازار بيكل) Lazare Bickel : « الذكاء هو الملكة التي تمنعنا من ان نمضي الى الطرف الاقصى مما نفكر به كيما يظل في وسعنا القدرة على الايمان بالواقع » . اليس في ذلك ، ان لم يكن نفي التمرد ، على الاقل حذف الخميرة الفكرية التي تعطيه حدته ؟

(٢) Jean Grenier

آثاره النظام ويبعث الامل ، حيثما تكون الحياة فوضى ويأساً ــ أي في حدود ما يتخذ من ترويض ابداعيته شيئاً مدرسياً بحسب نصيحة (جيد) ؛ ذلك ان « النبوغ تمرد يبدع اعتداله الخاص » و « انه ، على عكس ما يقال اليوم ، لا عبقرية في النفي وفي القنوط المحض » . من الذي يتحدث عن القاء هذه المدنيــة في براثن الموت ؟ ان الامر لا يتصل بالموت وبالقتل، بل ببذل قوى المدنية كلها في سبيل «انبعاث» . وتلك هي سلفاً الكلمة ــ المفتاح في المقال ــ المنهج الشهير الذي قذف به (عمانويل مونيه) [1] مجلة (الفكر) سنة ١٩٣٣

ولكن ماذا ينبغي ان يؤلف روح هذا (الانبعاث) في نظر (كامو) ؟ اننا نخطيء كثيراً اذا استخلصنا من اتصاف نقــده للتاريخ بالصفــة الروحية انه ينوي بنية خفية الالتحاق بالمسيحية أو ايقاظها، وان خلاصة « الانسان المتمرد » تتفق من ناحية اخرى مع خلاصة التفكير الــذي ينساب في نضد محاولات كتاب « الصيف » [2] ، وهي خلاصة تضاد في صميمها المسيحية . وقد بدا أن (كامو) هو الذي ينفرد من سائر انبياء الوجودية بالقدرة على ان يؤلف مع المسيحيين الحوار الأنفع ــ وذلك ناشيء بلا ريب عن نوع من الانحدار (التولستوى) في تفكيره، كما انه ناشيء عن شعوره الحي جداً بالحياة الباطنية ؛ ولكن قليلاً من الفكر المستنير يكفي لادراك ارتكاز مذهبه الانساني على محور النوع البشري، ومن الواجب ان يحمل محمل الصدق تعريفه لكتاب «الطاعون» [3] على انه اعظم آثاره التي تضاد المسيحية . اجل ان صفحات كثيرة من « الانسان المتمرد » قد تعتبر بمثابة تعويض عن ذلك ؛ وان النظرية التي تتجلى في السطور هي ذاتها تنحى في منحى ديني كما يبدو . فعندما كتب (كامو) ان « التمرد ينشأ من رؤية اللا عقل ، ينشأ من

---

(١) Emmanuel Mounier (٢) l'Eté (٣) La Peste

شرط ظالم غير مفهوم » ، وان « وثوبه يطالب بالنظام عبر الاختلاط ، وبالوحدة وسط ما تم انجازه ومضى » ؛ وان التمرد « يصيح ويطالب ويريد زوال الفضيحة » ـ اذ ذاك يجوز النظر الى عنف هذا الاحتجاج ازاء الشر وكأنه نداء لمملكة الله . ولكن (كامو) يسارع الى القول : « التمرد صنع الانسان العارف الذي يعي حقوقه .. والانسان المتمرد هو الانسان الموجود امام المقدس او بعده ، الحريص على المطالبة بنظام انساني تكون الاجوبة كلها فيه اجوبة انسانية » ـ وهذا لايدع أي مجال لبقاء أدنى عدم طمأنينة حول النزعة الطبيعية الرئيسية في تفكيره.. وحين نراه يكشف بقوة عظمى عن الرباط الوثيق الــذي يشد تفجر الاغتيال في العالم الحديث الى التبشير « بقتل الاله » ؛ وعندما نستمع اليه وهو يفضح شروط العدمية المستندة الى الالحاد والى فلسفة تاريخ تقود البشرية الى الكارثة لانها تنفي الشعور بالتعالي وتغفل نظــام الروح ؛ وحين نقرأ اخيراً « ان في وسع فلسفة السرمدية وحدها ان تبرّر عدم ـ العنف في عالم اليوم » ، فاننا قد نحسب انفسنــا في حضرة فكر سيولي وجهه شطر الله لانقاذ الانسان . ـ كلا ! وهنا نلفي ان اسطورة الهلينستيه تحتاز قوتها كلها: فقد علّمنا الاغريق انالانسان هو مقياس الاشياء جميعاً ، وانه لا يقدر ان يعتمد إلا على نفسه ، وان عليه ان ينقذ نفسه بدون آلهة ، أو ضد الآلهة . وكذا يتجلى خطــأ « الثوريين » : الارهابيون اليعاقبة ، الفاشيون أو الماركسيون ، وهم يبررون القتل ويضاعفونه ، فليس خطؤهم انهم لا حظوا موت الله ، مادام (كامو) يعتبر ذلك حادثاً واقعاً ، بل انه في زعمهم الابقاء على صفة القداسة في الاخلاق والسياسة ، ونقلهم المطلق الى حظيرة قيم نسبية ، سواء بتأليه الفضيلة او بتأليه القوة او بتأليه التــاريخ . ان درس الاغريق ماثل في تعليمنا فلسفة الحدود ، معنى النسبي والواقعي المشخص ، والتعلق الوضيع المتحمس بالارض وحب الحاضر الــذي

يزيفه انتظار موهوم يرقب خيراً سرمدياً او كمال التاريخ . « لايكون المرء انساناً الا اذا رفض ان يكون الهاً . وان المتمرد يرفض الالوهية على هذا النحو ، وفي أوج الفكر ، ليسهم في النضـال وفي المصير المشترك » .

ان خلاص انسانية اسلمتها ميتافيزياء عدمية الى اخلاق قاتلة لايمثل البتة عند (كامو) في عودة الفكر الديني ، بل يتجلى على العكس في نزع الصفة القدسية عن الثقافة والفكر . ولذا يحكم على المسيحية حكماً مطلقاً في هذا المجال . ولكن ذلك ، من ناحية اخرى ، لايصح الا بالانطلاق من تأويل رسالتها تأويلاً متحيزاً خاطئاً . كيف يستطيع (كامو) مثلاً بآن واحد ان يؤكد من جهة اولى بان المسيحية تعلّم العبد الصبر وتنزع الى مصالحة الانسان مع الله المسؤول عن الشر وعن الموت ، وان يؤكد من جهة اخرى بان « تاريخ التمرد في العالم الغربي لا ينفصل عن تاريخ المسيحية » ؟ وعندما يأخذ على المسيحية انهـا « تؤجل الى ما وراء التاريخ الشفاء من الشر ومن القتل اللذين يبعثان ــ على الرغم من ذلك ــ الالم في التاريخ » ؛ وعندما يقيم تعارضاً مطلقاً بين (الصليب) و (السيف) ، وكأن انتظار الخلاص الابدي ينبغي ان يحرم المسيحي من التأثر بعناية النظام الزمني ويجعله لايلتفت أو لا يكترث بفضيحة الظلم ؛ اذ ذاك يضع (كامو) بين قوسين شطراً رئيسياً من تاريخ الغرب ، وينسى ان الصلاة الاساسية في المسيحية ، الصلاة الربية (١) ، تطلب ان تتحقق ارادة الله وان يأتي ملكوته « كما في السماء كذلك على الارض » . وهذا الفكر التركيبي ، والواقعية الجريئة التي تعجبه في الفكر الاغريقي ، أليس في وسعه ان يكتشفهما ايضاً في صميم اللاهوت المسيحي ، في سر (التجسد) الذي يؤكـد تضامن الفكر والروح ، السرمدي والتـاريخي ؟ انني أجرؤ على ان

(١) Pater

أمضي في القول الى ابعد من ذلك : عندما يرضخ المرء لتعاليم الصلف الادبي التافه جداً ، ويختار الشاهدين على التمرد الانساني ، والامثلة على صانعيه ، من امثـال (ساد) [1] و (لوترامون) [2] و (سان جوست) و «المتأنقين » ، فهل من العدل التغاضي عن سائر المتمردين ، عن اولئك الواعين المتعمقين ذوي الدلالة وهم القديسون ؟ ذلك ان القديس المسيحي ، اخيراً ، وهو الذي يتطلع الى الرغبة عبر الخلاف ، والى الاستمرار عبر الزوال ، والذي ينافح ضد الشر واللا عقل والظلم في ذاته وخارج ذاته ويتحـدى الموت قائلاً : « ايهـا الموت ، اين انتصارك ؟ » وهو الذي يزعم ان في وسعــه ان يكسر قيود الذكاء والروح المتجسدين ويبلغ ، بالتأمل ، معرفة المطلق ويدرك الحب الكامل، او انه حين يعمل عمل المؤسس يرتمي باسلحة الرحمة لنجدة المتألمين والمضطهدين ، فان هذا القديس المسيحي هو بالدرجة الاولى «الانسان المتمرد » في صورة البطل الروحي الذي ينتهي (كامو) برؤيته .

حوار (سارتر) و (كامو)

انا ندرك دعامة الضمير التاريخي المشتركة بين (كامو) و (سارتر) انها لاتقوم على تحدي المسيحية تحدياً منهجيـا وحسب ، بل تمثل بصورة اعمق في رفض معلل للمطلق . وهذا في الواقع هو مبدأ كل اخلاق وكل سياسة تتجه الى تقديم الوجود وترجيح جانبه . وحين يمتدح (فرنسيس جنسون) [3] ، وهو اذكى نقاد جماعة « الازمنة الحديثة » [4] ، (مونتين) لانه فهم ان « المطلق ليس سوى النسبي

---

(١) Sade (٢) Lautréamont (٣) Francis Jeanson

(٤) Temps Modernes

من حيث اعتباره نسبياً تماماً (1) ، فانه يقدم لنا مفتاح المذهب.

غير انافتراق الامزجة الفردية يتدخل ويعمل، لحسن الحظاجمالاً، على افساد الآليات المنطقية الصرف وعلى تنويع النتائج الناجمة عن مبدأ واحد . وقد حرص (سارتر) و (كامو) كلاهما على نزع الصفة القدسية عن التاريخ وابتعدا كلاهما اثناء الطريق عن مشروعهما ، وان حصل ذلك عن طرق متعـارضة : التحق (سارتر) عمليـاً بالمفهوم الشيوعي للحتمية الثورية ، وعاد (كامو) الى قناعة المذهب الانساني بتعالي القيم في ضمير الانسان المتوحـد المنصرف عن العمل الزمني والمؤمن باوامر الروح وتعاليمه فيما فوق التاريخ . وليس بمستغرب ان يجلو نشر كتـاب « الانسان المتمرد » هـذا الافتراق بمنـاظرة مسرحية (2) . ولا بد من الاعتراف بان كتاب (كامو) يستلزم هذه المناظرة لانه ينطوي على جانب ضعف ومفارقة . فمن المفارقة اتخاذ التمرد ارتكاس الانسان الواعي المبدع ، الارتكاس المميز ، ثم الانتهاء في الخاتمة الى امتداح الاعتدال الاغريقي واتباع القواعد المدرسية ، والنقابية الحيادية سياسياً ، والاشتراكية الاصلاحية . ومن الضعف معارضة التمرد بالثورة على وجه قريب من معارضة (بيغي) الصوفية بالسياسة ، والالماع الى ان الفكرة لا بد وأن تنحط عندما تتجسد في الافعال وفي الاوضاع ، والاستسلام للابداعية الضارة التي ترى النقاء في الاخفاق ، ثم تمثل التاريخ على انه سيء بجوهره ، ولو ادى ذلك الى المجازفة بدعوة الحكيم الى الامتناع والاحجام .

ولذا فان حملة « الازمنة الحديثة » لم تكن حملة مباغتة . وكيف

---

(1) انظر « مونتين بقلمه » Montaigme par lui-même, le Seuil, coll. « Ecrivains de Toujours » .

(2) انظر : الازمنة الحديثة ، آب ١٩٥٢ .

ندهش من قلق اصدقاء (كامو) الاولين الذين تربطهم بـه ذكريات مشتركة في حركة (المقاومة) كما تربطهم به الاراء السياسية التي تجلت لدى اولى اسر تحرير صحيفة (النضال) [1] والتكافل برفض النظام البرجوازي بالاستناد الى اسباب معقولة . ولو قبلنا فرضاً — وان (سارتر) يستطيع ان يعتبر على حق ان (كامو) يتفق واياه في هذا المبدأ — ان بنية المجتمع الراهن سيئة تضطهد جماهير البشر وتسلبهم حريتهم وكرامتهم فان من البديهي ان امتـداح روح « التواضع » ، والحذر ، والخضوع للقوانين والوقائع ، يعود بالنفع الاكبر ، والسرور الاعظم على طبقة المتميزين والمحتكرين منه على المستغلين والمسترقين. ومهما كان من امر استقبال الرأي اليميني والرأي اليساري لكتـاب « الانسان المتمرد » ، فان مما لاينكر أن من بعض نتائج هذا الكتاب انه كان يجلب الى طاحون المحافظة الاجتماعية ماء مجلوباً ببراعة من ذرى ينابيع التصوف الثوري . يقول (جنسون) : « انكم تذهبون الى ان (الثورة) لايمكن ان تبقى ذات قيمة ، أي متمردة ، الا بثمن اخفاق كامل وشبه مباشر ... وبالاجمال لقد اخترتم الهزيمة واسبغتم عليها النعمة » . ويردف قائلاً : « انكم تعمـدون الرضوخ باسم التمرد ، واذا به متحرراً من الاسر » . وهذه طعنة اخرى من جانب المؤمنين بان النظام الراهن غير عادل وان من الواجب قلبه وان للانتقاد قيمة وللحملة قوة . ذلك ان الانسان كائن في التاريخ ، فاذا رمى الى ان يقصر تمرده على مجرد صيحة احتجاج لاتكلف نفسها عناء التجلي في افعال انحاز في الواقع الى جانب تجميد البنيات . ان (سيزيف) يهمل رفاقه في النضال ويعود الى تذوق استشهاده المتوحد وجهـده اللامجدي بنبالة . انه يتحمس ليخجل الالهة ولكنه لايخدم البشر .

---

(١) Combat

ولكننا نتساءل على الرغم من ذلك عمـا يهب خصوم (كامو) لمكافحته بغضب مشرق ولبوس من العقل قائلين هل يمثل ذلك تفكيره الصحيح ، ام انه بالاحرى الصورة المختزلة المبسطة الزائفة التي راقه تقديمها لهم ؟ كتب (جنسون) : « ان الموقف الذي تبشرّ به يقوم على الحفاظ على التاريخ ، ولكن مع الامتناع عن مبـاشرة أي شيء فيه » • فهل هذه السلبية المطلقة تمثل في الواقع درس « الانسان المتمرد » حقاً ؟ اننا لانستطيع ان نزعم ذلك بأمانـة • وان (كامو) لا يحيـد عن الحق حينما يجيب بان كتابـه لا يكافح التاريـخ بل « التاريخية » ، أي حمل المطلق الى التـاريخ • وسواء أوّل الفكر الهجلي على نحو صحيح ام غير صحيح ، فان من الثابت ان الفكرة الرئيسية في « الانسان المتمرد » هي فضح النزعة الحديثة الرامية الى اعتبار التاريخ حركة ضرورية ، جدلاً يسعى قدماً نحو انجاز نظـام انساني متأله، نزعة تتجدد فيفلسفات القرن العشرين السياسية الكبرى وتبررّ بيسر عدم اخلاقيتها واوضاعها « الارهابية » مادام من المقرر في افق التاريخية ان كل قدرة تثبت ذاتها انما يُفرض فيها انها تعمل على انجاب ما ينبغي ان يحل محل الله ، وان الجريمة هي دائماً وسيلة جائزة، وان النجاح يبررّ موضوعه على الدوام • ولئن تحدى (كامو) الثائر فذلك بسبب السمة المقدسة التي يضيفها الثائر على رسالته، فلا يعترف، من ثم ، بحدود تقيد اعتساف قدرته ، وينظم الطغيان تنظيماً مباشراً حين يزعم خدمة الحرية القادمة • ولئن كان يخشى من نفي (سارتر) واتباعه للطبيعة الانسانية فذلك لانه ، وهو عاجز عن الاستمرار في ثورته باسم حقوق متعالية تملكها هذه الطبيعة ، لايملك سبباً لصنـع ما يصنع الا خدمة التاريخ على وجه اختباري ؛ ولكن شيئاً لا يبدو له اعظم خطراً من حمل قيمة المطلق والسرمدي على شيء نسبي وزمني : ان العدمية والارهاب يقفان دائماً في نهاية هذا الدرب •

طغياناً هادماً مبيداً ، ينجب عدوى القتل . وكذا ينتهي تمرد (ماركس) الى « ارهاب عقلي » يتجلى في الدولة الستالينية التي « تسوّغ الظلم خلال حقب التاريخ كلها » [1] من اجل عدالة مؤجلة على طريقة الانبياء الى مستقبل لا محدود شأنه شأن الحياة الابدية التي كان يؤمن بهـا المسيحيون . ولكن ثمة نقطة تظل غامضة في تفكير (كامو) : هـل ينشأ انحدار التمرد المحض الى ثورة اضطهاد عن خطأ ميتافيزيائي لدى المتمرد ــ ومثلا هل اسهمت عدمية (نيتشه) في تخمر الوقاحة الهتلرية؟ هل ان اعتناق تفكير (ماركس) للاسطورية البرجوازية في الانتاج هو الذي دفع الدولة الشيوعية الى ان تغدو « ذلك الوثن الواغـل في السلطان ؟ » ــ أم ان الانحدار محتوم وان الدولة بذاتها امر سيء وان الحكومة ــ كما قال (برودون) [2] ــ لا يمكن ان تكون ثورية لسبب بسيط هو انها حكومة ؟ الظاهر ان تفكير (كامو) يجنح الى الفرضية الثانية وان أحداً لا يجرؤ على التأكيد بأن تفكيره يمتنع دائماً على الانزلاق في فتنة الغلو المثالي ، وانه لا ينزع نحو شكل الفوضوية العاطفية وهي نتيجته الطبيعية . يدل على ذلك مثلا اعتقاده بأن من الواجب ان نبحث عن التعبير عن التمرد النقي السليم الوحيد لـدى الارهابيين الروس في عام ١٩٠٥ ــ هؤلاء « العادلون » [3] الذين مجدّهم في المسرح ، انهم « قتلة مرهفون » يقومون بدون حقد بالحركة الرمزية التي هي حركة القتل ، ويعنون بانقاذ الابرياء ، ويتخذون من العمل الارهابي مبدأ تواصل اخوي ويقدمون حياتهم بفرح قرباناً في سبيل تعديل الاغتيالات التي يضطلعون بها . ولكن (كامو) ، ان قلنا الحق ، لا ينجح باقناعنا بأن هذا الارهاب القاتل يغدو شرعياً منذ عدم

---

(1) يستشهد (كامو) بجملة (ماركس) الآتية : « ان الهدف الذي يحتاج الى وسائل ظالمة ليس بالهدف العادل » . حتما . ولكن (لينين) و (ستالين) لا يستلهمان من وحيها .

(2) Proudhon

(3) Les Justes

بيد ان القول بان المتمرد ينبغي ان يظل خارج العمل الثوري حتى يبقى نقياً لان العمل الثوري مشوب بالتاريخية ، فهذا القول لا يتضمن بالضرورة ان من الواجب الامتناع عن « مباشرة أي شيء في التاريخ». ولنلاحظ بصورة موضوعية ان مؤلف « الانسان المتمرد » إن كان يدين طرائق «الاشتراكية التسلطية» فانه يبشرّ بطرائق النقابية الثورية، وهذا يعني انه اختار امراً تمكن مناقشته ، ولكن ذلك لا يعني ابداً الامتناع المنهجي . ونحن نشعر شعوراً مسبقاً هنا بان خلف حجة (السارتريين) توجد الموضوعة الشهيرة في الشيوعية ، موضوعة النجوع : هذه الموضوعة التي تعصف حقاً بعدد كبير من الرؤوس في صفوف (الفنومنولوجيين) مجترّي الادلة في دائرة « الازمنة الحديثة » أو في صفوف المتصوفة المسيحيين الشباب في « الازمنة الخمس عشرية » (١) . انهم يبدأون بالقول بان من الممتنع ان نفكر بموقف ثوري متسق ناجع خارج الطبقة العمالية وبدون اتصال في الرأي والعمل معها : هذا صحيح وان (كامو) لاينكره ابداً . ثم انهم ينزلقون بعدئذ فيقررون التطابق بين الطبقة العمالية وبين الشيوعية ، وان هذا الحزب هو الحزب الوحيد الموصوف بأهلية دعم ارادتها الثورية وتمثيلها : ولئن كان لذلك ظاهر الحقيقة في الديمقراطيات الشعبية وحتى في (فرنسة) وفي (ايطالية) ، فان له ظاهر الزيف بصورة بيّنة ومثلاً في (بلجيكة) و (هولندة) وفي (المانية) ولاسيما في البلاد (الانكلوسكسونية) و (السكندنافية) . فاذا فهمنا على نحو جيد بكلمة ثورة اليوم معنى الحركة التاريخية التي ستحرر باسرع وقت ، وبأقل التكاليف ، طبقة (البروليتاريا) ، وتكفل لجميع الناس افضل مستوى حياة جائز وما يترتب على (الدولة) نحوهم من واجبات

---

(١) La Quinzaine

واعتبار ، فان المسألة تظل مفتوحة لمعرفة هل طريق الشيوعية الستالينية هو الطريق الناجع الوحيد ، بله الاكثر نجوعاً • وفي وسع (كامو) بحرية تامة ان يعتبر ان نجاحاً اعظم وثوقاً رهن بطرائقه غير التسلطية ، طرائقه المتميزة بتواضع اكبر وتخلق اعلى • ففي سنة ١٩٥٢ لا يعني الامتناع عن العمل في منحى تاريخ شيوعي بوجه من الوجوه ان المرء يرفض العمل في التاريخ ، بل لا يعني ان المرء يستدبر الاشتراكية ذاتها (١) •

والحق اننا نرى بجلاء كبير المقصد « التقدمي النزعة » وراء حملة « الازمنة الحديثة » على « الانسان المتمرد » • وان بعض صيغ (كامو) المثالية تيسّر على الخصوم مهاجمتها : فهو ينصرف عن العمل الثوري ، ويبدو انه يبرّر الامتناع • ولذا ينزلقون من الحجة العامة التي يمكن الدفاع عنها : حجة اضعاف روح التمرد وجعلها باهتة ، ينزلقون انزلاقاً جد طبيعي الى لوم دقيق هو اللوم بمعارضة الشيوعية ــ وهذا اللوم يستند الى افتراض مسبق خلاصته ان بين الشيوعية وبين الثورة تطابقاً كاملاً ضرورياً ، وانه ، على حد تعبير (كامو) بتهكم « من لم يكن ماركسياً فانه يتجه صوب اليمين صراحة أو بخجل » • ولكن هذا الافتراض المسبق ليس الا فعلاً يختاره الفكر •

ولنا ان نتساءل هل يحق لفلسفة وجودية تقر مبدأ الجواز في التاريخ وتؤمن بحرية الانسان ولا تستطيع تصور اتجاه الثورة في غير منحى الحرية ، هل يحق لها ان تقوم بهذا الاختيار ؟ يجيب (كامو) : كلا ، ويشير بقوة كبرى الى التناقض النظري بين الماركسية والوجودية، والى الابهام السياسي الناجم عن تحالفهما • فاذا كانت الماركسية

---

(١) انظر في موضوع حظوظ اشتراكية المذهب الانساني والحركية الاصلاحية : (جول موك) : مجابهات Jules Moch, Confrontations, N. R. F. , 1952

حقيقية وجب ان تتسم حركة التاريخ الجدلية بسمة الضرورة . واذا كانت الوجودية حقيقية ، فان قوام سير التاريخ تعاقب اختيارات حرة دائماً ، وهذا السير رهن بالمجازفة على الدوام . بيـد أن « الانسان المتمرد » هو ، بالدرجة الاولى ، انسان مجازف لانه لايكف عن تأكيد مطلب الحرية المطلقة والعدالة المطلقة ، ويرفض في الوقت ذاته طمأنينة الشرطة الخطرة ، ومعمارية (دولة) حامية يخشى اضطهاداتها التعسفية. يقول (كامو) : « من المحال كل المحال ان ننكر كل نجوع وكل جد على الاشتراكية اللا ماركسية ، ومثلاً على اخلاق المجازفة التاريخيـة التي احددها في كتابي ، الا اذا فعلنا ذلك باسم ضرورة تاريخيـة لانجدها الا عند (ماركس) واتباعه » . ويردف قائلاً : « ان على نقاد « الازمنة الحديثة » ان يبرهنوا على « ان للتاريخ اتجاهاً ضرورياً وغاية ، وان الوجه البشع المخزي الذي يبديه لنا ليس سوى برقـع ، وان التاريخ ، على العكس ، يتقدم تقدماً محتومـاً ، على الرغم من تفاوت صعود وهبوط ، نحو هذه اللحظة من المصالحة التي تمكننا من القفز الى الحرية القطعية » . ولكن كيف تقدر فلسفة جواز محض على ان تضم في صدرها هذا الدليل وما هي الوسيلة التي تسوّغ بهـا مثلاً الامر الراهن في الواقع الحالي المشخص ، واقع الارهاب الستاليني باسم نظام عدل وحرية، على اعتبار هذا النظام محققاً في مستقبل لايمكن التنبوء به ؟ لنعترف بان لـ (كامو) هنا موقفاً أقوى : مهما كانت القيمة الذاتية لسياسة فوضوية او فوضوية ــ نقابية فانها تبدو اكثر ارتباطاً من الناحية المنطقية بميتافيزياء وجوديـة اكثر مما يمكن ان ترتبط عقيدة ماركسية أو بله حلف راهن بالحزب الستاليني . وكذا فان جواب (سارتر) متهافت . يقول : « حسبتم انني كنت أمنـح اقراني حرية فردوسية لاكبلكم بعدئذ بالقيود . انني ابتعد عن ذلك بعداً عظيماً يجعلني لا أرى حولي الا حريات مقيدة من قبل ، حريات

تحاول التملص من عبوديتها الولادية • ان حريتنا اليوم ليست سوى حرية اختيار الكفاح لنصبح احراراً » • اجل ؛ ولكن هذا الاختيار هو خضوع عملي لسياسة حبس الضمائر ، لاستعمار عسكري وطغيان « بوليسي » ، على ان من الضروري فوق ذلك البرهان ، او الادلاء باسباب جدية تحمل على الاعتقاد بان « دروب الحرية » تمر بهذا الاختيار الخطر : وهذا امر ينتمي الى مجال الايمان اكثر من انتمائه الى نظام البداهة العقلية • ولنسلّم بان (سارتر) يعترف بالصعوبة اعترافاً صادقاً • « ان ظاهر المفارقة في هذه الصيغة انما يُعبر عن مفارقة شرط وجودنا التاريخي ••• وان التاريخ لا يحفل باوضاع اشد بؤساً من اوضاعنا الا فيما ندر » • ولكن يظل من الثابت في نظره ان ادراك وضع العالم الراهن على انه « مبارزة حمقاء بين غولين مرذولين » وان موقف الامتناع حيالهما بسائق النقاء الاخلاقي انما يعني اختياراستمرار العبودية ؛ وعلى هذا النحو يلفى مذهب التقدم ما يسوّغه • اما (كامو) فانه يرى على العكس انهذا المذهبالتقدمي ينطوي على ابهاممرفوض: يقول : « ان العجز عن الاختيار بين الحرية النسبية وبين ضرورة التاريخ يجعلنا نخشى من ان يقودنا ذلك آخر الامر الى ان نفكر في منحى الحرية ونرجح جانب الضرورة ، اللهم الا اذا قيل لنا ان هذه المصالحات الجميلة بمثابة التزام رجولي ••• » • والشجاعة الحقيقية ، اذن ، هي طرح ارادة تحرير الانسان على انها مبدأ ، ورفض أية مصالحة ، وأي تساهل مع السلطات أو الانظمة التي تدبر الان الارهاب بذريعة انها تمهد سبل الحرية •

والواقع ان خصومة (سارتر) و (كامو) تنطوي على الاختلاف في تأويل معنى النقاء الثوري • ففي نظر مؤلف « الانسان المتمرد » ، النقاء تأكيد التمرد باعتباره مطلب مطلق اخلاقي ورفض انحداره الى

الواقع التاريخي ، أي من الناحية العملية ، رفض تجسده في بنية (دولة) جديدة . أما مؤلف « الايدي القذرة » فانه يرى على العكس ان النقاء ، او على الاقل الاخلاص الحقيقي ، يمثل في شجاعة من يجرؤ على صنع التاريخ ، حين يدفع ثمن ذلك ؛ وهو انما يسيء الظن بالمذهب الاخلاقي الذي يساير طمأنينة البرج العاجي ونبله ويعدّ مواطني شرف « لجمهورية الارواح الجميلة » . ونحن نعلم ان (كامو) يجانب عملياً هذه الانحرافات ولكنها رغم ذلك تؤلف في تفكيره امكاناً خطراً .

غير ان (سارتر) و (جنسون) لا يكتفيان بهذه الحجة . ولو انهما اخذا على (كامو) انه يحمل مثل هذا الاهتمام بالقيم الاخلاقية في مشروع التأثير في التاريخ ، وانه يجلّ الشرف والصدق والعدالة على نحو لا يدع امامه سوى فرصة الانكماش في العزلة والامتناع وتعقيم الفكر الثوري ، اذن لفهمنا على الاقل سبب رأييهما . ولكنهما يمضيان الى ابعد من ذلك : فهما لا يقتصران على فضح مثاليته وحدها على انها عيب في تفكيره ، بل يفضحان تعاليه ؛ انهما لا يفضحان فقط رجوعه الى منظومة قيم تتسم بسمة المطلق وان هذا الرجوع يشل العمل ، بل يذهبان الى نقد مجرد تصوره منظومة كهذه المنظومة ؛ انهما لايكتفيان برد نزعته الرامية الى المكوث خارج التاريخ من اجل الحكم عليه بدل صنعه ، بل ينكران مجرد تعليق فكرة (الخير) و (العدالة) فوق رأس التاريخ . وان من باب النظر السطحي الى الاشياء ان نحسب ان المزاج السيء لجماعة « الازمنة الحديثة » حيال « الانسان المتمرد » انما يفسر بمجرد خلاف سياسي . بل ان الانكار لا ينصب على فضح انحراف فكر ثوري بجنوحه الى الخضوع كما ينصب بالاحرى على فضح انحراف فكر وجودي ينزع الى الاعتراف بتعالي القيم .

لاشيء اعظم وضوحاً من تطور تفكير (كامو) باتجاه المذهب الانساني بانتقاله من « اعراس » (١) الى « الطاعون » واجتيازه المنعطف الحاسم في « رسائل الى صديق الماني » (٢) . فهو ينطلق من فلسفة تعتبر الانسان كل الانسان مغامرة زمنية ، وترى انه حر كل الحرية ليس باختيار افعاله وحسب ، بل وبخلق قيمه ؛ وسرعان ما وجد درب الحكمة القديمة : هذه الحكمة التي تؤكد ان الانسان من طبيعة روحية ، وان افعاله تخضع لمطلب عقل لازمني ، على نحو ان التاريخ لا يخضع لقانون ضروري غريب عن الارادات الحرة ، ولا هو بالامر الذي تتقاذفه نزوات الافراد ولا مبالاة الاهداف ، بل انه ينزع بالقوة الى تحقيق فكرة الانسان التي يتصورها ذهنه من قبل ان تجسدها الحوادث . نعم ان (كامو) يلتحق بهذه الحقيقة الرئيسية وهي ان الانسان ، وان كان ينتسب الى التاريخ ، فانه يجاوز التاريخ بفكره لان لفكره بعداً سرمدياً . وهذا مايصعب على (سارتر) الاغضاء عنه . دليلنا على ذلك الصفحات الست من « اجوبة الى (البير كامو) » (٣) حيث يبين ان اثاره مافتئت تستلهم ارادة التخلص من التاريخ. فـ(كامو) يبدو من محاولاته الاولى وكأنه معلق بين قلق العبث وبين ظمأ السعادة. ولكنه لايرى هذا العبث في الطبيعة بل في المجتمع ؛ وهذه السعادة انما يشعر بها على انها مطلب فردي وانه ينميها في بادىء الامر بصورة « انانية » . وان تمرد (سزيف) لا يتجه ضد الاسياد بل يتجلى في « الاستمتاع المتوحد الغامض » الماثل في ان لصاحبه حقاً ضد الكون الذي يسحقه . ولذا فان المأساة كل المأساة في نظر (كامو) تقع بين الانسان الفردي والطبيعة ؛ والوثبة كل الوثبة تتجه شطر « حكمة مريرة تجهد لرفض الزمان » ولا تعتبر الشرط الاجتماعي ولا التزام

---

(١) Noces   (٢) Lettres à un ami Allemand

(٣) Réponses à Albert Camus

الانسان تاريخياً . وعلى الرغم من ذلك فقد لقي (كامو) التاريخ في مرحلة « المقاومة » . وكان التاريخ هو محاولة النازيين اضطهاد العالم وزيادة الظلم الشامل : ويرى (سارتر) ان (كامو) كره التاريخ في اول الامر ولم يدخله إلا حانقاً لانه لم يكن في وسعه ان يفعل غير ذلك ولان التمرد على الشر ومقاومة النازية يمتزجان امتزاجاً مطلقاً . كتب الى الصديق الالماني : « لقد قمتَ بواجبك ، ونحن دخلنا التاريخ . ولم يكن من الممكن خلال خمس سنوات الاستمتاع بزقزقة العصافير» . وعلى هذا النحو « سلخ سنواته التاريخيـــة الخمس » : تلك كانت فرصته ؛ وقد استطاع خلال خمس سنوات ان يكـــون رسول تمرد ايجابي مشخص ناجع ؛ عرف تضامن الناس واتحادهم ضد الحتميات اللاانسانية وعاش ذلك كله . ويذكّره (سارتر) قائلا : « كم كنـــا نحبك آنذاك ! » . ولما انتهت المحنة عاد الى منحدر خطئه الاول ، مع الالحاف عليه . لم يكن يكفه ان يستمر على التفكير بأن كون البؤس طبيعي قبل ان يكون اجتماعياً ، وان يستنزف قوى الانسان في تمرده على شرط وجوده الميتافيزيائي ؛ بل أخذ منذئذ بالحط من شأن التاريخ ذاته ، ورأى سيادة العبث والعنف فيه ، لا من أجل القضاء عليهما ، بل للحكم عليهما وادانتهما ــ وقد حكم وأدان في وقت واحد باسم مبادىء بلا فحوى ، « بلغة تمضي باتجاه التجريد » ، « وبالتأكيد الفارغ تماما على وجود مثل أعلى » ، حكم وأدان محاولات الثورة . تلك اذن زلة (كامو) الكبرى : زلة التعالي . ويأتي (جنسون) فيعيب ذلك عليه بأكثر مما فعل (سارتر) ويسأله قائلا : « بالنسبة لاية (عدالة) يبدو الشرط الانساني وقد اصابه هذا القدر من الظلم ؟ ... أما مفتاح ذلك كله فسأخبرك أيضاً أيان اعتقد انني واجده ... انه في ان الله يستأثر باهتمامك بأكثر مما يستأثر به الناس » . وهذا حق باعتبار . فتمرد (كامو) لا يفتأ يظهر في ثوب المطالبة بالمطلق ، والحساب الذي يطلب

الانسان الى الكون ان يقدمه اليه لان الكون لا يطابق ظمأ السعادة الرئيسي ، ولا مطلب الديمومة والعدالة اللتين يشعر بهما في ذاته شعوره بنداء يصدر من صميم كيانه • ولا بد من الاعتراف بأن مثل هذا المسعى الروحي ينطوي ، ان لم نقل على « وسواس الله » ، ففي جميع الاحوال ينطوي على الحاجة لربط الفكر بمطلق يحل محله • كما ان التأمل البشري ، في هذه الافاق ، لا يستطيع ان يظل حبيس حدود التاريخي ، وتلك هي البداهة بالذات ، ما دامت تتجه شطر السرمدي •

ولكن هل يجب ان نستخلص مما سبق ان مثل هذا التأمل صائر حتماً الى امتهان التاريخ وتبذير فرص الانسان الزمنية ؟ بالتأكيد كلا • وعلى العكس ينبغي ان نفكر بأن هذا التأمل وحده قادر على تحديد معنى المأساة الانسانية ومضمون كلمة ثورة ذاتها • لان المرء ، أخيراً ، انما يثور حين يود تغيير وضع تاريخي : فهو اذن يحكم على هذا الوضع • وكيف يمكن الحكم على التاريخ ان لم يتم بالرجوع الى قيم تتعالى عليه ؟ ان (كامو) يحظى بجانب الحق في هذه النقطة ضد (سارتر) من ناحيتين : انه يفوز بالحق أولا حين يفكر — كما يفكر (مالرو) — بأن فاجعة الشرط الانساني لا تنحل كلها الى حتميات اجتماعية• كتب (سارتر) : « هناك طفل يموت ، وانت تتهم عبثاً الكون وهذا الآله الاصم الاعمى الذي خلقته لتبصق عليه ؛ ولكن اب الطفل ، ان كان عاطلا عن العمل أو عاملا ، يتّهم البشر : انه يعرف حق المعرفة ان عبث شرط وجودنا يختلف في (باسي)[1] عنه في (بيانكور) [2] » •

اجل ، وان شيئا لا يعفي من واجب العمل على خفض مستوى وفيات الاطفال في (بيانكور) ، وعلى تحسين الشرط الاجتماعي للانسان العاطل والانسان العامل • ولكن ينبغي ألا ننسى كذلك ان الناس

---

(١) Passy   (٢) Billancourt

يموتون أيضاً في (باسي) ، وانهم يحبون هناك ويألمون أيضاً : ان الترح والفرح ، والقلق والامل ، تتصل كلها لدى الانسان بشرط وجوده الميتافيزيائي ولا تتصل الا جزئياً بشرط وجوده التاريخي ولا تمسها الثورة الا بصورة غير مباشرة . ومن جهة ثانية لا يخطىء (كامو) بالتأكيد حين يؤمن بأن لحركة التاريخ منحى ، وأن منحاه بوجه الدقة لا يخرج عن حدود ما يزعم صانعوه ، وهم يلفون أنفسهم امام اوضاع معطاة ، انهم يجاوزون هذه الاوضاع على نحو يحقق قيماً ماثلة في الفكر من قبل ن تتجسد في التاريخ . يقول : « اذا لم يكن للانسان هدف يمكن اتخاذه قاعدة قيمة ، فكيف يتحلى التاريخ بمعنى يمكن ادراكه من الآن ؟ وان كان له معنى ، فلماذا لا يتخذ الانسان هذا المعنى هدفاً ؟ وان فعل ذلك ، فكيف يصح وجوده في هذه الحرية الرهيبة الموصولة التي تتحدثون عنها ؟ » . ولم يطرح (كامو) هذا السؤال الا لانه ، على نقيض ما أخذ عليه ، يحترس تماما من ان يحمل على التاريخ وزر الشر كل الشر ، وان يعتبر (العدالة) في علياء تحجب عنها كل تأثير على عمل الناس : انه يسير وحسب في طريق المذهب الانساني الصحيح ويرى ان في التاريخ خيراً ، وامكانات نظام وتقدم ، على قدر خضوع العمل لما يتصوره الفكر المتأمل ويعتبره امراً من أوامر (العدالة).

ويسعى (سارتر) و (جنسون) الى تفسير منحى التاريخ على نحو آخر يتفق مع مقدمات فلسفتهما . ولكن اضطراب مقالهما يغدو عندئذ ذا دلالة بينة . ف (سارتر) يضطر الى ان يلعب بالكلم ويقول : اننا لا ندخل الى التاريخ لاننا فيه ، واذا كنا فيه فكيف نحكم بالاضافة الى ما يقع خارجه ، أو بالاضافة الى ما هو فوقه ؟ « تسألون : هل للتاريخ معنى ، هل له هدف ؟ وعندي ان هذا السؤال لا معنى له : ذلك ان التاريخ خارج الانسان الذي يصنع التاريخ ليس سوى مفهوم مجرد

جامد يتعذر ان تقول عنه إن له هدفاً ولا ان تقول ليس له هدف . والمسألة لا ترجع الى معرفة هدفه ، بل الى ان نمنحه نحن هدفاً » . رائع . ولكن (هتلر) كان يريد أيضاً ان يمنح التاريخ هدفاً ؛ فبأي حق نحكم بأن مشروعه لا انساني ، اذا رفضنا القول بوجود أي معيار للحكم على التاريخ خارج التاريخ ؟ اجل ان (سارتر) يضيف قائلا : « ان الانسان يصنع من نفسه كائناً تاريخياً ليلحق بركب السرمدي ويكتشف قيماً كلية في العمل المشخص الذي يضطلع به ابتغاء نتيجة خاصة » ـ وهذا حق ، ولكنه يقلب المذهب برمته رأساً على عقب ، ويبلغ مثالية (كامو) من ثغرة مباغتة ؛ لاننا نلفى أخيراً ان « العمل المشخص » يضمر « قيماً كلية » ، ويبدو لنا التاريخ وهو مفتوح على « السرمدي » ، وليس لهذا كله من دلالة اخرى إلا دلالة تعالي القيم .

ومثل هذا الضيق وهذا الانقلاب نجده لدى (جنسون) . يقول : « ان معان مختلفة تعمل في التاريخ . وان للتاريخ معنى على قدر ما يوجهه البشر بحسب وسائلهم وهذه الوسائل ذاتها التي لم تكن سوى غرضه قد تغريه بالانزلاق ، ضد منحدراته اللاانسانية ، فتجعله بالتدريج أقل خفة بالنسبة الى عدد كبير من الكائنات » . فاذا لم يوجه الناس التاريخ الا « بحسب وسائلهم » ، فانا لا أظن ان هذه الاختبارية المتواضعة باسراف تكفي لمنح التاريخ معنى مدركاً . و (جنسون) نفسه لا يعتنق مثل هذا الرأي ؛ ولذا نراه يوضح بدقة ان من الواجب السعي للاضطلاع بجهد توجيه التاريخ « ضد منحدراته اللاانسانية » . وهذه الصيغة صيغة مهمة ينبغي تذكرها : اذا كان للتاريخ « منحدرات لا انسانية » فذلك لان الانساني يتحدد خارج التاريخ . وان الاعتراف بذلك يعدل موافقة (كامو) بصورة ضمنية على ان الانسان لا يشيد

فاسفة التاريخ بدون ان يتصور مسبقاً فكرة عن الانسان ، وان المرء لا يسوّغ سياسة ثورية بدون الرجوع الى منظومة قيم ، وان أحداً لا يعيد صنع مذهب انساني بدون ان يثبت بنوع ما تعالي الفكر .

(مالرو) يرصد المقدس

يبدو ان التاريخ يغمر انسان (مالرو) بأكثر من ان يغمر انسان (كامو) او انسان (سارتر) . فلهذا الانسان مغامرات فردية تتصل بوجه عام بثورات وحروب تمس مصلحة شعوب أوقارات . ويرى (كايتان بيكون) [1] على حق ان التاريخية ، وهي خارجية بالنسبة الى الفرد ، هي التي تعطي الاثر مادته . « ان التقاء (مالرو) بالتاريخ هو الذي يغدو تاريخ (مالرو) . ويبدو انه لايملك ، ولا يريد ان يملك اية حياة اخرى سوى حياة عصره » — ولكن (مالرو) يجيب الناقد بقوله : « غير ان وسواس مدنيات اخرى هو الذي يعطي مدنيتي ، وربما حياتي ، سمتها الخاصة . وذلك في نظري على الاقل ... » . ومن الجدير بالذكر في الواقع ان (مالرو) حين يكتب كلمة « تاريخ » او يفكر فيها فانه لا يمنحها فقط دلالتها التي اصبحت مألوفة اليوم ، دلالة التاريخ الذي ينجز أو حركة ضرورية تدفع صور الحاضر نحو صور المستقبل ، وهذه هي موضوع تأمل مسبق الى حد كبير او صغير؛ بل انه يمنح ايضاً كلمة « تاريخ » معناها التقليدي : معرفة الماضي ، او ، فوق ذلك ، جملة حوادث الماضي التي تعطف الحاضر أو تسيّره على نحو ما .

ولا يقل وعي (مالرو) باستمرار الحاضر والماضي عن وعيه بنشأة

---

(١) Gaëtan Picon انظر : « (مالرو) بقلمه » . Malraux par lui - même
Le Seuil, Coll. « Les Ecrivains de Toujours », 1953

المستقبل بدء من الحاضر • اجل ، ان هناك اسباباً عميقة تسوّغ الكلام على « استجابته للعصر » وعلى « تنبؤه النير » وقوامه «مشاركته المتألبة » في الحوادث باكثر من « رؤيته اياها بجلاء » : هذا صحيح ، كما تسوّغ الكلام على « وسواس » المدنيات الغابرة التي مازال يعنى بتعمقها ، سواء من حيث انه رائد « الـدرب الملكي » (١) او الباحث الانتربولوجي في « جوزات (التبزغ) (٢) » او المولّه المفتون في « المتحف الخيالي » • ومن النظرات النافذة التي جاء بها (كايتان بيكون) ايضاً هو انه اكتشف في اثار (مالرو) اهمية المعاني الآتية : الاب ، السيد ، الرائد ، وهي تتضمن القيمة المبدعة والتأثير الحاسم لتجربة غابرة على تجربة حاضرة • فمن (بركن) (٣) الى (كلود) (٤) ، ومن (جيزور) (٥) الى (تشن)(٦) و(كيو) (٧)، ومن(فنسان برجه)(٨) الى ابنه ينتقل درس هو بلا ريب الدرس الذي يتعذر قبوله كما هو ، ولكنه لن يكون درساً منسياً تماماً • وعلى هـذا النحو تنعقد ، على المستوى الاخلاقي ، أواصر تضامن يمـاثل ما لا يكف (مالرو) عن تقديمه على انه تضامن رئيسي في المستوى البديعي وذلك في كتـاب « علم نفس الفن » (٩) : ليس رسّام اليوم بالدرجة الاولى عيناً تنظر الى العالم ، بل انه عين نظرت الى لوحات ؛ انه يغزو رؤيته الفريدة بدء من رؤية اسلافه ومعلميه • وكذا الكاتب والروائي الذي لايغزو اسلوبه الا بدء من اساليب اخرى • وبقول بسيط ، مازال (مالرو) يعيد تقويم مفهوم الثقافة داخل معنى المدنية ، ويرى ان الثقافة هي ذاكرة ماض يُنظر اليه من حيث انه يبدع قيم الحاضر • « عنـدما ترفض الاثار الغابرة جميعاً ينضب النبوغ خلال عدةسنوات، ويسيرالمرء فيالفراغ»•

---

(١) Voie Royale (٢) Noyers de l'Altenburg (٣) Perken
(٤) Claude (٥) Gisors (٦) Tchen (٧) Kyo
(٨) Vincent Berger (٩) Psychologie de l'Art

وهنا يبدو المذهب الانساني عند (مالرو) مذهباً نقياً لا ريب فيه .

ولكن هذا التاريخ المفهوم فهماً عريضاً وعميقاً ، هذا الجهدالمتضامن الموصول ، تضامن الناس جميعاً في الزمان ، إلام ينزع، وما هو منحاه؟ هل هو دولاب (نيتشه) المفجع ، دولاب « العود الابدي » ؟ هل هو غزو العقل العلمي والنشاط الصناعي للافضل تدريجياً كما تخيله متفائلو البرجوازية في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، هل هو تقدم الانسانية بالجدل نحو مجتمع لا طبقي ، نحو جنة الشيوعيين الارضية الشاملة ، كما حسب تلاميذ (ماركس) ؟ ويبــدو بجلاء ان تفكير (مالرو) المغلق كل الاغلاق من ناحية اخرى في وجه الرؤى الاخيرة المسيحية ، انما لقي اثار هذه النداءات كلها ـ فكان تارة اكثر حساسية بتشاؤم حتمي لايدع امام الفرد السامي أي ارضاء آخر سوى انيحقق حياته في مغامرة وان « يخلّف ندبة في الارض » ؛ وكان تارة ثانية يجنح ان لم نقل الى التفــاؤل البرجوازي فعلى الاقل الى خــدمة الديمقراطية من حيث انها نظام تحرر وصوفية تحريــة ؛ وكان تارة اخيرة متأثراً بجاذبية امل الثورية الماركسية . ولكنه سرعان ما ادرك عبث اللعب وتهافت التنظيم في الموقف الاول ، وترك (مونترلان) (١) زهواً عقيماً هو زهو « الخدمة اللا نافعة » والعلامات الليلية التي تزين « فروسية العدم » ، فرفض تمجيد عمل بلا غائية وانكره من حيث انه التزام بلا امل . وكذا فانه لا يعتنق المفهوم البرجوازي للتاريخ لانــه ينفي الفاجعة لمصلحة التأمل الانتهازي في ميدان الرفاه والاثرة اليقظة. اما (الماركسية) فان تذوقه للحياة واحساسه بتفرد التجربة يصرفانه عن روح مذهبها ويحملانه دائماً على رفض نظرية « الصراع الطبقي » واعتبارها مفتاحاً شائعاً يفتح كل شيء في التاريخ ؛ وقد آمن بفكرة

(١) Montherlant

ميتافيزيائية نوعية جداً عن شرط الوجود الانساني ، وهـذه الفكرة تمنعه من الاقتصار على فلسفة تزعم ان في مكنتها تجاوز القلق على المصير باقامة مؤسسة زمنية للعدالة الاشتراكية •

وصفوة القول ، على الرغم من دوران فكر (مالرو) حول مفهومه عن التاريخ ، فان هذا المفهوم ليس بالمفهوم البسيط الذي يمكن فهمه بسهولة ويسر • وعنده ان الانسان بآن واحد هو « الحيوان الوحيد الذي يعرف بانه فان » ، والكائن الوحيد الذي يملك قدرة حرة للعمل والابداع ، وان التاريخ هو بالدرجة الاولى حقل الصراع الاساسي الذي به تجابه حريته المصير • والتاريخ ، من جهة ثانية ، هو هـذا الصراع عينه الذي يتيح للانسان المرتبط باقرانه في الزمان والمكان ان يفوز بنصر ثمين يسبغ على حياته معنى من غير ان يأمل ، على الرغم من ذلك ، بالانتصار المطلق على عبث الكون ، وبحذف كامل للعزلة والالم والموت • ان التاريخ نسيج متين من افعال حرة مبدعـة ومن الانحطاط والنكبات المحتومة • وليس للفرد اية وسيلة لانقاذ نفسه سوى وسيلة الانخراط بافعاله في التاريخ ، مع علمه بان التاريخ يظل دائماً منظومة قوى تتهدده في وجوده الشخصي الراهن ، وان من باب الوهم الخطر الاعتقاد بان التاريخ بالضرورة تقدمي ومحرّر • وقد تطور (مالرو) تطوراً محسوساً وانتقل في اثاره من المغامرة المتوحدة المجانية الى مغامرة العمل المتضامن ابتغاء (الثورة) ، ثم من الاخلاق الثورية الى التأمل في المتحف والى امتداح الابداع الفني • ـ وهذا التطور الذي يدل فيما يبدو وعلى الاهتمام بتعليق قيم متعالية يزداد نقاؤها وتجريدها باطراد فوق رأس الافعال التاريخية من اجل توجيهها وتبريرها • فالمغامرة لم تكن سوى طريقة نبيلة لانفاق الوجود الفردي• و (الثورة) كانت تمنح التاريخ معنى ، ولكنه معنى غامض حائر ؛

لان قوام التاريخ ثورات متعاقبة لم تطرد البتة قوى المصير ، ولم تحرر البتة الانسان من القلق ، ولم تخلص هي ذاتها ايضاً من قانون الانحلال والموت • ويبدو ان (مالرو) في التجائه النهائي الى متحف يستلهم الاهتمام ببلوغ طراز من الابداع الانساني اكثر حرية من الافعال التاريخية (لانه لم يرض ابداً عن الفكرة الماركسية القائلة بتحديد الاثر الفني من جانب ما تحت بنية اللحظة الراهنة) ، وهذا الابداع اكثر « انسلاخاً » ، واكبر انفصالاً عن الروابط المادية ، وهو انقى من النقائص الزمنية • « لم تبق (سومر) (١) (وطيبه) (٢) و (نينوا) (٣) و (بالانكه) (٤) في تاريخ (الفن) سوى اناشيد ليله؛ ولم يبق تاريخ (بيزنطه) الشحيح سوى عظمة (بانتوكراتور) (٥) ، ولم تظل قذارة السهول الرسوبية الا صفحات ذهبية ، وطاعون العصر الوسيط ، صار هو (التقوى) (٦) » •

ان حافز المذهب الانساني بالمعنى الصحيح هو حافز هذه السيرة الفكرية : المذهب الانساني بالمعنى الدقيق الذي يدل على اعتناق احوال الضمير العليا بصورة ارادية ، وقبول التراث الثقافي ، وخضوع الحرية لنظام الفكر • وعلى الرغم من ذلك يتساءل المرء احياناً عما اذا كان (مالرو) لايميل الى مثالية مضمرة وهو يجاوز النقطة ، عما اذا كان لاينزع نحو المذهب البديعي ويمسه • وهذا المذهب البديعي مذهب مفجع لانه يخالف جد المخالفة بديعية (روسكين) (٧) و (فلوبر) (٨) وامثالهما : ذلك ان مؤلف « متحف خيالي (٩) لايرى ان الفن (ارهاف يعزّي الانسان ، بل هو حركة تفتديه » • ويظل من من الحق على

(١) Sumer (٢) Thèbès (٣) Ninive (٤) Palanqué
(٥) Pantocrator (٦) La Pieta (٧) Ruskin (٨) Flaubert
(٩) Musée imaginaire

الرغم من ذلك في نظر المؤمن بالمذهب الانساني في اكمل موافقه ان العمل الذي تتجلى فيه سيادة الفكر على التاريخ أوضح ما تتجلى انما هو العمل الذي يجسد السرمدي في التاريخي ، وليس هو فقط بالعمل الذي يخلق مواضيع جمال لينتزعها من مجرى الاشياء ويعلقهـا في اللازمني . أليس في الاقتصار على ما يطفو من نكبـات الامس من اثار الفن المعبرة عن النبوغ البشري التي تقابل البؤس ، أليس ذلك تبريراً يخدم القسوة والعبث في التاريخ ؟

ولكن تلك هي حقاً النقطة الحرجة والمأساة في تفكير (مالرو) : ان الفن في نظره « عملة المطلق » ، وهذه الصيغة تدل في آن واحد على النية التي تدفعه الى البحث عن قيمة لتبرير مغامرة الانسان الارضية تبريراً مطلقاً ، وعلى شكه الخفي بنجوع الفن نجوعاً حاسماً من اجل تهدئة قلبه القلق واسعاده . ويظل لدى (مالرو) كما هو ثابت لدى (سارتر) و (كامو) ان الله مات وان العقائد الدينية لم يبق لها ماتقول لانسان اليوم . غير ان موقفه يتميز بصورة جذرية عن موقفهما من حيث انه يرفض الاعتقاد بان سعادة الانسان وقوته وحكمته تعظم كلها حين ينقي ضميره من مقولة المطلق . وفوق ذلك يبدو انه ينظر الى المطلق نظرته الى المقدس، وان للديانات في نظره دائما قيمة من حيث انها تغذي الشعور الصوفي برباط الانسان بالعالم ، حين تعلّمه ان يجاوز الالم والعزلة والموت . فهو لا يرى لمعة الحقيقة الدينية في العقائد ولا في رموز الايمان العقلية بل في الرموز العاطفية الخاصة بطقوس الاديان واشكالها الفنية المستمدة منها . ولئن الحف أشد الالحاف على تحديد قيمة الاثر الفني العليا بدلالته الميتافيزيائية ؛ وعني اشد العناية برفض المذهب الصوري والمذهب الاكاديمي وبالاذلال على اعتبار ان «الانتاج» صار يعني « الابداع » ؛ ولئن رفض اخيراً ان تمثل القيمة في عصرنا في غير اسلوب التسـاؤل والقلق ازاء الكون الـذي عرف الانسان

لا مبالاته اللا نهائية ، فذلك لاعتقاده بان الفن لا يحيا الا لانطوائه على المقدس ؛ وان المتحف يبقى في الوجود وكأنه ملحق هيكل دارس أو كاتدرائية قفراء . « ان الاديان الميتة لم تبق سوى ترجمات الاناشيد احتفظت اثارها الكبرى وحدها بالموسيقى عبر الاستحالات ... اناشيد سرية ولكنها ليست تجريداً ولا صمتاً : انها تفرض حضوراً نافذاً لدرجة عظمى تجعل للعالم ماضياً يختلف بالنسبة الى من يسمعون هذه الاناشيد والى من يجهلونها ... » .

ولا ريب في أن وضعاً كهـذا الوضع لا يخلو من إثارة الشك واستثارة الانتقاد . فهل من الثابت ان قدرة الاديان ، ولا سيما نجوعها في التاريخ ، انما يمثل في النضد البديعية باكثر منه في الاعراب عن ايمانها وعقائدها ؟ أليس ثمة بعض المتعة المفجعة ، وفي الوقت نفسه انتقائية خطرة ، حين يذهب الفكر الى ان « نصر الانسانية لا يتجلى في المعنى الجزئي الذي تضفيه على العالم ، بل في حادث انها تضفي عليه معنى وتفرضه فرضاً ؟ » ثم ان البحث عن العزاء في المتحف كبحث « المعتصم بحلم طويل جعل الانسان يعتقد بأنه ضروري للكون » ، ألا يمثل اخيراً انكماشا كانكماش الحنين لدى المترف الولهان ؟ وربما ذهب الظن الى ان (مالرو) يتكلم لغة تقنع معاصريه على نحو اعظم حين يمجد موهبة البطل الحاضرة اكثر منه حين يحاول تهدئة قلقهم بتأمل تراث الماضي البديعي . ولكن المهم ، ولو تم البرهان على انه اختار طريقاً مسدودة ، هو ان نفهم النية التي القته على دربه : الاهتمام الاول ، الثابت ، الحريص على انقاذ فضل الانسان باضفاء صفة القداسة عليه . لنستمع الى تأمله للمدنية الرومانية : « انها المدنية الوحيـدة التي لم تعرف ذرى السماء (وهي في هذا تختلف كل الاختلاف عن

مدنية الاغريق التي تكاد لاتنسى معابد الاكربول [1]) ولم تعرف كوناً ولا تعاليا ، مادام تمجيد القوة ليس من هذا القبيل ؛ انها المدنية الاولى التي استعاضت عن طلب المطلق بطلب السلطـــة ، وهي التي مزجت التضحية بالنصر ••• » • لنجانب التساؤل عما اذا كانت هذه النظرة الخشنة الى النبوغ الروماني جديرة بان تتقبل تاريخياً أم لا • ولنقتصر فقط على معنى الحجة وعلى المتيافيزياء التي تدعمها : انه يرى ألا وجود لمدنيات كبرى سوى المدنيات الدينية ، او على الاقل المدنيـات التي ترتوي بعاطفة المقـدس ، وتغتذي بالاهتمـام العميق بربط الانسان الصغير الزائل بالكون الكبير الخالد ؛ وأن الفن العظيم هو وحده الفن المعبرّ عن تعالٍ •

ومما لا يطاله الريب ان هذه الملاحظات لا تعني الايحاء بان من المحتمل ضمنياً اهتداء (مالرو) للدين : ان رفضه المسيحيـة رفض جذري وان وثوقيته الواعية تبعده ايضاً عن الآله المسيحي شأنه شأن (كامو) و (سارتر) • ويبقى ان موقفه من التاريخ يختلف اختلافاً عميقا عن موقفهما : انه لايمكن ان يرضى بالوضعية الثورية (السارترية) ولا بتطور (كامو) شطر المذهب الانساني المـدرسي ؛ وان قصده يتمثل في تجريد صفة القداسة عن التاريخ بأقل من ابتغائه الكشف عن ينبوع قداسة جديدة فيه ؛ وان السمة الفريدة التي تميز كآبتـه انما قوامها الخوف من عدم انبثاق ثقافة شاملة يمكن ان يستمر فيها « فضل الانسان » ونبل العالم ، وخشيته من ألا تولد من جديد فيما وراء الديانات البالية والمذاهب الانسانية التي اصبحت عقيمة • فمن ذا الذي لا يشعر عندئذ باهمية هذا التأمل المتوحد العظيم في الوقت

(١) Acropoles

الحاضر ولا يدرك شدة هذه الجمل الغامضة المذهلة ، هذا الصوت الاصم العريض الذي ينذر الانسان بالخطر اذا ما كف التحاقه بمـا يتأمله الفكر وبما يجاوز الزمان وذلك عندما تقيده عصائب المـادي وقحط التاريخي ؟

— ٦ —

محاولة خاتمة شخصانية :

من التشاؤم إلى الأمل

نهاية التفاؤل التاريخي

ينبثق من تحليلاتنا السابقة التي ينبغي اعتبارها بمثابة بعض سبر للاغوار اجريناها في ميدان مهم من ميادين الفكر المعاصر ، بدل النظر اليها على انها دراسة المسألة دراسة استقصاء ، ينبثق على الاقل انطباع واحد : ذاك ان انسان القرن العشرين قد فقد الثقة بتاريخه .

فانصار المذهب الانساني المتفائل بجوهره شعروا بنوسان ايمانهم بتقدم تحققه حتمية طبية يشرف عليها فكر قادر على كل شيء : اجل ، انهم لا يرضخون لدوار الاختلاط والعبث ، ولكنهم عرفوا ان عقبات كأداء قد تعترض في أي وقت سير الشعوب وان من الواجب دائماً الحذر من اخطاء الطريق ولا سيما بعد ان اضطروا الى مزيد من الدقة في تقدير اهمية واستقلال بعض العوامل الحيوية والاقتصادية : كثافة المادة والزمان ، وعامل مقاومة العالم الانساني لما هو معقول .

وقد اهتبل المسيحيون فرصة تعمق فاجعتهم الخاصة حيال فاجعات هذا الزمن : فاجعة الضمائر التي مزقهـا الاهتمام بالزمني والعنايـة بالسرمدي . ولا ريب في ان عقيدة العناية الربانية انقذتهم من اليأس: واعلمتهم كما جاء في كتاب « الحكمة » ان « الله خلق الاشياء كلها لكي

تبقى في الوجود لا من أجل ان تنحل الى العدم » ، وقد اقنعتهم بمعاهدة تحالف قائم بين (الكائن) وبين الكائنات ؛ ولكنها لم تطمئنهم البتة من النظرة القاتمة الى التاريخ الارضي . اما التفاؤل المطلق لدى (كلوديل) فانه استثناء : والملاحظ عند معظم مفكري المسيحية او عند من يمسهم تأثير مسيحي انهم ينزعون في الغالب اليوم الى وضع مغامرة الانسانية المفتداة بين ظلام « المحبة العظيمة » وصباح « الفصح » ، في زمن هو باعتبار من الاعتبارات زمن موت الله ، حيث لايمكن ان تمثل القدرة الا في الاخفاق ، ولا يكون المجد الا اذلالا ، ولا الامل الا في انتظار كارثة التحرر . ولم يخرج (بيير عمانويل) [١] عن هذا الخط حينما علّق على تجربته المسيحية بقوله : « عندما اخترتُ افقي ، أوّلتُ التاريخ الحاضر على ضوء فاجعة الجمعة العظيمة . كنا عند موت الله ، على ثلاثة ايام من الغيبة اللا نهائية بين (الصليب) و(البعث). وكان التاريخ يجري جريان السر في الزخرف المزدوج بين(الجسمانية) [٢] وبين العالم الحديث الممزق » [٣] . وقد ترجمت في الآونة الاخيرة محاولة قام بها (جوزيف بيبر) [٤] اللاهوتي الالماني ، وهي تلقي نوراً كاملاً على المسألة : ففي هذه المحاولة يبدد المؤلف بقوة وهم المسيحيين الذين يعتقدون بان في وسعهم اقحام الامل العاطفي بسيرة سعيدة للمغامرة الارضية وزجه في دائرة الامل الخارق . وعلى العكس ، ان فلسفة التاريخ المسيحية تتجه نحو « الرؤى الاخيرة المسيحية » وترتقب

---

(١) Pierre Emmanuel

(٢) Gethsémani (٣) كادح الساعة الحادية عشرة L'Ouvrier de la Onzième Heure, Le Seuil, 1958

(٤) نهاية الازمنة ترجمته عن اللغة الالمانية (كلير شامبوليه) Joseph Pieper : La Fin des Temps Claire Champolier, Desclé de Brower, 1958

حالاً تاريخية اخيرة كارثية ، ترتقب اخفاقاً جد واسع من حيث الشمول والشدة حتى يبدو لها ان من الممتع تحقق خلاص من داخل التاريخ » •

اما الماركسيون فيبدو انهم سليمون من وباء اليأس • وقد رفعوا من ثغرة الجدل راية المذهب العقلي المتفائل واعلنوا من جديد الايمان المطلق بتقدم البشر • وذلك من وجهة نظر عامة • غير انهم اتخذوا موقفاً يضاد موقف المفكرين البرجوازيين في موضوع الاعتبار الخاص لشقاء زماننا واخطاره • ان ضمير هؤلاء البرجوازيين يتصف اليوم بأنه على الاقل ضمير بائس ان لم تقل انه ضمير سيء : انهم يشعرون بانزلاق النظام الاجتماعي الذي يدعم ثقافتهم ويدركون جفاف الثقافة التي كانت تغذي افكارهم ؛ وان اذكاهم ينتهون الى التفوق ولكنهم يبدأون جميعاً بانطباع قلق الانحطاط ازاء هزات تزداد قوة وشمولاً وهي الهزات الثورية • اما الماركسيون فلا يحق لهم ، على العكس ، ان يحزنوا حيال عالم متأرجح : بل هم يفرحون لرؤية انهيار ما يحكمون عليه بالفناء ولرؤية ولادة فرصة ما يأملون تحققه • وليس من ريب في ان من الحوافز التي تدفع الى الشيوعية اليوم نخبة الشباب القلق فضلاً عن الجماهير الحانقة انما هو جاذبية مذهب لا يترك مجالاً للأسس ولا لوخز الضمير ولا للخوف ، بل يدعو الرفاق الى أن يشمروا عن سواعدهم لبناء مجتمع سعيد وهم ينشدون جذلين • ومن المؤسف ألا يلقى هذا المزاج السعيد الذي يحتل طرب العمل فيه مكاناً أوسع من طمأنينة العقل ، لا يلقى ما يبرره في بداهة الفكر ولا في اعتبار الحوادث بصورة موضوعية • ان ارجاع شروط الوجود الانساني الى وضع الانسان الاقتصادي على نحو ان نجاح ثورة البنيات يمكن ان ينقذ الانسان من الشر وينتزعه آخر الامر من براثن المصير — إن هذا الا طريقة جد سطحية في النظر الى مأساة هذا العالم ، وبوجه خاص

حينما نجد انهم يدغدغون الانسان بهذا الامل الهارب البعيد ويقذفون به اليوم في مجازفات رهيبة قاسية بدعوته الى ان يجرب حظه بالتحرر عن طريق العنف والحرب • وعندما يعلّمون الانسان ، من ناحية اخرى، ان التاريخ لايمكن ان يكون لا اخلاقياً مادام انـه يجري في منحى ضروري وانه لابد ينجب في آخر المطاف مجتمعاً لاطبقياً ، فانهم انما يدفعون به في اتجاه لما يزل يسمع فيه أنات جماهير المعذبين واحتجاج الابرياء الذين حكم عليهم ظلماً صوت السادة العتاة •

والحق ان صخب القرن العشرين علّمنا بالامس وما يزال يعلّمنا كل يوم ان للحوادث جوازاً لا يمكن التنبؤ به ، وان المدنيات ضعيفة ، وان القوى الثورية ذاتها سريعـة الوهن وانها قـد تحقق بلا ريب انقلابات عظمى في قوانين الدول وفي اخلاق الشعوب ولكنها لاتحسن البتة معرفة ايان تذهب بانحرافها الكبير عن مشاريعها وتعود سريعـاً الى تقاليد الانظمة التي هدمتها • أننا نعلم ان التاريخ ــ كما يقول (مارو ــ ديفنسون) [1] ــ لا قيمة له الا اذا كان تاريخاً يكتب باحرف عادية • ونعلم بوجه خاص ان التاريخ عاجز عن التنبوء • ذكر (بيغي) على لسان (كليو) من قبل : « ان مهنتي ووظيفتي هي ان اتكلم بعد ؛ ولهذا صُنعت : ولم اصنع البتة كيما اتحدث قبل » • وقد بتنا نحذر كل الحذر احاديث التاريخ العام التي تعيـد تركيب اختلاط المـاضي وتدّعي قراءة خطط الله القادمة فيه ؛ ونحن كذلك نخاف خوفاً مماثلاً اولئك الذين يستبقون المستقبل ويتنبؤون بمراحل المغامرة وبنهايتها •

اننا نقبل ، بتواضع اعظم ، ان نبدأ السير في الطريق من النقطة التي بلغتها الاجيال السالفة ، ونمضي بدورنا فنمهد سبيلنا بايدينـا المتألمة لايحفزنا يقين آخر إلا يقين فرح اجتياز العائق تلو العائق وانجاز

---

(١) Marrou - Davenson

كل خطوة من خطى التقدم شطر النهاية المجهولة لمسيرنا على الارض •

القلق والتمرد والثورة

ان التوسع بعض التوسع في استعمال كلمة وجودية يبيح الدلالة بها على استعداد الذهن للتفكير في الوجود على انـه جائز ومباغت ولا متسق كما يبيح ايضاً دلالة تعقل الوجود والشعور به من حيث انه مفجع : ذلك ان الشعور بالمفجع انما هو شعور بقدرة حتمية تسحق الانسان فيبقى امامها بدون سنـد ولا عون ولا دلالة ولا قانون ، ولا يمكن ان يعتمد الا على اختراع افعاله وقيمه ذاتها اختراعاً حراً • وينجم عن ذلك اننا ندعو الادب الوجودي الادب الـذي يعرب عن العنصر المؤثر في مثل هذه الفلسفة ويستثمره ويترجمه الى صور واخيلة وينظر الى القلق على انه الحـال الاولى في الشعور النير كما يعتبر التمرد اداة كل مشروع عظيم وعلامته •

ما الذي يدعوه انسان القرن العشرين باسم القلق ؟ انه بالدرجـة الاولى الشعور بان الوجود عبث ، وانه غير ذي معنى — لا الوجود الفردي الجائز النافل الزائل ، ولا الوجود الجمعي للنوع ، التاريخ ، والتاريخ ذاته يجري فوق نهر الصدفة والحظ ، نحو العدم ، وهو مفجع بصورة جذرية • لنقل بدقة : القلق ليس شعور كائن فان وحسب ، بل كائن يعلم انه فان ؛ انه ليس شعور كائن بائس فقط ، بل كائن يفكر في طبيعة بؤسه • وبوجه عام ، يرتبط هذا القلق بنفي ميتافيزيائي ، وهذا النفي قد يكون وثوقية مصبوغة بالقنوط أو يكون الحاداً علنياً صلفاً • وان موضوعة عدد كبير من القلقين اليوم هي صيحة (نيتشه) : « مات الله » • ولنلاحظ على الرغم من ذلك الظاهرة العرضية الآتية : انقوة تيار الفكر الحديث باتجاه القلق تجعله جاثمـاً ايضاً في اصل

افكار واثار مسيحية بالدرجـة الاولى • ان شهرة وجـاه روايات (برنانوس) في وقتنا الحاضر والتأثير الكبير الذي تحدثه الى حـد كبير او صغير على الروائيين الشباب امثال (ب ـ ا • لوسور) (١) و (لوك استانغ) (٢) و (جان كايرول) (٣) ، هذا اذا جانبنا الكلام على السمة المفجعة البيّنة التي يتسم بها الهام الفنون المقدسة اليوم : كل ذلك بمثابة اشارات وقرائن على ان المسيحية كما تفهم في الوقت الحاضر انما تنطوي على إيمان يتجلى في حلة مفارقة ، وعلى أمل واهن تلغمه غواية اليأس ••

تلك هي سيطرة الشعور بالعبث في عصرنا • بيد ان هذا الشعور قد يحيـا في مستويين من مستويات الشعور : ففي المستوى الذي لايزال الفكر فيه مغموراً بالانفعال وهو ينادي بلا عقلية العالم وبلا معنى الوجود ، يصبح الشعور بالعبث قلقاً ؛ وفي مستوى الفكر الذي يطفو نحو الارادة ويرفض هذه الفضيحة ويعمد الى تحويل العـالم يغدو الشعور بالعبث ثائراً • القلق ، التمرد ، الثورة : كلمات ثلاث تربطها روابط قوية ولكنها ليست بالروابط الضرورية بوجه الاطلاق • فالقلق انسان عصبي منفعل ، وهو احياناً مجرد مفكر ينتهي الى التلذذ بشعور الاختلاط وقد يتفق له تماماً ان يقف فيما دون التمرد : انه(روكنتان) (٤) في « التمقس » (٥) ، و« الغريب » (٦) عند (كامو) ، على الاقل الى وقت الحكم عليه بالاعدام ، وهو كذلك (هوغو) « الايدي القذرة » ذاته على الرغم من مشيئة العمل الماثلة لديه : ان هؤلاء جميعاً قلقون باكثر منهم متمردين • وعلى كل حال ليسوا بثائرين • اما المتمردون فانهم ، على العكس ، يبدأون دائمـاً بالقلق ، وهم قلقون فاعلون ،

---

(١) P.-A. Lesort (٢) Luc Estang (٣) Jean Cayrol

(٤) Roquentin (٥) La Nausée (٦) l'Etranger

ولكنهم لايمضون بالضرورة الى درجة الثورة : بل ان (كامو) يزعم ان عليهم ألا يغدوا ثائرين ليحتفظوا بنقائهم ؛ وان « عادليه » يقفون امام حركات التمرد . ولكن هل يتصف الثائرون دائماً بانهم متمردون ، أي هل انهم ينطلقون دائماً من القلق ، من نظرة فاجعية مرهقة الى الشرط الانساني ؟ كلا ؛ أو على الاقل ينبغي علينا ان نميز ضربين من الثائر على المستوى النفسي : الثائر الذي يتجه الى الثورة عن طريق الالم ، وينظر الى التاريخ نظرة متشائمة (مثل مغامري (مالرو)، و(اورست)[1] في « الـذباب » [2] ، وبوجه عام الابنـاء الروحيون لـ (نيتشه) و (دوستوفسكي) والفوضويون على اختلاف انواعهم) ؛ ثم الثائر الذي يرى الثورة تقدم نظام عقلي ، نظام سوي بله وضروري (مثال ذلك اليعاقبة والماركسيون والبناة المتفائلون لـ (دولة) يفترض انهـا طيبة) . فالثورة ، بالنسبـة الى النمط الاول ، هي استمرار التمرد والقلق ، وهي عاطفية وصوفية اكثر منها مذهبية وعملية ؛ واما القلق فانه مجهول لدى النمط الثاني .

وثمة موضوعة مزدوجة يبدو انها مقبولة في المجال الوسيع كلـه لادب اليوم : ذلك ان المسعى الفلسفي لايكون قيماً الا اذا انطلق من عاطفة العبث ؛ وان اسلوب العظمـة سواء في مستوى العمل او في مستوى الابداع ، ينبغي ان يمتح من التمرد . لندع جانباً ، بصورة موقتة ، النقطة الاولى . ولنبحث في النقطة الاخرى . فمن الحق ان اسلوب العظمة يفترض دائماً على وجه التقريب حركـة تمرد اولى . وبينا يتكيف الحيوان مع البيئة بتعديل اسلوبه الخاص فان الانسان وحده ينفرد دون سائر الكائنات الحية بأن لديه شجاعة وعبقرية رفض العالم وتحويله وتكييفه وفق مطالب طبيعتـه . تلك هي موهبتـه (البروموثية) [3] ، وهي تنطلق من رفض عنيف لما يعرضه عليه القدر

(١) Oreste (٢) Les Mouches (٣) Prométhéenne

تنطلق من انتهاك حرمة الطبيعة . ان التقدم الاخلاقي يشترط في الغالب رفض القوانين المكتوبة ، والاحتجاج على النظام في المجتمع باسم نظام اعلى : ان حركة (انتيغون) هي ايضاً تمرد . والفنـــان ، سواء كان رساماً او شاعراً او معماراً او روائياً ، يبني عوالم حرة رشيقة ، ولكن من الثابت انه لا يشعر بالحاجة الى ابداع ما يبدع لو لا ان سبق له الارتعاش من ثقل الحتميات والالم والموت . ان (اورفه) [1] لم يكن ليغني لولا ابتغـــاء انقاذ (اوريدس) [2] : ان الاسلوب هو دائمـــاً احتجاج على نظام الاشياء ، والشعر تجسد ، والفن مقاومة ـــ المصير . واخيراً فان القديس ذاته ، وهو ينهض بسائق تعطشـــه للمطلق ضد حدود الطبيعة ويرغم العالم المحدود على ان ينفتح على اللا نهاية ، انه هو ايضاً ، مهما أغفلت الاشارة الى هذه الناحية ، يرفع عقيرته ويجأر باحتجاج فكر جرحه قانون . وعلى هذا فان التمرد قوة اجمل الوثبات، وهو في الغالب صيحة الحب الاعظم .

ولكن من الذي لايرى ـــ على الرغم من ذلك ـــ خطر الابهام الذي يلتزم به اليوم هذا الدين الذي يتصنع منه ، وعقم الابداعيـــة التي يغامر هذا الدين بقذف البشر اليها ؟ ان كلمة تمرد تحمل الان دلالة جد شاملة وجد مقدسة حتى انها تمثل الفضيلة العليا حيثما امكن استعمالها، ويحسب المرء عندئـــذ انه غير مطـــالب بالالتفات الى تمييزات جـــد ضرورية [3] . ولا ينسى المعنيون فقط ان يقولوا بان التمرد لا يبدع

---

(١) Orphée (٢) Eurydice

(٣) ان كلمة « المرء » لا تدل هنا على كبار المفكرين الذين يجانبون بوجه عام عائق الموقف السلبي المحض في احتجاجهم على العبث : وقد ادركنا ذلك في كلامنا على حوار (كامو) و (سارتر) . بل ان كلمة « المرء » تدل على الكتّاب التابعين الذين يستثمرون تقليد سواهم : مثال ذلك (ا. ـــ م . سيوران) E. - M Cioran في « موجز اللاتاليف» Précis de Décomposition وفي « اقيسة المرارة » Syllogismes d'amertume وهذان الكتابان يمثلان نموذجا جيدا عن التشاؤم المصنوع الذي ينهار بثقل غلوه ذاته .

الا عند نجاوزه ــ والا فانه ينحل الى صرخات عاجزة ويمنح اللا عمل مسوّغات تبرره على نحو جد مريح ــ ولكنهم يشملون بدلالة هذه الكلمة ايضا ، ويمجــدون بلفظ التمرد نفسه التمرد السياسي ، وهو احتجاج على فوضى التاريخ ، والتمرد الميتافيزيائي ، وهو احتجاج على الكون . والتمرد هو دائماً انكار يعارض به الفكر مشهد الشر ؛ ولكن كلمة « الشر » تدل على امور جد متنوعة بطبيعتها : موت الاطفال أو انخلاع الكادحين . وكل ما يخنق الفرد يبدو في نظره حتمياً . ولكن جدار التاريخ الذي تشيده سواعد بشرية هو رغم ذلك شيء آخر غير جدار القدر . ان التمرد ناجع ازاء الشر التاريخي ، والصبر جبن ، ما دام النصر ممكناً . والتمرد على الشر الميتافيزيائي ، إن كان يقلص الانسان ويحمله على الانكماش في رفض خطابي لشرط وجوده ، أو كان يستهلك طاقته بلا جدوى في ازمات أو خلجات ، فانه ليس بأشرف موقف ، ولا ، ان جرأنا على القول ، بأذكى موقف . لان المسألة أخيراً هي إما أن يكون لنظام الكون ومغامرة الحياة اصل آخر غير اندفاع قوى جامحة أو صدفة عمياء صماء ، وإما ان يكون الله مسؤولا عن العالم . ففي الحال الاولى ، من الذي نعتبره مسؤولا وماذا نأخذ عليه ؟ ان هذا الندب القلق ، أو هذه الكلمات الساخرة ، وهذه الحركات اليائسة ازاء الالة العظمى اللامبالية ، ان ذلك كله غضب اطفال ، وحرن طفولة ؛ والعظمة الحقيقية هي عند الرواقي الذي يرضخ للقوانين بصمت فخور . وفي الحال الثانية ، ما معنى التجديف ؟ كتب (كامو) الجملة المدهشة الآتية : « ان المتمرد الميتافيزيائي ليس بالتأكيد ملحداً ، ولكنه يجدّف على الله بالضرورة » . فاذا كان ملحداً فان صرخاته الغضبى ضد عالم صامت وضد مذهب قوانين خالية من الروح ، انما هي عبث مضحك . اما اذا لم يكن ملحداً ، وجدّف على الله ، فان موقفه ليس

ذا معنى إلا بافتراض اله شرير ظالم على الطريقة « البايرونية » [1] : وذاك خيال شاعر أكثر منه فكرة ميتافيزيائية . فاذا كان الله هو الله ، جاز ان يكون التجديف عليه حاجة القلب ــ ان (ايوب) لم يخش وهو في ذروة ألمه من ان يجأر بلعناته ــ ولكن التجذيف على وجـه التأكيد خطيئة الفكر ، القوة والنبالة هما عندئذ لدى المسيحي الصابر بذل ومحبة . ليس للتمرد قيمة ايجابية مبدعة الا في نطاق محدود ، نطاق يقع قبل أو بعد احدى الفرضيتين الآتيتين : الضرورة الكلية أو العدالة السرمدية . ولكن الامر ينتهي دائماً الى لقاء هاتين الفرضيتين ، وهما تستلزمان كلتاهما الخضوع الاخير .

ثابت ان من السهل فهم الحوافز والعوامل التي توحي الى انسان القرن العشرين بنظرة متشائمة الى شرط وجوده والى تاريخه . ولا بد من الاعتراف اولا بأن الكتّاب ، و « المثقفين » في العصر الذري ، وفي عصر التعذيب الجمعي ، يقصرون عن اداء رسالتهم اذا هم اكتفوا بالتهريج وبموقف الهواة المتفائلين السطحيين المرهفين كما في السنوات الجميلة ، سنوات عام ١٩٠٠ ، حيث « طراوة العيش » البرجوازي؛ ولذا فان من المناسب ان نوقظ الانسان لديهم . ومن هذه الزاوية ، وعلى الاقل من حيث النية والقصد ، يبدو أدب القلق والتمرد دائمـا ادباً له ما يسوّغه . ولكن الانسان ، على الرغم من ذلك ، ينظر نظرة جد جزئية الى الامور اذا رضي رضى مطلقاً بهذا التبرير الذي يعتمد التبرير بالظروف . فمن السوي ، وربما كان من المناسب ، ان يثبت النظر على الوجوه المفجعة في وجود الشرط الانساني ، سواء من حيث صورته الميتافيزيائية التي لا يمكن اجتنابها وهي توجب العزلة والالم والموت ، أو في صورته التاريخية التي تتسع للاصلاح الى حد كبير

(١) Byronienne

أو صغير ، وهي تقتضي اضطهاد الضعيف ، والتضحية بالفقير ، والطغيان الشرعي ، وسائر انواع الظلم • ولكننا لا نقول كل شيء عندما نعلق الكلمات الثقيلة الوحشية الكبرى الآتية كالسيوف في المغامرة الانسانية الغريبة : الصدفة ، البؤس ، العنف ، الظلم • فالكون المادي الذي ينبثق فيه الشعور ، والعالم الانساني الذي تشيده قوى التاريخ وتصونه ، ينطويان بلا ريب على قدر من الحظوظ وقدر من البؤس ، قدر من العنف والظلم ، تكفي كلها لاثارة الشعور بالفضيحة لدى الكائن المفكر؛ ولكن هذا الكون ، لانه كون لا اختلاط ، يقدم أيضاً مشهد اتساق ونجاح من شأنه ان يثير انتباه الفكر على وجه نافع ؛ ولا بد لهذا العالم التاريخي الذي ينزع بصورة ثابتة الى استخلاص النظام الارادي الذكي الذي يسمى بالمدنية ومن احشاء الوحشية الولادية ، لا بد له من ان يوحي أيضاً الى الانسان ببعض الثقة وبعض الاحترام • وبعد فان اعجاب (كانت) بروعة نظام السماء ذات النجوم ، ودقة القــوانين الاخلاقية في قلب الانسان ، انه منطلق فلسفي مقبول وخصيب ايضا شأنه شأن شعور الدوار بالعبث الكوني •

من المناسب هنا ان نحذف أولا من حلبة الاستدلال الفرضيةالدينية حتى لزيد في توضيح رأينا وابانته • ولننطلق من النظر الى العالم نظرة التشاؤم الاعظم والقنوط الاكبر : ان هذا الكون منظومة طاقات عمياء تبذل وتستنزف في خسارة محضة وبدون أية غائية على الاطلاق ؛ والمادة شكل انتقالي من أشكال طاقة تمضي هي ذاتها في طريق النضوب؛ والحياة عارض يطرأ صدفة على المادة ؛ والشعور عــارض يطرأ في الحياة ؛ والفكر عارض يطرأ على الشعور ، وقد يقتصر دوره في القطاع البائس من الكون حيث ظهر بدون ان ندري كيف ظهر ، يقتصر دوره على مجرد استعجال السير المحتوم من ناحية اخرى باتجاه الموت • ويقترح (جان روستان) مثلا ، كما يقترح سواه ، فلسفة كهذه الفلسفة

القاتمة الصادرة عن مخبره الحيوي . ليكن ! ولكن ـ على الرغم من ذلك ـ كم من حياة رائعة عاشها احياء في فرجة ما بين هذين العدمين ! هذه الوردة ، هذه الثمرة ، هذا الوجه الانساني الجميل ، ليست ، كما يقول (سارتر) سوى « موجودات لا فائدة منها » . ولكنها موجودة على الاقل وهي تروق حواسي وفكري الذي يستمتع باكتشاف كمال هذه الاشكال الجميلة ، وان حواسي وفكري قد وجدا أيضاً من أجل الازدهار في لحظة فرح لا تقل قيمتها بسبب انها تفجرت تفجر شرارة مباغتة لمعت في قلب العدم . ثم ماذا ؟ ان هذه الكومة الصغيرة من المادة الحية الماثلة في اصل المغامرة الانسانية ، تهزها البحار وتسعى الى تحقيق جميع صورها الجائزة، وتجد دائما أفضل صورها، وتصبح عضواً ، جسداً، دماغاً ـ تصبح آخر الامر بعملية معجزة فكر (بتهوفن) [1] الذي يفجر هذا الصخب الجميل من الاصوات المتسقة ، عين ويد (سيزان)[2] الذي يعيد صهر عالم ، دماغ (انشتين) [3] الذي يدهشه قياس الكون ، وبصورة ادهاش اعظم ، تصبح روح التأمل لدى (باسكال) أو (برغسون) ، تصبح القلب المحسن للقديس (فنسان دي بول) [4] أو للدكتور (شويتزر) [5] . فاذا لم يكن وراء النجاحات الكونية شيء ، فلنعجب بهذه الفرصة ، وهذا الحظ . اما اذا وجد وراءها فكر مبدع رباني ، فلنعبده على انه نعمة . وفي جميع الاحوال ، لا يستحق هذا العالم الوحشي الجميل الذي قذفنا فيه اللعنة وحسب ؛ بل انه يستحق الاناشيد أيضاً . انه لا يسوّغ فن الثورة على الطبيعة فقط ، بل الخضوع لها ، او على الاقل يسوّغ وثبتها .

وعلينا ان نقوم باستدلال مماثل في صدد التاريخ ، وفي مجال

(١) Beethoven (٢) Césanne (٣) Einstein

(٤) Vincent de Paul (٥) Schweitzer .

أضيق . اننا نحن اهل القرن العشرين ، وقد احاطت بنا ذكرى النكبات وخشيتها ، نلفى أنفسنا في وضع يتيح لنا معرفـة ان الالم والعنف والكذب هي نسج التاريخ ؛ وان بريق اجمل الثقافات قشرة رقيقـة ضعيفة لا تلبث ان تتهافت عند الاحتكاك الاول ؛ وان المغامرة الانسانية لا تخضع بوجه من الوجوه لقانون تقدم حتمي : انها قد تقود تماماً الى الاخفاق التام ؛ حتى انها قد تؤدي الى الحد الاقصى من الاخفاق ما دام العلم يخبرنا اليوم بأن هذه المغامرة تجري بآن واحد في كون صائر الى التفكك ، وأن لا مندوحة له من الانتهاء . ليكن ! ولكن ذلك لا يمنع ان يكون نجاح النوع البشري على وجه الارض حقيقة راهنة ، وان لنتاج التاريخ المسمى بالمدنية ، مهما كان ناقصاً واهناً ، قيمة ثمينة تستحق ان نحبها ونخدمها . كان (اندره جيد) يقول : « ينبغي ان نذهب الى الصحراء لكي نفهم معنى كلمة ثقافة » . وانا كذلك اقول : علينا ان نكون قد اجتزنا عصور النكبات وتألمنا من الجوع في المدن الاطلال ؛ وبكلمة واحدة علينا ان نكون قد قذفنا الى شروط الحياة الابتدائية المتوحشة كيما نقدّر مفهوم المدنية حق قدره . ومن الموائم ألا نفهم بكلمة مدنية معناها السامي الرفيع وحده ـــ معنى ازدهار ثقافة ، وتأكيد سلّم قيم روحية ـــ بل بمعناها الوضعي المتواضع أيضاً ـــ كفالة الشروط المادية للحياة ، سهولة العيش اليومي وتنوعه ، كل ما يقع في متناول يدنا بغزارة منذ انحدارنا الى الشارع ، منذ اننا نفيد ، بدون ان نستمر على الانتباه الى اننا نفيد ، من منافع هذا الشيء الرائع : مدينة ، المدينة بنظامها وبمخازنها الممتلئة ... الممتلئة بلا ريب بالنسبة الى من يملك المال ؛ وهنا ينبثق حادث الظلم الاجتماعي ، شر الحتمية التي تسحق في قلب مجتمع متمدين فئات من الافراد وتبرّر تمردهم وتمرد العقول التي تتصور مطالب العدالة . اجل ! ولكن ليكن مفهوماً فهماً جيداً ان الشر يثوي في جذام الظلم ، لا في المدنية بالذات ، وان

التمرد ينبغي ان يحترس من نسف المجتمع بجملة بنيانه في سبيل محو الظلم • وسواء شئنا أم أبينا فاننا ورثة تاريخ ، ونحن من صنع القرون، قرون رانت عليها امكانات العالم كافة ، ولم يستطع الانسان ان يسهم فيها الا بنقائص طبيعته وفي حدود نبوغه وعبقريته ، وان عمله عمل غير نقي ، يشوبه الخير والشر • فثمة واجب الامانة والعدالة الذي يقضي بالتمرد على الشر ؛ ولكن ثمة ايضا واجب الوفاء والحذر القاضي بعدم رفض مدينة بأسرها وهي تمثل ، في زمن معطى ، ومكان معطى ، نصر الانسان وفرصته •

اننا نجدنا ازاء التاريخ ، كما كنا ازاء الكون ، امام فرضيتين : فاما ان تكون المدنية قد بنيت على دفعات ، وشيدت بسلسلة من الصدف ومن استعمال حرية اللامبالاة في سبيلها ، وعندئذ ينبغي ان نعجب بما تضم من امور قيمة جاءت على انها نتيجة الصدفة والاتفاق ؛ واما انها تقابل خطة آلهية ، تقابل إتمام الانسان لعملية الخلق ، وانها تقدمت بسائق حض الفكر ؛ وعندئذ ينبغي احترام امورها القيمة على انها نعمة النعم • وفي الحالين يزول تسويغ اليأس الاخير بازاء جواز التاريخ ، واقول أيضاً ان تبرير هذا اليأس يقل عن تبرير اليأس من عبث الكون ، لاننا نجد هنا حلبة الانسان ، حيث يتحلى فعله فيها بنجوع أعظم •

من مذهب انساني بلا احتشام

الى مذهب انساني بلا وهم

لنفرض ان مدنيتنا قد بادت في اعقاب مدنيات اخرى ولم تخلّف سوى موضوع يدرسه علماء الاثار • ولنفرض ان عالما جاء بعد بضعة آلاف من السنين واكتشف بطريق الصدفة نص « الاعلان الدولي لحقوق

الانسان » الذي أقرته منظمة الامم المتحدة في العاشر من كانون الثاني عام ١٩٤٨ • وقد يخطب هذا العالم مجمعه العلمي فيورد ما يشبه القول الآتي : « يبدو لنا ان الانسانية حوالي منتصف القرن الميلادي العشرين قد بلغت درجة جد عالية في سلّم المدنية • فنحن نعلم بأن ثمة من قبل اعلانين للحقوق يسبقان بقرن ونصف قرن : اعلان الولايات المتحدة الامريكية واعلان الثورة الفرنسية الكبرى • وان احدنا ليدهش من التقدم الذي حققه الضمير العام والضمير الاخلاقي خلال هذه الحقبة من الدهر • أولا : ان (الاعلان) الجديد لم يبق من صنع دولة واحدة، شعب واحد يؤكد استقلاله • بل انه اعلان عن عقيدة رسمية جهرت بها امم الارض قاطبة بحرية تامة غداة حرب عظمى استطاعت اجتثاث آخر ما رسب من اثار الطغيان والوحشية ، ونهضت بذلك بوثبة اجماعية • ومن زاوية اخرى ، بينا يقتصر الاعلانان السابقان على كفالة الحقوق المدنية والسياسية ، فان اعلان الامم المتحدة يمضي الى أبعد من ذلك : انه يؤكد حق كل فرد ، وكل جميع الافراد ، في الامن الاجتماعي ، وحق العمل ، وحق التربية والثقافة ؛ وينص هذا الاعلان على ان « لكل من يعمل الحق في تعويض عادل مرض يكفل على هذا الوجه له ولاسرته عيشاً لائقاً بالكرامة الانسانية » • وعلى الاجمال ، فان هذا الاعلان لم يمح اضطهاد الفرد السياسي الذي يعتوره الاعتساف وحسب ، بل محا ايضا الاستعباد الاقتصادي عن العامل المستغل ومحا شقاء الفقير وذله • ولم يكن لكلمة شرط الوجود الانساني أي معنى أكثر ثروة واعظم مطابقة لمطالب الفكر منها هنا ••• » •

هكذا قد يتكلم المجمعي النبيل في العصر القادم ؛ وهو لا يكون كاذباً ، وان تعليقه صحيح حرفياً • ولكن لنفرض ان أحد زملائه يتميز بالحاف أكبر ومعرفة اوسع فلا يقتصر على تحليل الوثيقة واعادتها الى

قرينتها التاريخية ، ولذا لا يتردد في ان ينشر جوابه في مجلة ربما سُميت « مجلة العاديات الاوربية » فيقول : « الحق ان لم يكن للاعلان الدولي لحقوق الانسان اية دلالة في عصره . وانما سقط في لا مبالاة الرأي العام ، وفي شبه نسيان الصحافة . ولهذا اسبابه : ذلك ان البون بين المبادىء وبين افعال الحكومات كان جد شاسع حتى ان أحداً لم يكن ينظر بعين الجد الى نص يتفصد بالرياء الرسمي . لقد كانت فترة القرن العشرين ، وايم الحق ، احدى الفترات التاريخية القاتمة : ومن النادر ان يشاهد بجلاء اوضح من جلاء مشاهدة الحادث الذي يتُرهب وقوعه دائماً ، حادث تقهقر تيار المدنية . ففي ساعة اعلان ان « كل انسان يستطيع ان يتزود بجميع الحقوق وجميع الحريات دونما تمييز بالعرق واللون والجنس واللغة والرأي ... » كان النصف الشيوعي من العالم يمضي الى درجة رفض حرية التعليم على العلماء الا اذا تقيدوا بعقيدة « بيولوجيا » الدولة ؛ وكانت الديمقراطية الامريكية تضطهد الزنوج وتطهّر الموظفين الماركسيين ؛ وكانت الامم المستعمِرة تجهد بالعنف أو بالمكر للابقاء على عبودية الشعوب المسماة بالسكان الاصليين . كانوا يزعمون انهم يكلفون لكل انسان حق ان « تحكم عليه محكمة مستقلة غير متحيزة » ، وكانوا يمنعون « توقيفه التعسفي وحبسه ونفيه » او الحكم عليه « من اجل اعمال أو عدم اعمال كانت في زمن اجتراحها لا تشكل جنحاً » ؛ ولكن الانسان رأى محاكم استثنائية في البلاد المتحررة ؛ ورأى آلاف السجناء يعانون خلال سنوات طويلة السجن بانتظار محاكمتهم ؛ وكانت الديمقراطية الموصوفة بالشعبية تبدد خصوم النظام او الخارجين عليه بالنفي أو بمعسكرات التجميع أو بالموت بعد محاكمات صورية وأحياناً بدون أية محاكمة اطلاقاً . كان (الاعلان) يقول أيضاً : « لكل شخص الحق في التنقل بحرية وفي

(١) Bulletin des Antiquités Européennes

اختيار مسكنه داخل دولة ، وله ان يترك أي قطر ، بما فيه قطره ، وان يرجع الى بلده » ـ ولكن « ستاراً حديدياً » كان ينهض في وسط (اوربه) ، وكانت احكام كثيرة البنود تجعل من المحال عملياً الهجرة الى معظم البلدان الغنية ، بل تجعل اجتياز الحدود بين البلدان الصديقة ذاتها تخضع لألف معاملة شكلية تافهة أو مهينة • وأخيرا ، بدل اطمئنان كل انسان في تلك السنوات على عمله ورزقه ، كانت ملايين العاطلين في المدن الصناعية الكبرى تتخبط ضد البؤس والشقاء ، وكانت مئات آلاف الاشخاص الذين يسمون بالنازحين يحيون في المعسكرات حياة لا انسانية • ذاك هو عهد القرن العشرين البرجوازي المسيحي : كان دبلوماسيون لا قدرة لهم في الواقع يلهون بصنع مواثيق ذات طماح انساني كبير ، ولكن ذلك لم يكن ليحول دون ان يعمد الوزراء الى مؤامرات الاحلاف ، ولا أن يضاعف المهندسون اختراعاتهم الشيطانية ولا ان يُعدّ العسكريون الحرب التي كان من شأنها ان تقرر الانحطاط الحاسم للمدنية الغربية » •

اني اقدّر هذه الصورة المجازية بما تستحق : انها تمتاز على الاقل بميزة الاشارة الى ابهام العصر الذي نعيش فيه • ومن الجائز بيسر ان نضرب امثلة اخرى • ان أمل المذهب الانساني وروح محبة النوع البشري امران يؤكدهما على نحو رفيع (ميثاق الاطلسي) الذي يعلن « سلاماً يكفل للبشر كافة ، في جميع البلدان ، القدرة على ان يعيشوا حياتهم كلها بمنأى عن الخوف وعن البؤس » • ولكن لم يمض على هذا النص عشر سنوات حتى وجدت احدى لجان (المجلس الكنسي البريطاني) [1] أن من حقها التصريح بأن « علينا ان نفطن الى احتمال ان يهدم الناس ، بجنونهم أو خبثهم ، المدنية والثقافة ، بل ان يقضوا

(١) Consell Britanique des Eglises

على وجود النوع البشري » • ولكن من الواجب ان تقول على الرغم من ذلك بأن تناقض النصوص والوقائع لا يعني رياء محضاً ؛ أو انـه يعني ، اذا استخدمنا هذه الكلمة ، تذكرنا بأن الرياء هو امتداح الرذيلة الفضيلة • وان التأكيد الذي يتكرر في كل مكان بأن للانسان حقوقاً متعالية في حين تهضم هذه الحقوق بوجه عام انما يدل على ان المجتمعات الحديثة وهي تنص على الشر لا تعدو انها مرغمة على الدعوة الى العدل، لان العدل مطلب الضمير الانساني ، وهو ليس بمطلب ثاو في فكر النخبة وحدها ، بل وحتى في غريزة الجماهير القوية الغامضة • والحق ان الانسان المعاصر ، في مجال الضمير وفي مجال العلم ، يشعر بأنـه على شفا النجاح كما هو على شفا الكارثة ؛ انه يعلم ان مدنيته قـد تزول مادة ومعنى ، او انها ، بحسب الامل الذي خلقه (توينبي) ، قد تنفتح على عهد مافوق الانسانية • ففي وسعه ان يحول قدرته المباغتة المكتسبة على الطبيعة اما لمصلحته أو لهلاكه : لمصلحتـه اذا رضخ لوثبة الفكر شطر النظام والمحبة ؛ ولهلاكه اذا رضخ لثقل الاثرة نحو الحرب والاختلاط • يقول (فاليرى) : « لم تحظ الانسانية في أي وقت آخر كما تحظى الان بهذا القدر من الاستطاعة ومن الاختلاط ، هذا القدر من الهموم ومن الدمى، هذا القدر من المعرفة ومن الاضطراب• وان القلق والتفاهة يتناهبان ايامنا » • ذاك هو وضعنا تمامـاً : ان حالنا معلقة بين هزيمة النوع البشري وبين نصره كما نلمح ذلك جائزاً على قدر سواء ؛ وهذه الحال ليست حال اليأس على قدر ماهي حال الدوار • ونحن انما نحيا عهداً عظيماً •

بيـد ان من الواجب ان نفهم دلالة هذه الافكار • لنـدرك ان الابهام الذي يبدو لنا اشارة عصرنا وعلامته انما هو ينبئنا عن الأزمنة القادمة لانه يقوم في أصل التاريخ كله • وان الانسانية لتتقدم عبر

لا تحديد مزدوج : لا تحديد حرية الانسان التي يمكن ان تلفى دائماً في عقله وفي قلبه مبدأ قوة ووحي عمل وتقذف به باتجـاه يعارض مجرى الاشياء؛ ثم هذا الضرب من اللا تحديد ذي ظاهر المفارقة والذي يولد من تفاعل القوانين ذاتها بسبب تعقدها اللا نهائي ، وتداخلهـا الذي لا يمكن اجتثاثه ، وتراكيبها التي لايمكن التنبوء بها : وعلى هذا النحو يولد الحظ الذي قد ينجب في كل لحظة اما طاقة نبوغ شخصية استثنائية قادرة على تبديل مجرى الحوادث ، واما ان تنجب حادثاً مادياً بسيطاً يكسر خط القدر، ذرة رمل في احليل (كرومويل)(١) مناورة زائفة قام بها (كروشي) (٢) في (واترلو) (٣) ، تقدم العلماء الامريكيين في البحوث النووية. ولنلاحظ اولاً ان هذه الفكرة لاتنفي الله من التاريخ ، لان الله يوحي الى الارادات بفضله ، وهو بعقلـه مبدع القوانين وسيد الحظ ؛ وعلى كل حال انها فكرة لا تخلق قنوط الانسان ، بل على العكس . فاذا صح ان اختيار الاجوبة الجائزة هو اختيار واسع في كل حال معطاة ، وصح ان حدود الضرورة هي في معظم الاحيان مما لايمكن تمييزه ، فهذا التردد ذاته يعين ، مع حقل شجاعتنا ، حقل أملنا . ذلك ان الشجاعة تولد في زمن الحيرة ، كما ان الامل نجمة الليل وفضيلته ؛ ولئن كان ثمة عظمة خاصة بالانسان ، فانها عظمة ان يعيش ويعمل وهو يقبل المجازفة . هل ينبغي علينا ان نذكّر بهؤلاء الحذرين الزائفين الذين تدافعوا بالمناكب نحو العبودية عند نجـاح (هتلر) نجاحاً عظيمـاً ، وصاروا يبررون سلوكهم باسم النظرة الواقعية ؟ لقد حسبوا انهم يستنتجون بداهة هزيمـة حتمية قطعية ؛ اما اولئك الـذين كانوا يكتفون على تواضعهم بالايمـان وبالمقاومة ، ولم يكونوا ليؤولون التاريخ ، فقد كان الهامهم افضل :

---

(١) Cromwell (٢) Grouchy (٣) Waterloo

انهم كانوا يصنعون التـاريخ • وعلى هذا النحو في الغـالب تنشأ القرارات العظمى •

والحق ان ما يبدو جديراً بأن نحكم عليه اليوم ونرده ليس هو الامل بل التفاؤل • وهو كذلك التشاؤم ايضاً • ان التفاؤل والتشاؤم موقفان يكاد الفكر لايشرف بهما : ففي عالم يشوبه الخير والشر على نحو جلي ، وفي شرط انساني لاينكر فيه تأثير الحتمية كما لاتنكر وثبة الحرية ؛ وحيث تجوز هزيمة الانسان ونصره على قدر سواء ، فان من العبث والاجرام على قدر سواء ايضاً القول بأن كل شيء يتجه جهة الافضل وينحى بالضرورة في المنحى الطيب ، لان ذلك يعني جهل دموع المعذبين ومجازفة كل عمل ؛ وكذا القول بان كل شيء اخفاق ، وان امراً لا يعدل عناء الاضطلاع به ، لان ذلك انكار فرص السعادة والخلاص ، وتجديف يسيء الى الفرح والجمال والنبل ، وهي تزدهر في العالم وتبرّر هذا العالم حتى من وجهة نظر وضعية محضة وحيادية دينياً • ان التفاؤل والتشاؤم موقفا سطح ويسر ؛ ولكن للامل واليأس وزناً وبريقاً وعظمة ، وهما جديران بضمير الانسان : الامل ، لانـه عمل الارادة العاقلة الحرة ، قبول شعاع من النور ينفذ عبر الظلمات والاخطار ، سير نحو نور صغير يبزغ في الافق ؛ واليأس ، لانه يلمع ايضاً في الجلاء ، في صدمة مطلب داخلي يستهدف النظام والدوام والمحبة ضد بداهة مصير يمنعنا منها ، واليأس ينجب التمرد ، والتمرد شكل من اشكال الشجاعة، وهو يحض علىالابداع• يقول (برنانوس): « التفاؤل بديل الامل ، ونحن نلقاه بسهولة في كل مكان ، نلقاه مثلاً حتى في قعر القارورة • ولكن الامل يكتسب اكتساباً • وان الانسان لا يذهب الى الامل الا من خلال الحقيقة ، وحين ينفق الثمن جهوداً كبرى ، وصبراً طويلاً • ان الانسان لا يلقى الامل الا اذا مضى اولاً

الى صميم اليأس • وحين يـذهب المرء الى طرف الليل ، يلقى فجراً جديداً » • والغريب ان (سارتر) يتحـدث بكلمات مماثلة فيقول : « ان الانسانية تبدأ في الطرف الآخر من اليأس » • وينصح (عمانويل مونيه) من جهة اخرى بأن يراهن الانسان على الخير بدء من معرفة الشر كما ينصحه بالمجازفة على اعتبارها شكلاً من أشكال العمل ، وهو يتحدث عن « التفاؤل المفجع » • ويمضي (رومانو كارديني) [1] من وجهة نظر لاهوتية ويحلل تحليلا قوياً تفكك التركيب التمديني الناجم عن عصر (الانبعاث) ومشاهدة « نهاية الازمنة الحديثة » ، ولكنه لم يخلص البتة الى القول بنهاية العالم ، بل قام بحساب حظوظ تجدد الانسانية من الناحية الاخلاقية والروحية عن طريق توازنها في اطـار حكومة أكبر [2] • وان (جوزيف بيير) نفسه ، وهو يفكر في انتهاء الازمنة في مشهد كارثية رؤى اخيرة ، لا يقصر عن سواه في تأكيد قيمة الأمل وضرورة العمل المرح فيإنطاق التاريخ كما يرى المسيحيون• ومن شأن هذه الالتقاءات كلها انها حافلة بالمعنى : انها تعيّن المكان الذي يشعر فيه تفكير اليوم بالوثوق ويصبح خصيباً ــ وهو مكان مذهب انساني خال من الوهم •

لقد قسا (مرلو بونتي) في حكمه على المذهب الانساني التقليدي الذي قام به اسلافنا ، هذه الفكرة القائلة بانسانية منشودة تؤكـد ذاتها بتعاليها على تاريخها الخـاص ــ وقال انه « مذهب انسـاني بلا احتشام » • نعم ، لقد شاهدنا ان العجز عن رؤية المفجع واللايقيني في شرط وجودنا يؤلف عقبة في غالب الاحيان ؛ أو على الاقل يشكل

(١) Romano Guardini

(٢) « نهاية الازمنة الحديثة » ترجمة (ج • انسله ــ هوستاش) ١٩٥٢ ، ــ وله ايضا : القوة ١٩٥٤ •

La Fin des Temps Modernes, trad. , J. Ancelet - Hustache, Le Seuil, 1952 ; - du Même : La Puissance, 1954

فتنة المذهب الانساني البراجوازي • اذن ، فنحن نختار مذهباً انسانياً بلا وهم • ولكننا ، ونحن نحتفظ بالكلمة ، نرفض ان نفرغهــا من معناها الرئيسي : بل نؤكد ان الفكر فوق التاريخ ؛ وانه يصنع التاريخ جزئياً ، وانه في جميع الاحوال يحكم على التاريخ • ونحن نثابر على رأينا بان التقدم جائز عن طريق نظرات العقل المعدّلة ، عن طريق فكر التوافق والاخاء • واذا اتفق لنا ان ارتبنا وارتعدنا خوفاً على القبس الضئيل الذي يرتعش امام نفحــة العنف الانساني ، فاننا لا نأخــذ بالصراخ مع الآخرين بان المستقبل للقوة وللكــذب وللمكر ولسائر ضروب خيانة الفكر التي يبررها الزعم بغائية يقال انها غائية التاريخ ؛ ونحن لانطلب ، نحن ايضاً ، اسلحة من اجل اختلاط الحروب الشاملة والثورات العاتية الصارمة : فتلك رسالة غير رسالة من اختار الايمان بالانسان وقبل تراث ثقافته ؛ اننا نطلب ان نرفع في وسط الليل النور الواهن الذي لايمكن استبدال غيره به ونسير آملين بالفجر •

ان الانسان لم يملك البتة سبباً قطعياً يحملــه على القنوط من التاريخ ؛ ونحن لا نملك مثل هذا السبب كما لم يملكــه أسلافنا • ولو ترتب علينا نحن ان نمر ايضاً بازمنة توحش جديدفان من الواجب علينا ان نأمل ايضاً بهدي (المتوحشين) ومنحهم الحقائق التي نحملها ونؤمن بأن الفكر قادر على البقاء بعد انحدار المدنية التي غذّاهــا خلال القرون ، وذلك حين يبقى بصورة مستقلة عن اشكاله وصوره • ولو فُرض علينا ان نجتاز احدى الحقب المشؤومة التي لا يؤثر في التاريخ خلالها الا ارادات التسلط العمياء ، وحيث يقود الرياء والعنف والحمق الحوادث فيذهل من ذلك انصار الفكر وتثبط هممهم ويمكثون على شفا الطريق ، فان من الواجب ايضاً ألا نيأس • ذلــك ان تحت التاريخ الصاخب الطنّان الذي يصنعه الرؤساء والمشرّعون ورجــال

الشرطة والجلادون يوجد تاريخ آخر ، تاريخ سري نقي تنسجه الحياة الخاصة لملايين البشر الذين يعملون بصمت ويتأملون ويبدعون اثاراً ويربون اطفالاً وينقذون على الاقل الانساني في ذواتهم ويجمعون طاقات روحية لايزال في وسعها تبديل العالم . اننا نقرأ في كتاب عاقل من القرن السادس عشر : « ان جميع الازمنة تصلح ليعيش المرء عيشاً طيباً فاضلاً » . ويقول (بيغي) : « ان الحياة الخاصة تجري تحت الحياة العامة ، فتنهض بها ، وتدعمها ، وتحملها ، وتغذيها . الفضائل الخاصة تجري تحت الفضائل العامة ... والخاص هو النسيج ذات النسيج . اما الحياة العامة ، والرسالات العامة ، فليست ابداً سوى جزر صغيرة ، اما الخاص فانه هو اليم العميق » . نعم ، حتى ولو وجب على الفكر ان يرفض اخضاع التاريخ المحكي لنظراته ، فان عليه ان يوجّه دفة التاريخ غير المحكي ، ويوحي بأشكال العمل المبدع التي تعمل على انبثاق الحصاد والمنزل والقصيدة . يروي (اوريجين) (١) قائلاً : « كان الناس في اسرار (ايلوزيز) (٢) يقدمون للمريدين سنبلة قمح حصدت بصمت على انها اعظم موضوع تأمل صوفي وأروعه وأكمله » . وانا احب هذا الرمز الدال على القيمة المقدسة للاشياء الوضيعة التي لا يزال في وسعها ، وسط الظلمات والعواصف ، ان تضفي الكرامة على عمل الانسان وتمنح التاريخ عمقاً .

---

(١) Origène (٢) Eleusis

الفهرس

— ١ —

المدخل

— ٢ —

الانسانيون يكتشفون الفاجعة

— ٣ —

وجوه مذهب ما فوق الطبيعة التاريخي :

المسيحيون بين الزمني والسرمدي

— ٤ —

الماركسية ، لاهوت التاريخ

— ٥ —

وجهات نظر وجودية إلى التاريخ

— ٦ —

محاولة خاتمة شخصانية :
من التشاؤم إلى الأمل

تعرّب هذه الترجمة الكتاب الآتي :

PIERRE - HENRI SIMON

L'ESPRIT ET L'HISTOIRE

Essai sur la Conscience Historique
Dans la Littérature du xx^{e} siècle

(Paris, Armand Colin 1954)

طبع على نفقة
المكتبة الهاشمية بدمشق

السعر: ٣٢٥ قرشاً